
عبد الله
العروي
أوراق
المركز الثقافي العربي
Bibliotheca Alexandrina
0120980


أوراق

* **أوراق (سيرة إدريس الذهنية).**
* المؤلف: **عبد الله العروي.**
* الطبعة الأولى، 1989 .

* الناشر: **المركز الثقافي العربي.**

العنوان: بيروت ـ الحمراء ـ خلف البنك العربي ـ ملك المقدسي ـ ص.ب ١٣/٥٨٨١ .

---

**الدار البيضاء ـ** 42 - 44 الشـــارع الملكي (الأحبـــاس) ـ ص. ب 4006 .

## عبد الله العروي




### سيرة إدريس الذهنية



— 1 —

هذه أوراق إدريس، خذها أنت أقرب الناس إليه، وإلا اشتراها البقال ليحرقها أو يغلف بها الحمص. الكتابة حرفتك. افعل بها ما تراه نافعاً. يحتفل الناس بالأربعينية، لنحتفل بعشرينية إدريس. . عشرين سنة في ظلمات الاحتلال وعشرين سنة في نور الاستقلال. .

- ليس وحده في هذا الحال. .

- تريد أن يطمس ذكره؟

- من قال لك إنه كان يرغب في أن يحفظ ذكره؟ من يضمن لنا أن ما ترك هو أحسن أصدق ما كتب؟ ألا يكون الأهم ما حجبه عنا واختفى بوفاته؟ الأوراق بلا شك غير متسلسلة، أساليبها لا شك متنوعة. إذا رتّبتها على كيفي ربما حمّلتها معنى غير الذي أراده إدريس، ربما أعطيت عنه صورة غير مطابقة للحقيقة. وإذا نشرت كل ما فيها على حاله ربما ألحقت به الضرر. قد أعطي عنه صورة أقل وفاء من تلك التي خططتها عندما جعلت منه شخصية خيالية.

- استعملت اسمه وأقواله وحوادث حياته بدون إذن منه. الآن حان الوقت أن تؤدي له حقوقه.

- تقول: هذه الأوراق أكتب سيرة إدريس. وأنا مقتنع أن السيرة مفهوم وهمي. كتب أستاذك المحبوب الشيخ طه سيرته ظاناً أنه إذا تناسى ما تراكم في ذهنه من معلومات كشف عن جذوره. تصور أنه هو هو في جميع أطوار حياته، يتكلم لغة واحدة ويعيش في وسط واحد. كتب وكأن لا أحد درس الذاكرة ومخادعها، الكلام

ومزالقه، كأن لا أحد تدبّر سير السابقين من أبطال وملوك، من فرسان وتجّار، من علماء ورحّالة. كل واحد يقول: ولدت سنة كذا كما لو رأى رأسه يسقط على أرض حيّه. الفرد خلق مستمر وتفكّك مستمر.

ـ الشجرة هي هي عارية في الشتاء مكسوة في الصيف.

ـ من منا شجرة فيعرف ما يحصل فيها؟

ـ القول ممتنع عندك وها نحن نتحاور.

ـ نعم نتحاور، أية حجة في ذلك؟ نقف أمام الكون ونقرر: لكي تكون يجب أن يكون كذا وكذا، هل يجيب الكون؟ هل نصبر حتى نعرف هل هناك جواب؟ نواصل الكلام ولا نبالي. آلة تصوّت. ماذا قال الإنسان منذ أن فتح فاه؟ ماذا ينقص الكون لو سكت؟

ـ أو أحجم عن الكتابة؟

ـ أو عدل عنها.

ـ مثل إدريس؟

ـ مثل إدريس.

ـ لتكن هذه سيرته ولتزن ما تزن. السيرة ممتنعة لا القول في امتناعها. لصمت إدريس صدى. أنو وتوكّل!!

* * * * *

ـ إقرأ الأوراق. حلّلها. أوّلها. ربما تفهم سبب موته.

ـ وما يدعوك إلى الكشف عن الأسباب؟ الموت أمر طبيعي. ما يروعنا فيه هو مصير الجثمان.

ـ **«فبعث الله غراباً يبحث في الأرض..»** /1.

ـ لو كانت عادتنا عندما يحل الأجل أن نطلع إلى جبل شاهق ونضمحّل في الهواء أو أن نغطس في نهر ونذوب في الماء بلا ألم ولا ندم!! أولادنا، الذكور خاصة، هم الغراب. نريد أن نضمن لأنفسنا من يتولى الغسل والكفن والدفن، من يحمل النعش ويرعى القبر. وهم وخيال. لا أسأل: من كفّن ودفن إدريس؟ أقول انه مات ميتة أستاذه وأستاذي الذي اقتبست منه بعض ملامح شخصية يوليوس. /2.

لم يكن مثل غيره من الأساتذة. ابن مدير عام سابق للتعليم في المغرب، خريج المدرسة العليا، أعزب، متجرد من الماديات، كان يتنقل من حي أكدال إلى ثانوية مولاي يوسف على دراجة. يذهب كل يوم في نهاية الربيع وطوال الصيف يسبح في البحر مخترقاً السويقة وشارع العلو. ينظّم رحلات دراسية لتلاميذه داخل وخارج المغرب. هل كان يحب تلميذه المتفوق إدريس؟ هل كان يراه خارج قاعة الدرس؟ سألته مرة عنه فأجاب: إدريس متستّر. أروي هذه الأمور وأكتشف فيها مغزى لم أكن أفهمه آنذاك. كانت لذلك الأستاذ الوديع مطامع عليا. ربما كان يهدف إلى استمالتنا ومعاكسة الدعايات «المتعصبة العمياء» بلطف ولباقة دون مناقشة موضوعات الساعة. كان مقتنعاً أنه في منتهى الكرم والإيثار لأنه يضع أزهار ثقافته على المائدة داعياً الإنسانية جمعاء لتناول ما فيها. يحتقر الروس والأمريكان ولا يعبأ قليلاً إلا بالألمان. طرح مرة هذا السؤال: لماذا بقيت الفلسفة اليونانية عقيمة بين أيدي العرب ولم تثمر إلا عندما عادت إلى برّ أوربا؟ لم نحاول الإجابة عن السؤال بل لم ندرك مغزاه. كنا مأمورين أن لا ندخل أبداً في مناجاة ومناغاة معه أو مع غيره. انقطعت علاقتي به سنة 1951. لم أدر هل بقي باتصال مع إدريس أم لا. سمعت أنه نشط في سنوات الأزمة المغربية داخل الحزب الاشتراكي. حضر مؤتمر ايكس لي بان ضمن وفد الفرنسيين الأحرار. بعد استقلال المغرب، بمدّة قصيرة أو طويلة، توفي في منطقة الصافوا أصل عائلته. تعرف كيف؟ قيل أنه لزم بيته وأضرب عن الطعام حتى مات. ما السبب؟ قيل: نوبة اكتئاب، انهيار عصبي وذهني، بسبب إخفاق فرنسا؟ بسبب إخفاقه هو مهنياً؟ سياسياً؟ عاطفياً؟ لا أشك أنه ترك أيضاً أوراقاً وأن بعض الناس ينوي إخراجها ليجيب عن السؤال: لماذا؟ لماذا؟

ـ نحن بصدد إدريس لا بصدد أستاذه. كل شيء في وقته. أنو وتوكّل!..

* * *

كنت أظن أني أعرف إدريس. فتى من بلدتي وحيّي، عاشرته طول سنين الدراسة. استمعنا إلى نفس الأساتذة، سكنّا حجرات متجاورة، امتطينا سوياً قطارات وسفناً وطائرات. تذاكرنا وتناقشنا حتى جف ريقنا. كنت أرى أنه مرآة تنعكس فيها روحي وأنا مرآة تنعكس فيها روحه. ثم باعدت بيننا الحياة عند انتهاء الدراسة. قاطعته عندما سئمت حوارنا غير المتجدد. غاب عنّي رسمه ولم يفارقني فكره. شرّحته وحنّطته وجعلت منه بطل قصة. ملأت ذهنه ببعض أفكاري واستعرت منه آراء

ومعتقدات دون أن أعي نسبتها إليه. اختطلت الأمور علي وعلى غيري وظنّ كثيرون أنه صورة منّي. أتصفّح الأوراق فأكتشف شخصاً آخر. أيّهما أقرب إلى الواقع؟

ـ أنت أقدر الناس على استنباط ما نوى.

ـ تراني جالساً جنبك في **مقهى المحطّة** كنا نخرج من داخلية مولاي يوسف كل ظهر يوم الخميس وكل يوم الأحد. نمرّ أمام محطة القطار، نقطع الشارع، نحادي جنّينة فندق **باليما** ونقصد إحدى قاعات السينما. أحاول أن أسترجع في مخيلتي الشارع كما كان، بسياراته وحافلاته، الشرطي وسط الساحة، النادل بين مقاعد المقهى، موزع البطاقات في **الكوليزي** أو **الرويال** فلا أستطيع. ألتقط شذرات، أتذكّر أن مقاعد المقهى كانت من السوحر مصفّفة فوق الرصيف، ربما لأن ذكرياتي متعلقة ببداية الصيف. لكن لا سبيل إلى استعادة ألوان الشارع، حركاته، وروائحه. يدّعي البعض القدرة على استحضار الماضي، ما فات وانغزل من الزمن بجزئياته ودقائقه. هذا سرّ حجب عنّي. لا أستطيع حتى استحضار شكل إدريس. قد وصفته، وأصفه لك الآن كما لو أني أرفع ستاراً أو أقلّب أوراق آلبوم. متوسط القامة، قوي العضلات، كبير الرأس، سلس الشعر، عريض الجبهة، أخضر العينين، غليظ الأنف واسع الفم. صورة مؤلفة من مجموعة لقطات غير متزامنة. عاشرته حتى أني لم أعد أراه. احتفظت بصورة منقوشة في ذهني كانت مطابقة لما كنت أرى في وقت من الأوقات ثم انفصلت وبقيت مرتبطة بشبح أطلق عليه اسم إدريس. تغيّر هو وبقيت هي ثابتة.

تقول لي: اقرأ الأوراق. رتبها فسرها، (شعارك ودينك) وهذا دين في عنقك. إذا فعلت ما تطلبه مني خدمت نفسي وأسأت إليه. لو كنت حر التصرف لأعدت الأوراق إلى أصحابها.

ـ لا صاحب لها الآن. مات اليتيم وأنت وارثه الوحيد. إذا تخلّيت غلب النسيان وعمّ الصمت.

ـ للنسيان أنواع. هل كل مذكور محبوب؟

***

# القسم الأول

## الفصل الأول

# العائلة

— 2 —

- ابدأ.

- وفي نفس الطبقة صفي الدين أبو العلاء إدريس بن إدريس الأديب الأصولي المطلع على أخبار الناس وأيام العرب يقول الأستاذ اللّبان أنه قرأ في كناشة بخط أحد أقربائه أن مولده كان ليلة الأربعاء التاسع عشر من جمادي سنة كذا على الساعة الثامنة والطالع عند ولادته من برج السرطان تسع درج. كان له صوت جميل. إذا جود وقف المارة على باب الزاوية المختارية عند لوية المرابطين من مسقط رأسه مدينة الصديقية المحروسة. قيل أنه لو كان أراد العلم لغير وجه الله لتعيّش من عذوبة صوته دون حاجة إلى ما سواه. جاب الأقطار طلباً للعلم. أخبرني من أثق به أن والدته نذرت وهو في بطنها أن لا تدخله مدارس النصارى وأن توقّفه على شيوخ فاس ومراكش. لكنها ماتت وهو صغير فوجّه إلى غير ما أرادت. سافر إلى برّ العدو ولسنين عديدة حتى ثقف رطانتهم وصناعتهم. خالط الكبراء والنبهاء منهم دون أن يتخلّى عن عقيدة وعادات قومه. ظنّ الجميع أنه سيعود بمعارف ونوامس تقلب الأحجار أبريزا. لكن لم يتحقق شيء من ذلك ربما بسبب نذر أمه. يعني أنه خالف إرادة والدته فلم يجعل الله بركة فيما تعلم لأن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: الجنّة تحت أقدام الأمّهات. حفظنا الله من سوء الخاتمة. كان رحمه الله كريماً متواضعاً مع الفقراء والمساكين، صادق المحبّة في الأشراف والأولياء، طيّب المعاشرة مبارك الجوار. يؤدي الزكاة مما رزقه الله وكان قليلاً. فضّل الخمول على الظهور حتى ظن البعض أنه مات وهو ما زال يرزق..

ـ هذا ما في نفسك . .

ـ لعن الله الشيطان الرجيم. إنما هو منطق القول. الكلمات تأخذ بعضها برقاب بعض.

ـ لا شيء يطابق الواقع.

ـ قد يطابق بعضه مرحلة من مراحل حياة إدريس أو حياة أحد زملائه.

ـ دون أن ندري ما ومتى. يا شعيب لا تخضع لكلام أحد. تبدأ المناظرة مازحاً ثم تقلبها جداً فيكفر المؤمن إذا لم يؤمن الكافر.

ـ جعل الله ما في خاطرنا خالصاً لخدمته وصالح عباده.

ـ لا سبيل لكي ترجع إلى الجادّة إذا ملت عنها؟!

ـ ولو قيد أنملة.

ـ وخضت في كلام لا يحده عقل ولا يرمي إلى بيان.

* * *

ـ أين كان يسكن إدريس. أعني عنوانه الشرعي.

ـ دار أبيه. إذا حضر البلد وأردنا مقابلته، أو كان غائباً وأحببنا أن نعرف أخباره، كنا نقصد درب القائد رقم خمسة حي الزاوية.

ـ صف الدار.

ـ أنسانيها الشيطان.

ـ لا أعرف منها سوى المدخل والغرفة الضيقة الموجودة على يمين المراح الوسطاني. في البداية كانت غرفة أخيه الأكبر قبل أن ينقل إلى الجنوب. فاتّخذها إدريس مكتباً.

ـ الدار غير البيت والدّوار غير الخيمة.

ـ كانت الدار في الماضي محلّة والدرب حومة. ثم جزّئت وبيعت قطعة قطعة ولم يبق في حيازة أسرة إدريس سوى المسكن الموجود تحت صابة تحمل طابقاً للكراء. بسبب موقعها السفلي كانت الدار باردة في الشتاء ودافئة في الصيف.

ـ لم نعرف منها إلا الجزء المفتوح للزوّار. توقعنا دائماً أن يكون في الحريم سرّ.

ـ نعم. كل منا يسيء الظن بجاره بل بأخيه. هل كان لإدريس ولذويه سرّ؟

ـ على قدر الحال. سر الأطفال والمراهقين. هل كلمة صابة فصيحة؟

ـ أستبعد ذلك. لا شك أصلها فارسي.

ـ الصابة هي ما رسخ في ذهن إدريس من كل سنوات الصبا. الصابة عنده رمز الدار والأسرة والمجتمع. عرفنا إدريس هادئاً متّزناً لكنه منذ أن وعى بنفسه وهو، ناقم؟ ثائر غاضب؟، بل منفصل عن نفسه. لم يكن هدوؤه اطمئناناً، لم تكن فرحته سعادة. استمع..

— 3 —

«ودّع الفتى مرافقيه على رأس الدرب وتابع طريقه نحو باب المنزل العائلي الذي كان يبعد بعشرة أمتار عن الطريق الذاهب إلى البيضاء. كان الزقاق يحمل اسم أسرته.. أمر تافه في بلد تطلق فيه على الممرات والأزقة والشوارع والساحات أسماء جنود وضباط جيش الاحتلال، الأمر يذكره أن جدّه مثّل السلطة في هذه الناحية. كان يعتزّ بكونه لا ينتمي إلى طبقة التجّار التي يشمئزّ حتى من ذكر اسمها. يسمع صدى خطاه يتردّد بين الجدران فيستشعر الخوف كما كانت الحال وهو صبي عندما كانت تسخره امرأة أبيه بعد الغروب قبل أن يوقد مصباح الشارع. ذات مرة استولى عليه الفزع فانطلق يجري. كان يلبس صندالاً صيفياً فاصطدمت أصابع رجله بصمّ الرصيف. تألّم وأحسّ بالدم يسيل في الحذاء لكنه لم يتوقف. عندما لحق الدار وجد الظفر قد انغرس في حي اللحم. بقي سنوات يمنعه الداحوس من الاحتذاء.. يخطو خطوة فيسترجع الشعور المخبأ في سرّ ذاكرته. يقف أمام الباب. يطرق كالعادة وكالعادة يجيبه الصمت. يلتفت نحو المربع المضيء المنعكس على الحائط جنب مدخل الدار. الباب تحت صابة وعلى طريق البيضاء ينتصب مصباح، فيفرز الضوء على مسطح الحائط مدخل الصابة في شكل مربع مستقيم. أحبّه منذ صباه. أحبّ شكله المتوازن ولونه الباهت. يحيّيه كلّما وقف ينتظر أن ينهض أبوه من الفراش ويتغلّف بإزار خوفاً من الريح والبرودة. يطرق ثانية وثالثة طرقة معلومة، ثلاث ضربات قصيرة وواحدة طويلة ثم يتراجع ويجلس على المقعد الحجري المبني داخل الصابة، خاصية معمارية تعبر عن بنية اقتصادية. مقعد مشيّد في زاوية محجوبة عن أنظار المارّة يستريح فوقه الطارق، ينتظر ويتهيأ ليقبل الشروط حتى التي تؤدي به حتماً إلى دار الجزاء. يجلس البقّال على باب التاجر، الربّاع على باب الملاّك، الصانع على باب

الأمين، بعيداً عن العيون، وما أكثرها في بلد يرغم فيه السكّان على مغادرة مساكنهم. . ».

— 4 —

ـ لا يتذكر إدريس من دار أسرته إلا ما سماه خصوصية معمارية. كتب القطعة متأثراً بما قرأ من مؤلفات تاريخية اجتماعية تعادي الطبقة الوسطى. كنا نظنّه سعيداً في الدار العتيقة رفقة أبيه. كنا نرى أباه يشتغل بالتجارة. كنا نظن أن إدريس لا ينكر أعضاء أسرته الكبيرة، أعمامه الساكنين داخل السور. سمعت أن أحد أعمامه، البصير، كان يتعاطى الربا. .

ـ كان ذلك آخر سنوات الحرب عندما عمّ القحط والوباء.

ـ الصبا في تعبيره جرح لا يندمل إلا بعد حين. قد عرفته سنة 53 بالرباط وقد قصّ مقدّم حذائه ليتنفّس إبهام رجله اليمنى.

ـ حادثة أخرى بلا شك. رأيته في مراكش طوال أربع سنوات يحتذي البلغة والسبّاط بلا صعوبة.

ـ الظاهر من كلامه أنه لم يعر كبير اهتمام لمسألة الأصل والنسب. يعلم أنه من البشر، أنه ينتمي إلى أسرة معيّنة، أن هذه لها نسب، لكنه لا ينبش عن المأصل والمفصل. يكتفي بالتعبير عن ارتياحه لكونه لا يمتّ بصلة إلى طبقة التجار، التجار الحقيقيين، لا الهواة مثل أبيه الذين يتّخذون التجارة مشغلاً لا مكسباً.

ـ يتكلم بصفة الغائب.

ـ منذ البداية عاش على مستويين. تمثل في شخصية الفتى. وضعها قدامه ليتأمل ملامحها ويفحص سيرتها. لكننا نعرف بالضبط عندما يتكلم عن نفسه بكيفية مباشرة دون مفارقة ولا وساطة. يتذكر ماذا كان يقول عن أبيه؟

ـ أبي صديقي، صديقي الوحيد.

ـ تكلّمنا عن سر لم نطلع عليه. هل كانت تعيش في الدار فتاة؟

ـ لا أدري.

ـ قد تخيلت شيئاً من هذا. لا بد أن يكون للفتاة وجود بشكل من الأشكال لأنها حاضرة في كتاباته الأولى.

— 5 —

«كان الفتى وحده في الحافلة جالساً على مقعد خشبي يتألّم من البرد. لم يكن يلبس صدرية صوفية ولا معطفاً ولا جوارب. يلتفت من حين لآخر نحو النافذة فتنعكس في مقلته مناظر كئيبة مملّة. لطالما انتظر مغادرة البلدة النائمة التي ولد وتربّى فيها بين أحضان أب عطوف وديع وأخ متغطرس وامرأتين أميتين ثم تحقّق الحلم وانفصلت به شاحنة عن محيطه الطبيعي والعائلي. لكن لم يلبث أمله أن خاب. وجد نفسه في مدرسته الجديدة أكثر عزلة، محاطاً بزملاء جفاة وأساتذة قساة. لم يتذوق حياة الداخلية النظامية الرتيبة. وبعد تسعة أشهر من البؤس والحزن ها هو في طريق العودة إلى بلده، يتقاسم فؤاده الفرح بنهاية المعاناة والإشفاق مما ينتظره في البيت. اسمه؟ لا يهم. المهم أنه كان فقيراً مادياً وعاطفياً. ثروته الوحيدة حساسيته المفرطة التي كانت تعرقل نشاطه وتغذي مخيلته. يعلم أن أخاه سيرغمه بعد أيام قليلة على استئناف الدراسة. لكن لا هو ولا غيره يستطيع أن يمنعه من اللجوء إلى برج أحلامه.

توقف القطار في محطة صغيرة منعزلة. لم يكن ينتظره أحد. رفع حقيبته ومشى في اتجاه النهر بين حقول تتخلّلها النواعر. كانت المحطة بعيدة عن البلدة والطريق صاعداً بلّلت بعض جنباته أمطار متأخرة. كانت الحقيبة، من عمل أحد الصناع أصدقاء أبيه، خشبية مشدودة بسلك من حديد يحز كفّه اليمنى. نظر إلى يده المزرورقة بانحباس الدم وتعجب من كونه لا يشعر بأي ألم. أيهتم ليده وغيره لا يهتمّ لقلبه؟ فكر في الأيام التي تنتظره. سيقضيها وحيداً لا صديق له ولا رفيق. أدرك أعلى الهضبة. التفت يميناً نحو البلدة الملفوفة بأشجار الأجنّة فلم يلمح منها إلا الصوامع. ثم بدت له الدار جنب النهر، منعزلة كئيبة مفصولة عن كل جمع. حتى الطبيعة غاضبة. هنا مرت أيام شبابه، هذا مسرح حياته، بلا مدخل ولا مخرج. مرّ بجنبه مارّ. لم يلتفت إليه. ماذا يعنيه من أمر السكان؟ ماذا يريدون له ومنه؟ لا يرضى بكلمة ودّ، يتطلع إلى صداقة من يتفهّم همومه وأحلامه.

قبض على الحقيبة وسار نحو النهر بخطى وئيدة محسوبة. اقترب من الدار فخرج العم الشيباني قائلاً: «أخطأت اليوم». - «ماذا حصل؟» - «لا بأس والحمد لله، العائلة خارجة في نزهة. لم تخبر بوصولك». - «لهذا بدت لي الدار مهجورة. أترك عندك الحقيبة» - «طيب. احفظ المتاع وأوصلك. انتظر دقيقة» غاب العم ثم عاد مبتسماً. أخذ المجذافين وحرّك الفلوكة بقوة في اتجاه الغابة معاكساً دفع المخيط.

قال: «مالك يا شاب؟» - «لا شيء. عام وأنا غائب. هل من جديد؟» - «آه الدنيا بيد الخالق. كل يوم شيء جديد.» كتم ضحكة وأغمض عينيه. لأول مرة لاحظ الفتى أنه أخيف. عينه اليمنى زرقاء زرقة المحيط واليسرى خضراء خضرة أوراق الشجر. «قل ماذا جد؟» - «لا أعرف بالضبط. رغم كبر سنّي لا زلت أحقق. أرى الأمور تحدث ولا أعرف معناها ولا أسأل عنها. كثر الغرباء حول الدار. شيء يطبخ لا بدّ.» - «دقيقة واحدة وسأعرف الواقع.» - «ها أنت على بال.» - «وقفني هنا عند شجرة التوت. سأتابع الطريق على قدميّ.» جنحت الفلوكة إلى الشاطيء. انتصب الفتى ثم قفز فزلقت قدمه على الجالس المبتل وكاد يسقط. قهقه الشيباني وعاد لتجديفه.

تقدم الفتى نحو الغابة وباله مشغول بالأمر الطارىء على الأسرة. ظن لمدة طويلة أن عائلته معزولة عن الجماعة لقلّة من يزورها ثم جاء وقت تكاثر فيه الزوّار فتعرف على أخوة وأعمام وخالات. لم يخفف ذلك شيئاً من كآبته. غرق في أفكاره حتى انتبه على ضحكة فضية مغرغرة. تقدم بعض خطوات فواجهه باب خشبي تحجبه شجرة وارفة لم يعرف نوعها. طرق الباب فانفتح في الحين وكشف عن وجه امرأة عمّه. اندفعت نحوه تعانقه لكنه لم يستجب لعناقها. انفصلت عنه فرأى قدامه فتاة مشعّة كأن حولها هالة من نور. حيّته وحيّاها. هل عانقها؟ لم يتذكر إذ غار وعيه وتغمّم خياله. «من دلّك على النزهة؟» - «العمّ الشيباني. لقيته على باب الدار.» - «أدخل واسترح. العائلة كلها مجتمعة والشاي مهيأ. هذه مرجانة.» اسم ثقيل على اللسان، اسم لغز. سمع رعرعة الباب وهو يسير على ممرّ من التراب المرشوش. وجد أعضاء الأسرة جالسين على زرابي مفروشة تحت الظلال بين شجرتي توت متشابكتي الأغصان. قام الجميع وتوالت عبارات السلام وحركات العناق. تلقّاها وهو غائب عن نفسه ثم جلس كآلة متحركة. تفجّرت الأسئلة: «كيف كانت الدراسة؟ ماذا كانت النتائج؟ كيف كان المأكل والمأوى؟ والبرد؟ لماذا قلّت الرسائل؟ أجاب بعبارات مقتضبة. ماذا تعنيه مظاهر الحفاوة؟ الحب في فؤاده يضنّ به عن غير أهله. أين الحبّ؟ أين الخليل؟ متى يظهر ويتكشّف؟ وإذا تحقّق الأمل فلن يكون في ذلك دور للعائلة للنسب للصداقة. تاه مع خياله حتى حضرت الفتاة. من تكون؟ ما علاقتها بامرأة العم؟ حاول أن يصفها لنفسه فانحصر. لم تسعفه الكلمات الجارية على لسانه. قسماتها عادية، واحدة واحدة، لكن وهيج حدقتيها يضفي على وجهها سحراً وجاذبية. الجبهة بيضاء وضّاحة والقد معتدل رشيق. غلبته الحشمة فلم يطل فيها

النظر. سألها العم: «هل سلّمت على ابن عمّك؟» قالت نعم بصوت يتلألأ كمجرى الماء. انقضى فاصل الترحيب وعاد المتنزهون إلى أحاديثهم. انحاز الفتى إلى نفسه فشعر بغرابة موقفه، شعر بصمت يحيط به، صمت من نوع خاص، غير الذي تعود عليه أثناء سنوات الوحشة الطويلة..»

* * *

- 6 -

ـ صورة بعيدة عن محيطنا. لا أرى كيف تستخرج منها شهادة عن حياة إدريس، الحياة التي شاهدناها، ولو عن بعد، التي شاركنا فيها ولو بقدر زهيد.

ـ ألاحظ بالفعل خللاً في التركيب ناتجاً عن استهداف الموضوعية. أراد إدريس أن ينفصل عن نفسه ليتأمّلها منعكسة في مرآة. فخطّط حياة مخالفة لحياته. غير أنه لم يصمد أمام هجمة الواقع. انهار السدّ الواقي وتكسرت المرآة. جهد لينسق بين عناصر الصورة.. المحطة، البلدة، البيت المنعزل، المنتزه، الغابة، كل ذلك يشير إلى رغبة في تعميم المحيط الجغرافي حتى يظن القارىء أن المنظر قد يوجد في أي بلد من بلدان حوض المتوسط. يجري ذكر المطر مع أن الظرف الزمني غير مناسب، لا يسقط المطر عادة أواخر يونيو في المغرب وحتى إذا هبّت عاصفة ممطرة فلا تلبث أن تتبخّر قطراتها. واضح أن إدريس حاول أن ينزع الخصوصية عن المناظر التي أحاطت بشبابنا. إلا أن المحاولة لم تكلّل بالنجاح. اخترق الواقع حائط الخيال وفرض ذكر النواعر وطقوس الشاي. ويزيد التخصيص وضوحاً في مجال العاطفة.. شاب يعود إلى أهله بعد سنة من الدراسة في داخلية نائية. يعلم أنه سيقضي إجازة الصيف منعزلاً في بيت على هامش قرية حقيرة، مع أن أسرته واسعة مكونة من أب وعمّ وأخ وأزواجهم. يشعر شعوراً حادّاً بفجوة بينه وبين أفراد أسرته، فجوة يعبّر عنها بانفصام بين الجسم والذهن. لا شك أن المحلّل النفساني سيجد مادة غنية في الفقرة حول اكتناز الدم في الكفّ. أنا على يقين أن هذه المعلومات تنطبق على شعور إدريس لأنها في غالبها مقحمة. يكفي، لتفسير الشعور بالوحدانية، غياب الأم أو انعدام الصديق أو البعد عن الموطن. يدلّ تراكم العلل على اقتحام الواقع سياق السرد. هل من لزوم أن نوضّح ما ينقص الفتى؟ خليلة تقاسمه هموم الشباب. ذكر إدريس الأمر لأنه حصل بالفعل في موعده المعهود. من تكون الفتاة صاحبة

الجبهة النيّرة التي تكشّفت له مفاتنها وهو في سنّ الثالثة عشرة؟ الظاهر أنها من الأسرة. الكل في الكل والفصل إلى الأصل. ليست متكاملة الجمال. . اندسّ الواقع مرّة أخرى في ثنايا الخيال فقضى على توازن اللوحة.

ـ فجاز أن نتخذها وثيقة.

ـ هذا الواقع الذي يقتحم الخيال ويتساكن، دون أن يتمازج، مع معطيات الخيال هو الواقع الأولي، لا الواقع ـ الهدف، الناتج عن صهر عوامل الحياة الفردية في بؤرة الخيال، هناك الظروف البيتية. كنا نظن أننا نعرفها، أن البيت مفتوح لنا لا يخفى منه عنّا شيء. لم يكن هذا صحيحاً وحتى لو كان صحيحاً لما توصّلنا به إلى حقيقة إدريس النفسية، رغم معاشرتنا له طوال السنين العديدة. عاش على هامش أسرته. كان يراها منذ البداية، إذن لم يكن منغمساً فيها.

ـ هل ينطبق هذا على شعرائنا، شعراء القبيلة والحزب والبلاط؟

ـ هذه هي المسألة، مسألة التعبير. . عبرة، عبارة، عبّارة. . هل كانوا منفصلين بالقدر الكافي عن محيطهم الثقافي والاجتماعي لكي يكون قولهم تعبيراً عن ذاتهم؟

ـ حتى الصعاليك؟

ـ ليبحث في ذلك الباحثون. ما يهمّنا من أمر إدريس أن التعبير كان بالنسبة إليه محاولة شاقّة ومضنية لينغمس ويذوب. نراه في زمن لاحق يلهث وراء هذا الهدف. يتأمّل يتصوّر يتخيّل يتذكّر. . عملية مستمرّة. . يجاهد ولا يصل.

ـ فيضمحلّ.

ـ من الإرهاق والأسف والندم، وقبل وبعد، من التردد والحيرة أمام قالب التعبير. شاب في الثامنة عشرة يتمثّل حالة نفسه قبل خمس سنوات. لكن الفارق الزمني لم يكن فارغاً. نما فيه عقله، تغير ذهنه، بواسطة التربية والتهذيب. هنا أصل التصور التمثّل. .

ـ أصل؟ بأي معنى؟ البذرة التي بدونها لا تنبت الشجرة؟

ـ التثقيف، التهذيب، التأديب، حشو الفؤاد بأعمال وأقوال، بمناظر ومواقف. كتب إدريس يوماً وهو يصف الفتى: ذهنه خال إلا من مواقف البطولة. هي الموازن، المعايير، المقاييس.

ـ شعراؤنا أيضاً يتمثّلون . .

ـ امرؤ القيس اسم جمع . من عادتنا أن نقول: قال الشاعر. المهمّ نوع من يتمثّل به من سلوك. النمط يشكل المضمون.

ـ غامض.

ـ ينكشف بحول الله وقوته.

ـ ينظر التلميذ المتأدّب إلى نفسه ومحيطه من خلال الأنماط ـ التماثيل ـ المحفوظة في ذاكرته. بها ـ وربما بها وحدها ـ يتحدّد موقفه من الحياة، أي التعبير عنها. قد يبدع فيما بعد شكلاً جيداً، عامّاً أو خاصّاً، مقبولاً أو مرفوضاً، لكن البدء، الدفعة الأولى، في الانسلاخ عن المحيط الطبيعي الاجتماعي العائلي، في تجسيد مواقف «محفوظة» . .

ـ كل طفل أديب بالقوة؟

ـ إذا تهذّب . . التأديب ليس التدريب والتأهيل. يتدرب المرء على التجارة أو الخياطة، يتعلم الفقه أو الطب، يبرع في الرياضيات ولا ينسلخ عن عوائده. يتأدّب عندما يكتسب وسائل تعبيرية وعندما لا تجد هذه ما يعاكسها من قيم موروثة. عند إدريس لا نرى أثراً لأي حاجز مجتمعي. لذلك اكتسح الموقف الأدبي ذهنه وفؤاده. وإذا ما بدت قيم مجتمعية مناهضة لإرادة التعبير فإنها تظهر أيضاً بمظهر أدبي عادي . .

ـ عادي عند من؟

ـ عند الكتاب الرومنسيين.

ـ ليسوا وحدهم أدباء.

ـ هذا ما لا أتصوّره إلا بصعوبة التعبير تصوير الذات في ممانعتها للاشياء ، في التحرر منها والاستعلاء عنها . ومفهوم الذات ، كأصل الأحداث ، لم يتبلور ويتصفّى إلا لدى الرومنسيين. قد تقول: والأدب الكلاسيكي؟ والواقعي؟ أرى فيهما خضوعاً وانقياداً لا أرى فيهما ذاتاً. أرى فيهما دراية، حرفة، ثقافة، لا أرى فيهما تعبيراً . .

ـ وامرؤ القيس؟ والمتنبيّ؟ والمعرّي؟

ـ أبطال أستاذك العميد. هل من الصدفة أنه اختار هؤلاء دون غيرهم؟ أراد أن يكون لنا فعمد إلى رمنسة هؤلاء جاعلاً منهم أبطالاً ثائرين على الدهر والأعراف والعقائد.

ـ كل أدب إذن رومنسي؟

ـ أقول أن التعبير في الكتابة هاجس رومـنسي وما سواه صناعة. التهذيب عملية واحدة في الظاهر، في كل زمن وفي كل بقعة من بقع الأرض ولكن قد يهدف إلى إحياء الذات وقد يهدف إلى قتلها. لو جاز لي لقلت: التمثّل موجود في كلا الحالتين لكن الفرق بين المتمثّل به والمتمثّل عليه. من هو الحريري؟ صاحب **المقامات** ليس إلا. **والمقامات** ما هي؟ خمسون مثلاً. لا نعرف شيئاً، لا يهمّنا أن نعرف شيئاً عن الحريري الرجل. نتعلم من **المقامات** أنماطاً من الخطب والرسائل. **المقامات** وسيلة لنسيان الذات لانغماسها في شيء موضوعي هو اللغة. الأدب هنا قاتل للذات، أما الأدب عند الرومنسي فإنه يدعو الذات لهضم ونقض الثقافة. لم أقل أن عبارة الأدب الكلاسيكي متناقضة منتفية. ما يلزمني هو أن الرومـنسية لم تعد تلك المدرسة المحدّدة زمنياً ومكانياً، بل هي اتجاه مواز للتطور الأدبي. لا تعبير في غياب ذات تجاهد الواقع. وكلما برزت الذات كان النتاج شبه رومنسي حتى في الفترات البعيدة والبقع النائية.

ـ وإدريس؟

ـ كل عناصر النص ـ العزلة، الكآبة، الخيال، التجاوب الروحي ـ مأخوذة من الصورة المدرسية للكاتب الرومنـسي، من تلك الروايات التي تتّخذ أسماء أبطالها عناوين لها. لم يقرأ إدريس آنذاك أيـة واحـدة منها. أنا متيقن من ذلك إذ لم نتذاكر أبداً في شأنها. لكن حتى لو اطّلع عليها ما كان يفهم منها أكثر مما استوعبناه من مقتطفاتنا المدرسية. هل كان يعنيه ما يؤكّده اليوم الباحثون من ارتباطها، نفسانياً بطفحة البلوغ، اجتماعياً بتألق الطبقة التجارية واضمحلال قيم الفروسية، تاريخياً بتركيز حكم استبدادي؟ صحيح أن إدريس كتب ما كتب وهو يستذكر عهد البلوغ ويعيش تحت الاستبداد الفرنسي. لكنه لم يع، وما كان له أن يعي، هذه العلاقات. إدريس مقلّد ومقلّد فقط. إلا أن التقليد عنده هو الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الذات.

ـ ما هو حظ العبارة إذن؟

ـ لم يتشكّك أستاذك في صدق شعراء الجاهلية ولا في صدق شكوك المعري! تقول أن العبارة غريبة وبالتالي غير مرتبطة بالواقع الطبيعي البشري الزمني. أين حجّتك الدامغة؟ من جهة، الصورة التي يقدّمها إدريس غير متجانسة لأن الواقع الأصلي اقتحمها رغماً عنه. لكن من جهة ثانية لا يستطيع أن يصور الواقع بوسائل

الواقع إذا عزم على ولوج مجال التعبير. يستلزم التعبير وجود محرك وهذا المحرك بمجرد وجوده يغير الواقع لأنه لا يوجد إلا بسبب التهذيب الذي يفرض على الوعي أنماطاً خارجية. أقصى ما يطلب من الكتاب هو استهداف الواقع وهذا الموقف من العمل الأدبي هو (ما يسمّى) صدق المرام. جواباً على سؤالك أقول أن إدريس، يتيم الأم، يعيش في محيط فقير كئيب، يشعر نحو أبيه شعوراً مزدوجاً، واثق أن غده سيكون أفضل من حاضره بسبب عزمه على التفوق في دراسته. هذا هو وضعه الخاص، أما الوضع العام، الذي لم يكن مطالباً بفحصه فحصاً دقيقاً، فهو أن مواطنيه فقدوا كل مبادرة في تسيير شؤونهم. الفجوة بين التجربة والتوقّع عاشها إدريس كشعور شخصي في حين أنها كانت ظاهرة عامّة تنعكس في لا وعي الأفراد وهم يشعرون بذواتهم كأفراد. لكن هذا المعطى الموضوعي، المعروف لدى القارىء الناقد، مجهول إلى حدّ، وضروري أن يبقى كذلك، عند إدريس. لو وعاه وعياً صافياً جلياً لربما انحصرت فيه رغبة التعبير. دفع إدريس دفعاً إلى التعبير. فوجد تحت تصرّفه أنماطاً زوّدته بها اللغة التي يتعلّمها. .

ـ لم يكن يتعلّم لغة واحدة. .

ـ سمعنا عن زينب كما سمعنا عن روني. لم نقرأ مباشرة أيّاً منهما. أعارني أحد الزملاء **الأجنحة المتكسرة ثم كان ما كان**/3. ماذا أتذكر اليوم من هذين الكتابين؟ الأسلوب السهل، العاطفة المتدفقة، الطبيعة الزاهية بجبالها وأنهارها وأشجارها. . عالم بعيد كل البعد عن دنيا القلوصة والكثبان والأثافي. هل قرأ إدريس شيئاً من هذا؟ لا أدري. لنفرض أنه فعل هل كان يتغير شيء في ذهنه؟ هذه كلها، بأي لغة كتبت، جداول لنهر واحد. مرّت الآن خمس وثلاثون سنة عن التاريخ الذي نتكلّم عنه. لي ولد في سن إدريس عندما كان يتأثر بالأدب الرومنسي المكتوب بالفرنسية، ماذا أعطاه أستاذ العربية للمطالعة؟ **النبي** لجبران. لم يقل له أن المؤلف مسيحي مستقل عن كل كنيسة منظمة، لم يقل له أن النبي عند جبران هو الشاعر الفيلسوف السائح المتصوف الذي يستقي حقائقه من ذاته المتفرّدة وهي تستنطق الطبيعة. نعود إذن إلى الرومنسية. لا يختلف الأمر كثيراً أن تتعلّم من جبران أو من شاطو بريان. نعلم الآن لماذا ظهرت الرومنسية في زمنها ومكانها ولماذا تكتشفها الأجيال، الواحد بعد الآخر؟. خاصيتها الحنين إلى الماضي الغابر، في كل صوره وأشكاله، الماضي الذي يمثل عهد التماسك والالتئام، عهد الإيمان والبراءة. لا

عجب إذا تجاوبت مع أهدافها وأساليبها نفس إدريس. العجب كل العجب ممّن لا يتجاوب معها، ممّن يقبل أن يعيش دائماً في عالم باهت، كغالب رفاقه. لكن عدم تجاوب غيره لا يقوم حجّة على غرابة تجاوبه هو.

ـ هذا ما تقول أنت. وهو؟

تشكّك. . مثلك. . لم يرض بالقدر. ندم على ما حصل وودّ لو استطاع أن يجتثّ قدرته على التجاوب، أن ينزع آثار التأديب والتثقيف من ذهنه وقلبه. ثم فيما بعد تحرّر، أو حاول أن يتحرّر، من الرومنسية. .

* * *

الفصل الثاني

# المدرسة

— 7 —

مراكش بعيد الحرب الكونية الثانية. مكثنا في ثانويتها أربع سنوات. كان القسم الأكبر منا لا يزال يلبس الجلباب. لم نتحرر منه إلا في بداية السنة الرابعة. نخرج من الداخلية كل يوم خميس ضمن طابور يقوده حارسان. نقطع ساحة جامع الفنا قاصدين الحديقة العمومية في بداية الشارع المؤدي إلى حي كليز. نتمشّى في ممراتها، نخرق أجماتها مستظلين بأغصان أشجار الزيتون. كانت رياضها تبدو لنا كبيرة زاهية متنوعة. كنا نظن أن الحائط الجنوبي يفصلنا عن مدينة أخرى مليئة بالأسرار والخبايا إذ كنا نسمع أصواتاً غريبة يختلط فيها الصراخ بالأنين. أما بعد ظهر يوم الأحد فكنا أحراراً طلقاء ليس علينا حارس ولا رقيب. نقطع القنّارية وساحة جامع الفنا مسرعين وننتظر أمام مكتب البريد الحافلة التي توصلنا لكليز، لإحدى دور العرض، **ريجان** أو **بالاس**. كان علينا أن نصل قبل أن يفتح الشباك بساعة على الأقل. وإلا وجدنا الوسطاء من موزّعي الصحف ومسّاحي الأحذية قد استحوذوا على جميع التذاكر وبدأوا يعرضونها بأسعار مضعّفة. في هذه الحالة، وكثيراً ما كانت تحصل إذا كان الفلم جيّداً، نضطر إلى التخلّي عن الحفلة. يغلب على ظني أن القاعة كانت دائماً مليئة بالجنود والموظفين والتجار الفرنسيين ولم نكن نمثّل إلا قسماً ضئيلاً من المتفرّجين. . كنّا لا نهتم بمن حولنا، نعيش في جو الفلم قبل أن ينطفىء النور ويبدأ العرض. وجدت في كناشة إدريس إشارة إلى أننا شاهدنا في سينما **ريجان** فلم **القاتلون** المقتبسة من أقصوصة هيمنغواي وفلم **كل صباح أموت** الذي مثل فيه جيمس كاكني وجورج رافت/4. كانت ثقافتنا السينمائية ضعيفة جداً لا نهتم إلا

بمضمون الحكاية. نخرج من القاعة فنشتري النص المكتوب الذي كان ينشر في أسبوعية بعنوان مون فلم مزيناً ببعض صور الشريط ونقرأه كما لو كان قصة مصوّرة ليس إلا.

لم يبد إدريس أي تفوق في السنتين الأوليين بل كان متوسطاً في جميع الموادّ. ثم في أواسط السنة الثالثة حرّر اختباراً كتابياً فعلّق عليه أستاذ الأدب الفرنسي، شارل سالفرانك، بقوله: ينمّ عن ذهن نافذ. تشجع إدريس وصار في تقدم مستمر. طالع كتباً صعبة ما كان يجرؤ عليها لولا إطراء الأستاذ. لاحظنا مراراً أنه يتخلّف عن أقرانه في كل طور من الأطوار المتعارف عليها ثم لا يلبث أن يستدرك تخلّفه بعد سنة أو سنتين باتقان وعمق لا يدركهما غيره. قبل أن يغادر مراكش شرع في مطالعة كتاب يبسّط نظرية الوجودية. وكان سالفرانك قد روى لنا جوابه على سؤال طرحته عليه أستاذة اللغة الإنجليزية. قالت: أوجز لي من فضلك أفكار سارتر هذا الذي كثر عليه الكلام. فأجاب: سيدتي، العمر قصير فلا أستطيع أن أتخلّى عن ثلاث أو أربع سنوات لأتفهم ما هو الوجود وما هو العدم! ثم علّق: يقال أن سارتر يشبهني فهو إذن ذميم الخلقة. طوال أسابيع سمعنا إدريس يردّد الفرق بين الموجود في ذاته والموجود لذاته.. إلا أن الجملة التي علقت بذهنه شهوراً بل سنوات لم يقطفها من كتب سارتر الفلسفية بل من إحدى مسرحياته: الجحيم هو الغير!.

أتذكّر أحد حراس الداخلية الذي كان يحمل اسماً ذا رنّة تونسية. يبدو لي أنه كان أكثر ثقافة من زملائه، بخاصة من زميل له، نحاسي البشرة يلبس الطربوش ويلعب الكرة بسرواله الفضفاض. لا أدري كيف حصل أن رافقناه إلى شقّته الموجودة في طابق والتي كان يتسرّب إليها النور من طاقة ضيقة. لم نمكث عنده طويلاً وأتخيل الآن أنه وعد إدريس بأن يعيره كتاب أندريه جيد **أطعمة الأرض**. لكن ما أتذكره بوضوح هو الكتاب المرمي على المائدة وسط الشقة كما لو كان الحارس يقرؤه باستمرار. كان أحد أجزاء مؤلف شوبنهاور **الكون تصوراً وإرادة**.

أواخر ماي ترتفع الحرارة فنرغم على القيلولة إلى غاية الثانية ونصف. تكاد الدراسة تتوقف. قرّر سالفرانك أن يقرأ لنا في قاعة الدرس عملاً أدبياً فاختار **الأقاصيص الأسيوية** لغوبينو. لم أتذكر منها شيئاً.

هذه شذرات من الماضي، متناثرة، باهتة أجهد لكي أستخلصها من

النسيـان. هل بقي أكثـر منها في ذهن إدريس؟ هـل أثّرت هي أو شبيهـاتها ومستصحباتها، في مساره الفكري والوجداني؟

* * *

جئنا إلى ثانوية الرباط، إدريس وأنا وتلميذ ثالث. وجدنا محيطاً آخـر ولهجة أخرى وصرفاً آخر. انتقلنا من مغرب الجنوب على باب الصحراء وأفريقيا إلى المغرب الوسط على شاطىء البحر في اتجاه أوربا. أهذا ما دفع إدريس إلى الانعكاف والانزواء؟ لا. . يقيناً.

تابعنا في الرباط حياتنا المراكشية، غير أننا لم نعد نحتاج إلى حارس يرافقنا في جولاتنا يوم الخميس. ننطلق أحراراً على طول شارع دار المخزن في اتجاه قاعات السينما. إذا كان يعرض في كوليزي أو في ريناسانس فلم جيّد كنا نحجز لحفلة عشية يوم الأحد. وجدت بين أوراق إدريس ورقة بها جرد لكل الأفلام التي شاهدناها أثناء سنتين بالرباط. أتذكر مشهداً من شريط معذرة الرقم خطأ إخراج أناطول ليتفاك وبطولة برت لانكاستر، فلم بوليسي بالأبيض والأسود/5. نرى البطل من الوراء وهو يقترب من إحدى دور جزيرة كوني ضحية نيويورك في ليلة عاصفة. لم نكن نعلم، بل لم نكن نودّ أن نعلم، كيف يعبر عن الرعب أو الحذر بتحريك مروحة ضخمة وتغليف مصباح في ظهر الممثل قبل بدء عملية التسجيل. أتذكر فلم ليتفاك لأن أستاذ اللغة الفرنسية، غوطلان، سألنا صبيحة يوم الإثنين قبل الشروع في الدرس هل رأينا الشريط وهل أعجبنا. قلنا: نعم. فلوى شدقه استهـزاء. قلت أنه كان يحتقر الروس والأمريكان ولا يحفل إلا بالألمان. كنا نحب الأفلام الأمريكية بكيفية تلقائية وكان هو يعلم أن لذلك الموقف مغزى ثقافياً سياسياً.

كان لي عم من جهة الأب يسكن حي التواركة. زرته مراراً برفقة إدريس. نغادر الثانوية ونلوي على اليمين لندخل إلى المشور من الباب المقابل لمسجد السنّة. نقطع مساحة عريضة مليئة كلها بالتراب والحجارة. تتغبّر أحذيتنا قبل أن نصل إلى شبه دوار محاط براحات الصبار الشائكة. ونتخطّى مدخلاً لا يختلف عـن باب خيمة فنجد امرأة عالية ضخمة سوداء ناصعة المبسم. ترحب بنا بعبارات مكناسية الرنّة. تستدعينا إلى الغرفة المفروشة بالمضارب والحائطيات الملوّنة وتقدم لنا بعض الحلويات التي كان يأتي بها زوجها من القصر عندما تنظم ويقوم بتهيئة الشاي. ذهبنا

عندها لغرض معين. طول مكوثنا بمراكش لم نقرب أبداً من عرصة موسى رغم محاولات بعض رفاقنا المتتالية لاستدراجنا إليها. أما في الرباط فبعد سنة بدأنا نتخطّى عتبة وقّاصة. وبعد أسابيع حصل لإدريس ما كان منتظراً. اشتكى من الحرقة فقلت له: الحلّ الوحيد أن نكلّم امرأة العم. قالت: لا بأس إيتوني الأسبوع المقبل. ذهبت عندها يوم الخميس التالي وعدت لإدريس بقارورة مملوءة بمشروب لونه لون الشاي. فشربه كل صباح على الريق. مرت أيام ولم يظهر أي تحسّن. تحمّل إدريس الألم لكنه لم يستطع التكتم على الصّبانة. استدعاه المدير ووبّخه بعنف ثم انفجر: ولا تقل لي ما قال زميلك: أنها الريح نفخت في وأنا أقضي حاجتي في الهواء.. خرافات قولوها لأمّهاتكم الجاهلات. هذه أمراض جرثومية لا تعدي إلا بالاحتكاك والتقاط الجراثيم من مواضعها. اذهب فأنت ممنوع من الخروج لمدة ثلاثة أشهر. حيث لم ينفع مشروب امرأة العم نفع البنيسيلين.. حقنتان واختفى الألم. وبقي إدريس حبيس الداخلية. نودّعه يوم الخميس والأحد. نلتفت عند العتبة فنلمحه واقفاً تحت الشجرة التي تتوسط الفناء يرتدي سلهاماً أسود.

في السنة الخامسة من الثانوي سطعت شمس نيتشه على ذهن إدريس. افتكر الآن أنه تهيأ منذ سنوات للتأثّر به عندما كان يطالع سارتر ومالرو وجيد ولو كان لا يدرك من هؤلاء إلا ما يدركه شاب في سن الثالثة أو الرابعة عشرة. أتصفّح كنّاشه 1950 فاكتشف خيطاً واحداً يصل بين جميع عناوين المقروءات والمقتطفات. يبدو أن السبب المباشر الذي دفع إدريس إلى تركيز اهتمامه على نيتشه هو التعمق في تحليل مسرحية راسين، المقررة في دروس الصف وبتوجيه من الأستاذ. اكتشف إدريس تلازم فكرة البطولة ومفهوم النقاوة والصفاء. يختار البطل طريقاً في الحياة ويبقى وفياً لها مهما كانت الظروف، لا يتساهل، لا يراوغ، لا يهاون، لا يهادن، البطل بالتعريف عنيف متشدّد صفي نقي، لا تعترضه المأساة بل تنفجر منه. وجد إدريس هذا التحليل عند الناقد الفرنسي تييري مولنيه صاحب كتابين، أحدهما عن راسين والثاني عن نيتشه. في الواقع طبّق مولنيه على راسين نظرية نيتشه حول التراجيديا اليونانية. ثم توسع إدريس في بحوثه عن الفيلسوف الألماني وطالع كتباً عنه، منها السهل المبسط ككتاب ستيفان دزفايغ ومنها المعمّق ككتاب كارل ياسبرس.

ومنذ أن تعرف على نيتشه عاد لا يقرأ أي كاتب غيره، ولو كان دوستويفسكي أو جيد أو أوسكر وايلد، إلا في ظلّه وبالمقارنة ومعه، أي أنه لم يعد قادراً على قراءته

بالفعل، ذهب به الشغف إلى أن قارن لافونتن بنيتشه. لا أجد في كناشة 1950 عرضاً منهجياً أو نقدياً للمقروءات وإنما سلسلة مقتطفات والتسلسل نفسه لا يخلو من دلالة.

— 8 —

«. أي مغزى نعطيه للألم: مسيحي أم مأسوي؟
. أخجل من المتعة!
. العصر العظيم هو الذي يصنع التاريخ عوض أن يخلّده.
. فكرة القومية غير مأسوية
. البطل عاطل.
. القيمة الأولى هي إرادة الحياة.
. في الإنسان يجتمع الخالق والمخلوق.
. تهوّروا حتى تقضوا.
. يقول العلنسان للألم: مر وعد.

لا يفهم بطل المأساة إلا في منشئه على أرض يونان القديمة. كل محاولة لفهم منطق سلوكه هو ضمنياً نقد لعقيدة الإنسان المعاصر. البطل المأسوي بريء أصلاً واستمراراً، لا يعرف أبداً تمزّق الذات، ينكر الشك، الندم، المحاسبة، التوبة، إذن كل ما بدأ مع سقراط باطل، مناف، مانع للمأساة. لكي نخلق من جديد ظروف المأساة الحقيقية لا بدّ من محو آثار الانعطاف السقراطي: لا بدّ من تفنيد، من نقض القيم التي ألهت الإنسان عن فكرة المأساة وفي مقدمتها فكرة التاريخ، ملاذ الضعفاء الجبناء الخائفين من الحياة القاسية. لا بدّ من هدم تعاليم أفلاطون وأرسطو وديكارت وكانط. . الذين عبّروا كلهم عن مطامع الرجل العادي، الناقص الهمّة. بهم ابتعد العالم عن المأساة، عن النظر في صميم الإنسان والكون، لاجئاً إلى شتّى الحيل لكي لا يكتشف المأساة من جديد. ذاك انحطاط لا تقدم. لا فرق بين نقد التاريخ ونقد القيم، والنقد لا يعني المحاسبة بل التعرية أي التحرر استعداداً للإبداع. بعد إدراك لوازم، سوابق المأساة، بعد التخلص من معوقاتها العقدية والسلوكية لم يبق إلا مباشرتها، تمثيلها على مسرح الكون. وقبل الانطلاقة الكبرى يجب الاحتراز من كل تقهقر محتمل. لا بد من تطويع التطور لكي لا يبعث سقراط آخر يغلّب من جديد الضعف على القوة، الهرم على الفتوة، الظلمة على النور، العدل على الحق، العقل على الإرادة، ويقلب من جديد القيم رأساً على عقب.

يجب أن تبقى دائماً إرادة الحياة هي القانون الأسمى. يجب المحافظة على البراءة المكتسبة بعد جهد جهيد. بعد إحياء البطل لا مناص من رعايته وذلك بالتمثّل الدائم للمأساة اليونانية، النمط الخالد. إنها المدرسة الكبرى ليتحكّم الإنسان في نفسه ويتهيأ لحياة أعلى بعيداً عمّا خلّفته في نفسه قرون الانحطاط، مدرسة تقشّف واقتصاد، خدمة لقوة الحياة واندفاعها لا محاولة لخنقها حسب أوامر خارجية. عندما تتحقّق الشروط الذاتية والموضوعية، الذهنية والاجتماعية، يمكننا ترقّب ظهور الإنسان المتفوق، العلنسان الذي يحيى المأساة الكونية في أعلى مظاهرها، الذي يرحّب بالقدر ولا يخشاه، يستقبل الموت ولا يتجنّبه، يتذوّق الموت ولا يموّهه، يتحفّز للصراع ولا يتهيّبه، الذي يعلم أنه لو كانت للكون غاية لحقّقها منذ أمد طويل، الذي يعرف أن اللحظة الحالية تمرّ لتعود وتعود وتعود بلا نهاية. .

تعليق مولنيه: بقي في نيتشه شيء من الجرماني البروتستاني الرومنسي. قبل الألم والبؤس والتقشف لغرض هو شحذ الإرادة في الإنسان، فعكّر صفاء البطل. لم يستطع أن يكون شرقياً بالفعل، أن ينغمس ويذوب في سيرورة الكون. لم يحب الحياة تلقائياً كما أحبّها جيد اللاّتيني. ناقض نيتشه نفسه لأنه لم يحبّ الحياة إلا في الكتب.

لا أفهم عبارة أمورفاتي! /6

توضيح: القومية غير مأسوية

بعد النقد نصّب نيتشه الأصنام مجدّداً.»

— 9 —

ـ أطرح السؤال: ماذا أدرك إدريس من كل هذا بالنظر إلى تكوينه الأصلي ومحيطه العائلي والوطني؟ مولنيه ناقد مسرحي فرنسي كتب تحت ظل الاحتلال الألماني لفرنسا، الفكري أولاً ثم العسكري. يؤوّل راسين على ضوء نيتشه ويفهم نيتشه على ضوء راسين. فلا يعلو به على مستوى فاكنير: الفلسفة سلوك والكون مسرح. كيف يتهيّأ الإنسان ليكون بطلاً مأسوياً؟ كيف يعيد الحياة إلى سابق عهدها أيام نبوغ يونان؟ إذا كان أملنا، طموحنا هو إحياء الماضي فكيف لا يبدو لنا التطور انحطاطاً، التاريخ ضياعاً والقيم العمومية أوهاماً؟ لا عجب إذا رأى نيتشه نفسه عجوزاً مترهّلاً منحني الظهر لكثرة ما يحمل من مواثيق ووثائق وأن يرغب في اطّراح حمولاته

لينتصب شاباً بل صبياً محرراً من كل عقال؟ نيتشه مفكر الشباب لأنه يجيب على السؤال الملح على ذهن الشباب: كيف أعيش؟ كيف أتصرّف؟ أمّا: كيف أفهم؟ كيف أنجو؟ كيف أتقدم؟ فهي أسئلة لأطوار أخرى في حياة الإنسان وفي حياة إدريس. كتب إدريس: «العقل البشري جذوة الهية، لكنها منطفئة عند الجمهور. يتّخذون الحياة هزواً، يتندّرون بالأقلية المفكّرة التي وحدها تميزهم عن الحيوان.. انهم بسطاء وأنا لا أتحمّل البساطة هل تتجاوب مع شخص يرى أن الدنيا حلوة؟» بقيت في ذهن إدريس حجب لم تخترقها أشعة نيتشه، لم تتعدّ هذه مجال العلاقات الاجتماعية. تعلّق ذهن إدريس بنقد رجل الوسط القانع بارضاء شهواته البسيطة. وبما أن هذا هو الغالب في محيطه اليومي فإنه رفضه مع ما يمثله من أعراف وقيم. بقدر ما انحط في عينه مقام المجتمع ارتفعت قيمة الفرد المتحرّر ذهناً وخلقاً، المعتزّ بوحدانيته، الواعي بقيمته، الحريص على تقوية إرادته بضبط دوافع نفسه. بقيت زوايا كثيرة من ذهن إدريس خارج نقد نيتشه، بل بعض القيم التي تعلّق بها والتي تبدو نيتشوية هي في الحقيقة تقليدية موروثة.

تناقض إذن؟

ـ لا ضير. ينصح نيتشه: «ناقض نفسك! أنت ممثل ألعب كل الأدوار! تقنّع إذ الدور يدلّ على حقيقة أعمق من الاقرار! كن كالحيّة إذا لم تتحسّر تمت! الذهن غير المتقلّب غير حرّ.» قيم جماعية كثيرة ستنفلت من النقد عند إدريس وفي مقدمتها الوطنية..

ـ كان عليه أن يستنتج أنها وهم، صنم يجب تكسيره.

ـ الوطنية حمى وملجأ كالأسرة. نقد نيتشه القومية الألمانية المنتصرة، بل الذهنية الجرمانية الرزينة الغمامية، وفضّل عليها روح اللاّتين الخفيفة اللاّمعة. إلا أن القومية في ظروف ألمانيا رأي الأغلبية، ميل الجمهور. معارضتها إذن دليل على حرية الفرد. الوضعية المغربية مختلفة.. رأي الجمهور المغربي هو (ادخل سوق رأسك)؛ فكرة التضحية في سبيل الجماعة لا يقول بها إلا أقل القليل فتصبح الوطنية لون الذات القوية، عنوان ميل الفرد إلى الحياة المأسوية. ليس الانتماء في هذه الحال رمز الانغماس في الجماعة بل سبيل الترفّع عنها. الوطنية الواثقة بنفسها ملجأ، وهم يحجب الوعي ويهدّىء الأعصاب، الوطنية المضطهدة مفارقة، ترفّع، مخاطرة..

ـ وإذا تغيرت الأوضاع وعمّ الوعي الوطني ولو ظاهرياً..

ـ تتحسّر الحية.

ـ في ربيع 1951 نظّمت أسقفية الرباط محاضرة حول نيتشه ألقاها راهب يسوعي يدعى اغناس ليب. قال غوطلان لإدريس: أنت معجب بهذا المفكر لماذا لا تستمع للمحاضرة، سأطلب لك من المدير رخصة الخروج. جاء الأستاذ على الساعة الخامسة ورأينا إدريس يغادر الداخلية في سلهمه الأسود. . لا أجد شيئاً في الكناشة عن المحاضرة سوى بعض المقتطفات أرجّح أنه سجّلها وهو يستمع للراهب اليسوعي.

– 10 –

«. ما لا يقتلني يقوّيني.
. واجبك الوحيد أن تكون صادقاً.
. أي قدر من الحقيقة يستطيع أن يتحمّله الإنسان؟
. الفن وقاء وإلا قتلتنا الحقيقة.
. اسبر نفسك بلا رحمة.
. سر إلى حقيقتك!
. اسكن قرب فوهة بركان.
. من حدّق في عين الجن فقد البصر.
. الإنسان المأسوي يتلاعب بالألم.
. المأساة الحق ليست مسرحية.
. فضيلة زرادشت القوة السافرة.»

— 11 —

أدخلت بعض التعديل في تسلسل الفقرات ليظهر منطقها ولتكون نظاماً فكرياً وأخلاقياً متماسكاً. هل كان هذا هو مضمون المحاضرة؟

ظهرت في باريس بداية الخمسينات بحوث، جلّها من كتاب يسوعيين، تهدف إلى استمالة الفلاسفة الوجوديين المنحدرين من الاتجاه النتشوي/ 7. وذلك باظهار أن ما يصورونه من غربة وضياع لا يدل على انعدام الخالق بقدر ما يشير إلى صمته وبعده، وأن الوعي الوجودي انما هو وصف أمين ودقيق للحظة التي ينتظر فيها المرء بشغف ثم استغراب ثم إنكار وتنكر أن ترنّ في خاطره كلمة الرّب. . محاولة

لاحتواء الدعوة السارترية الملحدة أو على الأقل الحد من انتشارها! أتصور الآن أن أعمال ليب نفسه كانت داخلة ضمن هذا الاتجاه وأن محاضرته بالذات كانت تهدف إلى نشر وتبسيط هذه الأفكار.

كما قد تكون اتخذت اتجاهاً آخر وربطت دروس نيتشه بالمجازر النازية. من عاش المخاطرة الكبرى أكثر من زعماء ومنظّري النازية؟ تسلّوا بالألم، واجهوا الموت مستبشرين، افرغوا قلوبهم من كل عاطفة أو رحمة، باركوا الحياة بكل مظاهرها، تقشّف بعضهم ليشحذ حسّه وليحيى حياة أعلى وأملأ. ثم ماذا كانت النتيجة؟ إلى ما آلت أمور الجنس الأسمى؟ كم دامت امبراطورية الألف سنة؟ نرى في خراب أوروبا نتائج فلسفة ملحدة. من لا يرعى حقوق الخالق لا يرعى حقوق المخلوق.

النتيجة في التعليلين معاً واحدة: العودة إلى العقيدة الدينية. نيتشه إذن هو المدخل المعاصر للعقيدة الحديثة لأنه قضى على الفكر الأنسوي العلماني الذي ادّعى منذ القرن الثامن عشر أنه يستطيع أن يؤسس أخلاقاً لائكية محض. قال دوستويفسكي: إذا كان الله غير موجود فكل شيء إذن مباح. وقال نيتشه: إذا كان الله موجوداً ما قيمة الإنسان؟ قالها الروسي باكياً متحصّراً وقالها الألماني متحدّياً غاضباً، لكن العبرة واحدة: لا يحمي الإنسان من نفسه سوى الإيمان بوجود ربّ قوي غفور.

* * *

ـ هل كان لهذا المحاضر شهرة؟

ـ كل ما أعرف عنه أنه ألف فيما بعد كتاباً حول **الأزمة المغربية**. / 8.

ـ لمن كانت توجّه هذه المحاضرات؟

ـ لأعضاء الجالية الفرنسية أساساً. ربما تقصد: لو لم يكن إدريس تابع دراسته في ثانوية مزدوجة كمولاي يوسف، لو لم يتقن اللغة، لو لم يعايش فترة كانت السيادة الفكرية فيها لمالرو وجيد وسارتر.. لما وجد في طريقه نيتشه. قد يكون.. كل شاب يضع نفسه في الميزان، يخاطر بحياته لأنه حرّ أو في طريق التحرّر، يتخفّف من الموروث، يتحسّر كالحية.. يموت لكي يحيى. هذا يقرأ بودلين وذاك لوترياموِن.

ـ في إطار الثقافة الفرنسية..

ـ رأيت في يدي إدريس **ما قال زاردشت** في ترجمة فيليكس فارس...

أعود وأتساءل: ماذا علق بذهنه؟

ـ أفكر في الاتفاق العجيب. أليست القيم التي تكلّمت عليها قيم الجاهلية؟

التقشف حالة جاهلية وكذا الحرية. لا ينتظر الجاهلي من الدهر شيئاً، يعلم أن الحياة في كلّ لحظة انتصار على قوة التفكّك والاضمحلال. المروءة فتوة. يموت الجاهلي وهو فتى وان كان من المعمّرين!

ـ في أوراق إدريس هذا المقتطف:

«قيل أن الأفرنج تعلّموا من عرب الشام والأندلس الشجاعة والفروسية ومباركة الحياة. منهم تسربّت الجراثيم التي قضت على المسيحية وأحيت قيم العالم القديم».

ـ شيء طبيعي.

ـ ارتفع إذن العجب.

ـ جزئياً. ما هو ذاك الشيء في ذهن إدريس، في جسمه، في لحمه ودمه، الذي سيّره نحو فلسفة نيتشه؟ أين يحّل سؤر الجاهلية؟

ـ أشرت أنت نفسك إلى عامل الاتفاق.

* * *

ثم ذهبنا إلى البيضاء حيث وجدنا جوّاً آخر، في مدرسة فرنسية لا يمثّل فيها المغاربة المسلمون إلا أقلية. كنّا أثناء استراحة الغداء نركن إلى حائط وننعزل عن الآخرين، عن الأوروبيين من فرنسيين وإيطاليين وإسبان، عن اليهود المغاربة والمتجنّسين، عن الجزائريين وكذلك عن أبناء البيضاء الذين التحقوا بالمدرسة منذ السنة الأولى.

كان أستاذ الفلسفة من تلاميذ ألان، الكاتب المترسل الناقد الذي انتصب منذ نهاية الحرب الكونية الأولى يعلّم الحكمة والأخلاق اللائكية لأبناء الطبقة الوسطى الآخذة بزمام الجمهورية الثالثة بفرنسا. نصحنا في أول درس أن نقرأ **محاورات على شاطئ البحر**. / 9 الأسلوب فرنسي صقيل والمضمون أفلاطوني محض.. نقيض نيتشه على طول الخط. كان ألان، مثل نيتشه، يبحث في الأخلاق محاولاً الإجابة عن السؤال الدائم: كيف يجب أن نتصرف؟ لكنه لم يكن يهمل السؤال الآخر: كيف نفهم الكون؟ بجانب سقراط يضع ديكارت كما فعل سبينوزا. يحارب الأوهام بشدّة وباستمرار، خاصة أوهام الأسرة والجماعة والحزب والدولة، لكنه لا يريد أن يعوّضها بأوهام أخرى، لا يرى العالم مسرحاً لبهلوانيات الإنسان. البطل عنده هو الرجل

العادي الصابر المتحمّل الذي يتّخذ من الحياة العمومية مهنية يتهيأ لها ويمارسها بجدّ وثبات. لا يبكي موت الآلهة ولا يتمنّى أن يبعث فيهم الروح. يرفض كل أنواع البطولة: بطولة الفعل وبطولة الانفعال، بطولة الاستعلاء وبطولة الخنوع.

ألان فيلسوف الرجل العادي. وأستاذنا كان أيضاً رجلًا عادياً. يواجه صعوبات في حياته العائلية والمهنية. يفتح أمامه كناشا ضخماً مجلداً تجليداً متقناً، يقرأ منه فقرة أو فقرتين ثم ينزل من مكتبه ويخترق الصفّ وهو يشرحها لنا، وإذا عنّت له ملاحظة جديدة هرع ليسجّلها في الكناش معتذراً: الفكر مثل الحمامة إذا لم تقرب منها بأدب طارت بلا رجعة. كان يقول لإدريس: لك ميل واضح للفلسفة لماذا لا تتقدم لمباراة أو لم؟/ 10.

وبدأ إدريس يفكر جدّياً في الاتجاه نحو مهنة التدريس. ثم حدث أن شاهد فلماً يسمى وداعاً مستر تشيبس/ 11. كان السيناريو مقتبساً من رواية أبكت إنجلترا بكاملها لأنها تتكلّم هي الأخرى عن بطولة الرجل العادي. تحكي قصة أستاذ متخصّص في الآداب اليونانية، لا يماثله أحد في ترجمة سوفوكليس وبندار ولكن يهمل رأيه إذا تعارض مع رغبة معلم الرياضة البدنية. يتزوج بمغنية في مسارح العاصمة، غير مثقفة، غير أنيقة، فيحتقره زملاؤه. يعين أثناء الحرب مديراً بالنيابة ويقوم بعمله أحسن قيام. تشارك زوجته في الترفيه على الجنود ثم تموت تحت قذائف الألمان. تنتهي الحرب، تعود الأمور إلى مجاريها الطبيعية ورغم احترام التلاميذ لمستر تشيبس بل تعلقهم به لما أظهره من كفاءة، لم يرسّم في منصبه بسبب تدخل أحد كبار مموّلي المدرسة. فيكتم خيبته ويعبّر في خطبة وداعه عن الدرس الذي استخلصه من الحياة: قم بواجبك ولا تنتظر أية مكافأة. خرج إدريس من قاعة ريتز، تحت مطر شهر ديسنبر وهو يردّد غاضباً: لن أكون أستاذاً أبداً أبداً، إنها مهنة حقيرة! وعاد ليفكر من جديد في امتهان الطب.

أثناء العطلة الصيفية، بعد انتهاء السنة ونجاحه في شهادة الباكالوريا قرأ لديكارت منهاج المعرفة و الكتاب في النفس. اكتشف شيئاً يسمّى الموضوعية. علم أنه بجانب دعوة سقراط (اعرف نفسك) هناك دعوة أخرى (أعرف). الحق شيء والصدق شيء آخر. لا يكفي أن تتجاوب مع ذاتك إذا لم تتجاوب مع العالم الخارجي. أكبر الأوهام متعلقة بالنفس، أي بالمجال المشترك الذي يؤثر فيه العالم الخارجي على الذات. لكي نتحرّر منها، من آثار الجسم والجماعة فيها، لا بد من

التجرد، من الانصات إلى الطبيعة بكل عناية وتواضع. نوع آخر من الفردانية، من البطولة، من التقشف. تنسلخ عن النفس، تنغمس في العالم الخارجي فلا يعود موجب للاختيار بين أبولو وديونيزوس.

يحتاج طالب المعرفة الموضوعية إلى إله يضمن استقرار أحوال الطبيعة وإلا انتفت المعرفة من الأساس، كما يحتاج إلى ملك قوي عادل ليضمن الأمن والسلم الاجتماعي. لا ينتظر شيئاً من التاريخ، من دفع الناس بعضهم بعضاً لأن كل ابتداع يأتي من المعرفة، والمعرفة وحدها.. هدف جديد للإنسانية، مخاطرة حقيقية وان كانت أقل تألّقاً من الأخرى.

من فلسفة الحياة إلى فلسفة المعرفة.

***

ـ لا تجد عادة في خرائط الجغرافية البيان بجانب كورسيكا كذلك لا تجد في كتب الفلسفة نيتشه بجانب ديكارت.. تجد ذلك في كناشة 1951، بعد المقتطفات الكثيرة من أقوال نيتشه تقرأ ملخصاً للفصول الثلاثة الأولى **للتأملات** الديكارتية. تجاور؟ تساكن؟ تأثير متبادل؟

هل للفلسفة اتّجاه؟ هل الانتقال من ديكارت إلى نيتشه طبيعي والعكس غير طبيعي؟ قد يقال: بدهي أن الثاني وحده قادر على قراءة الأول. لكن نيتشه الذي يقرأ ديكارت غير الذي يستحيل أن يقرأه ديكارت. الحقل الفلسفي غابة بدون إشارات ملزمة.. تدخل كما قدّر لك وتتوجه حرّاً ومدفوعاً في نفس الوقت. حيثما وصلت، حيثما توقفت، استعدت في ذهنك مسيرتك ووضعت عليها علامات وإشارات.. النتيجة يقينية ومظنونة، المسيرة محتّمة واتّفاقية.

حاصل القول أن إدريس وهو يتجاوز نيتشه إلى ديكارت تعرّف على أشياء جديدة واحتفظ على أخرى قديمة. احتفظ بالفردانية، بالبطولة، بالأنسوية. احتفظ بالتضايق والاشمئزاز من **أوهام العشيرة**. ألم يكن في ذلك تخطّ نسبي للمراهقة؟ لدينا قطعة نستطيع أن نحكم من خلالها على نوعية التساكن المشار إليه. إلى أي حد أثّر العقل الديكارتي في الإرادة النيتشوية؟ القطعة تعليق على موضوع: كل دين لا يتجاوب مع مستوى حضارة الإنسان لا بدّ أن يتغير.

ـ من طرح الموضوع؟

ـ قد يكون الأستاذ لاستنباط آراء التلاميذ وقد يكون إدريس هو الذي طرحه على نفسه.

— 12 —

«لا تطور في المجال الروحي: متى أدركنا الحقيقة بلغنا المراد.

يحصل التطور في الماديّات ولكن في هذا الميدان لا نزاع بين الدين والعلم إذ يجيب كل منهما على أسئلة خاصّة به.

يظهر التناقض فيما إذا عمّ الجهل بمقاصد الدين. الحضارة في معناها العام هي الكشف عن أسرار ومقاصد الإنسان لأن هذه المعرفة وحدها كفيلة بتحقيق السعادة. أما معرفة أسرار الطبيعة فإنها تحقّق المتعة فقط. أقصى ما يمكن أن يحدث في هذا المستوى هو عدم الانسجام مع المحافظين على الطقوس الدينية فتصبح المسألة اجتماعية سياسية قد تؤدي إلى حرب أهلية بين جماعتين إحداهما لائكية (دنيوية) والثانية كليريكية (دينية) فيستتبع ذلك ثورة فكرية تتمثل في الرجوع إلى الأصول كما فعل اللوتريون في نطاق المسيحية والوهابيون في نطاق الإسلام.

الدين علاقة بين الخالق والمخلوق في التعبير اللاتيني المسيحي ودين الخالق على المخلوق في التعبير العربي الإسلامي.

الإنسان كمخلوق عاجز عن إدراك الحقيقة المطلقة. فلا تنكشف له إلا عن طريق الوحي الذي يمكّنه من التمييز بين الخير الذي يستحق فاعله الجزاء والشّر الذي يستحق فاعله العقاب.

لا محل للكلام على دين غير ملائم للحضارة.

قد يقال: أو لم تندثر ديانة المصريين في الوقت الذي انهارت فيه حضارتهم حينما تخلّفت عن المسيرة الإنسانية؟ في هذه الحالة يتعلّق الأمر بمجموعة من الأساطير تهدف إلى تفسير الظواهر الطبيعية ومن الأعراف والتقاليد والطقوس المراد منها تقوية لحمة الكيان الاجتماعي. فهذه النظيمة الفكرية لا ترقى إلى مستوى الدين، مثلها مثل العقائد الإفريقية التي نراها اليوم تختفي اثر انتشار الديانات السماوية. إن الملحدين لا يميزون كما يجب بين عقيدة بشرية اكتسابية ناجمة عن حاجات البشر الاجتماعية ودين منزّل. عندما نقوم بهذا التمييز نفهم كيف يتجاوز التطور الحضاري عقيدة اجتماعية لا تهدف بالأسس إلى معرفة أسرار الوجود البشري.

خلاصة الكلام: إذا افترضنا من جهة أن الإنسان في مسيرته الحضارية يبحث عن الحقيقة وهذه لا توجد إلا في نفسه كما يشير إلى ذلك قول الأنبياء ومن جهة أخرى أن الدين هو بذاته كشف عن حقيقة الإنسان فلا انفصام إذن بين الدين والحضارة. حقيقة الإنسان واحدة».

— 13 —

ـ هذا كلام من قرأ ابن رشد.

ـ هذا كلام من استمع إلى دروس الأخلاق، من أستاذ فلسفة أو من غيره.

يواجه إدريس مشكلات لا يستطيع أن يجيب عنها في إطار ما تعلّمه من نيتشه وحتى من ديكارت. الموضوع ذو طابع سوسيولوجي حول الدين والتطور، علاقة المطلق بالتاريخ. من الواضح أن إدريس لا يملك مفهوم الزمن الخلّاق لأنه منتف عند نيتشه وديكارت معاً. فيردّد المعادلة الطوطولوجية: الحق حق باستمرار..

ـ صرخة المفتونين!.

ـ نلمس هنا ما لم يكتشفه بعد إدريس، ما سيكتشفه في السنوات القليلة التالية ويتشبث به تشبّث الأعمى بعكّازه.

تعرض إدريس لمشكل آخر: هل يستطيع الإنسان أن يفهم الكون؟ فعالجه من منظور ديكارتي مشبع بشيء من الأفلاطونية.

«القوانين العلمية ميدان مشترك تتعامل فيه الطبيعة والعقل البشري. الأفكار هي انعكاسات لقوانين موضوعية. وهذه هي لحمة الكون وأثر الصانع (طبع الطابع) فيها. الله الخالق المبدع هو الذي جعل المطابقة ممكنة وهو الذي يضمن استمرارها».

السؤال مشترك بين علم الكلام (الله) والميتافيزيقا (الصانع) بل هو سبب الانتقال العفوي من المادّة الأولى إلى الثانية لكن في نطاق فلسفة نيتشه يصبح بلا معنى. لأنه يذوب في سؤال آخر: هل يستطيع الإنسان أن يطوّع الكون؟ والجواب البديهي هو النفي لكي تبقى المأساة قائمة. ما معنى مقاومة القدر إذا لم نكن نعيش في عالم يعادينا ونعاديه، يتجاهلنا ونتجاهله؟ الكون مسرح كفاح فهو غير قابل إذن للفهم وللتطويع.

ـ أمحي تأثير نيتشه بعد سنة؟

ـ لا أذهب إلى هذا الحد. أقول: هذه أسئلة مدرسية، اختبارات وتمارين

يجيب عنها إدريس في نطاقها. أتصوّر أنه لم يفرغ فيها عقائده النيتشوية لكي لا تبتذل. يريدها قناعة سلوكية فيضنّ بها على غير أهلها. يطبّق نصيحة رائده: عليكم بالأقنعة! المهم ليس استمرار تأثير نيتشه في ذهن إدريس بل في شعوره.

علينا أن نتساءل دائماً: ماذا كانت رسوبات هذه المرحلة في وجدانه؟

* * *

ـ ثم في خريف 1952 عدنا إلى الرباط. تخلّى إدريس في آخر لحظة عن دراسة الطب وسجّل نفسه في قسم الآداب بدون نية التخصص في الفلسفة. لم يستمع لأي من الأستاذين، غوطلان وتلميذ ألان. رفض أن يمتهن التعليم، رفض أن يجعل من الفلسفة وسيلة استجداء. اتّجه إلى دراسة العلوم الاجتماعية التي كانت آنذاك مرتبطة بفنون الإدارة.

ـ كما كان الحال أيام كتّاب ديوان الخراج..

ـ الإدارة، الكلمة، النفوذ.. أثر بعيد من تاريخ أسرته. انظر علاقته المزدوجة مع الموروث. يتحرّر منه ومع ذلك يبقى وفياً له في نهاية المطاف.

ـ لا مخاطرة إذن!

ـ دائماً الحلّ الوسط رغماً عن أنف نيتشه.

ـ سكنا في دار قديمة تقع في درب الجبلي الذي كان يحمل آنذاك اسماً هولندياً ثقيلاً على النطق والسمع/12 والجبلي هذا أحد قواد المخزن القديم، تعلم في إيطاليا ثم عاد ولم تسمح الظروف بأن تستفيد البلاد من معلوماته. لا أدري لماذا نزعت الدار من الورثة وحوّلت إلى مأوى للطلبة. كنا ثلاثة ترافقنا منذ عهد داخلية مراكش. اختار ثالثنا دراسة الطب فأصبحنا لا نراه كثيراً. نأكل جميعاً في مطعم يوجد على رأس شارع دار المخزن. نذهب إلى سينما روايال وفي أغلب الوقت إلى قاعة فوكس المتخصصة في عرض الأفلام الأمريكية من نوع ب، أي التي تكسب جاذبية بتكرار موضوعاتها، الأفلام السوداء، الوسترن، أفلام المغامرات، الكوميديات الاجتماعية.. كنا نشاهد هذه الأعمال المتواضعة، التي يشارك فيها كبار الممثلين عندما يبدأ نجمهم يخبو، كما لو كنّا في زيارة لأقرباء نحبّهم رغم أنهم لا يسمعون ما نقول ويجيبون على غير ما نسأل، لا نؤاخذهم على هفواتهم، نفرح برؤيتهم ونتمنّى أن نراهم مرة أخرى في حالة أحسن. ذهبنا يوماً لنشاهد شريطاً من أفلام مخاطرات

البحار الجنوبية، آخر فلم من هذا النوع مثّل فيه أرّول فلين/13. رافقنا طالب من المغرب الشرقي مسجّل في معهد الدراسات العليا، يسمّى مجبر ولقّبناه مجمر لأنه دخل علينا أول مرة يحمل شنطة كرطون بيده اليمنى وباليسرى موقداً معدنياً لتسخين ماء الوضوء. خرجنا من العرض فبدأ السيد مجمر ينتقد الشريط حاصياً مواطن

الضعف في القصّة وفي التمثيل ومستهزئاً بخاصة من فلين. قابلنا سخريته اللاّذعة بسخرية ألذع حتى أسكتناه. وعندما خلونا إلى أنفسنا قال إدريس: «هذا جاهل ينبه العارف. الفنّ مبني على قواعد اصطناعية لا يدخل حيزه إلا من رضي أن يطلّق، ولو موقّتاً طرائق الدنيا.. وسنن الدين..».

- هل زاد بالفعل الفقرة الأخيرة؟.

- تنطبق على حالة السيد مجمر الذي لم يصاحبنا أبداً إلى وقّاصة، الذي لم يعد معنا أبداً إلى قاعات العرض والذي، فيما أعتقد، لم يتمّ السنة معنا.

وجدنا في قسم الآداب طلبة مغاربة تابعوا منذ البداية البرنامج الفرنسي وكانوا في أغلبهم من سكان الرباط. لم نندمج فيهم بل لم نتفاهم معهم. وبين التلاميذ الفرنسيين كانت ابنة الجنرال كيوم، المقيم العام. جلست غير بعيد من إدريس وكلّمته بضع مرّات... شاحبة، نحيفة، لون عينيها حائر بين الأزرق والرمادي كلون عيون سائر سكان الحدود الألمانية الفرنسية، ينبيء عن خشونة وعناد، في دروب الخير والشر. أظن أنها لم تكن تعرف ماذا كان يفعل والدها. كان أستاذ الأدب الفرنسي من أكبر المتخصصين في دراسة هومروس/14. تأخر شهرين قبل أن يلتحق بمقر عمله وعندما حضر لم يظهر اهتماماً كبيراً بمسؤوليته. لم يلتفت إلينا، نحن التلاميذ الجدد، الآتين من ثانوية مغربية وغير الملمّين باللغتين الكلاسيكيتين. فملنا تلقائياً إلى أستاذ التاريخ، كورسيكي، من أنصار الحركة الفرنسية اليمينية والذي كان أول من أطلعنا على النظرية الماركسية، ابتداء من أسسها عند هيغل وانتهاء بتطبيقها على يد ستالين. بقدر ما كان لوزينكي يعادي أفكار البلاشفة بقدر ما كان معجباً بشجاعتهم وحماسهم وقدرتهم على شحذ العزائم وبعث الهمم لتغيير مجرى التاريخ. علّمنا التاريخ الإيديولوجي الحي.. طوال السنة التي تفجرت فيها الأزمة المغربية.

كورسيكي، وطني فرنسي، يعلّم مبادىء الماركسية لشبّان مغاربة في وقت يطالب فيه ملك المغرب بفسخ عقد الحماية!.

ـ إنه مكر التاريخ!

ـ إنه مكر الله خير الماكرين /15.

ـ أما أستاذ الفلسفة فكان خيبة وأية خيبة، في مظهره على الأقل.. طويل القامة، مقوّس الظهر، كبير الأنف، غائر العينين، ضيق الجبهة، أحجب، تتخيّله بدون كبير عناء داخل كهف يمشي على أربع مرتقباً فريسته ـ أثناء لقاءنا الأول معه وزع علينا العروض الشفوية فاختار إدريس عرضاً حول مفهوم القلق وراح يبحث في الخزانة العامّة على كتب كيركغارد.

— 14 —

«أعاد لنا الأستاذ اختبار الفلسفة. أعطاني درجة حسنة لكنه أشفعها بنقطة استفهام. قال: أهنىء صاحب هذا العمل. لم أفهم أول الأمر ماذا كان يقصد. لكن جسمي أدرك الإشارة: شحب وجهي ونقصت شهيتي ثم شعرت بقلبي وكأنه يعرك عركاً. أفكّر وأتخيل: «إذا كتبت هذا العمل بداهة فهو ممتاز، إذا حرّرته بعد أن جمعت مقتطفات من مصادر مختلفة فهو حسن، أما إذا نقلته بالحرف، إذا حاكيت فيه عملاً جاهزاً فلا قيمة له..» انتصب الفتى، ذقنه غير محلوقة لأسبوع كامل، شعر رأسه غير مقصوص ولا مسرح. وضع يده على الطاولة، حدّق في الأستاذ بعينيه الخضراوين ثم قال بصوت حادّ: «استطلاع هذا أم استنطاق؟ في الحالة الأولى أجيب بصراحة، في الثانية استنكف عن الجواب. هل تعرفني من قبل لتحكم على قدراتي؟ تشك أن يستطيع شاب في مثل سنّي، بأحرى مغربي، أن ينجز عملاً بهذا المستوى؟ أين الثقة، أين التشجيع الضروري ليطمئن التلميذ ويتقدّم؟ تصرّف يدل على اللؤم والعجز..» كانت هيئة الأستاذ تبعث على الضحك. عالي القامة، كبير متباعد الرجلين، طويل الأنف كثيف الحاجبين، ضيق العينين، قرد خارج من الغابة الاستوائية. ينظر إلى الفتى من خلف نظارتين سميكتين كما لو كان خافت الوعي محجوب الضمير. وفجأة غادر الفتى مقعده، تقدّم نحو الأستاذ الجامد من الدهشة ونزع من يديه ورقة الاختبار.. أتوقف أستعيد المشهد لألحق به خاتمة تليق بفتى مصمّم على أن يعيش حسب تعاليم الأبطال.. رفع الأستاذ يده وصفع الفتى بقوة. لم يتوان هذا الأخير وكال للأستاذ صفعة أقوى. بقي في محلّه رابط الجأش ضامّاً يديه المكتنزتين إلى جسمه. احمرّت وجنتاه، لمعت عيناه فاستعار نوعاً من الحيوية.

تراجع الأستاذ وقد أخفى بيده اليمنى أثر الصفعة. ازداد تقوّس ظهره وعاد أكبر شبهاً بالغوريل. دار الفتى على نفسه وقصد الباب بخطى ثابتة متئدة كما لو كان استجاب لطلب الأستاذ أن يأتيه بالتباشير.

ماذا ينفع الوهم؟ أعلم ما حدث: «هل قلّدت عملاً مكتوباً؟ - لا - هل قرأت مراجع؟ - كتاب لوسن فقط/16 - على ما حال الاختبار الإجباري قريب وبه تتّضح الأمور. ندمت في الحين على ما قلت خشية أن يخطىء زملائي ويظنوا اني اعترفت بأني نقلت لوسن حرفياً. نعم جمعت معلومات، أخذت شواهد من هنا وهناك، هذا ما يفعله الجميع، لكني ألّفت ونسّقت وحرّرت بأسلوبي الخاص. البحث عن المعلومات في مظانها يستلزم فهما مسبّقاً للموضوع.. ثم.. ثم.. لماذا الغضب؟ لماذا القلق؟ هذا الأستاذ لا يعرفني، حقّ له أن يتشكّك.. يقرأ أول مرة ويداخله الشك في قدرة شاب مثلي أن يكتب ما أكتب.. فهذا دليل على أن العمل خارج عن العادة، عن الأساليب المألوفة. وأنا أعرف أني خطّطته بيدي، يجب إذن أن أفخر وأعتز، أن أعتبر ريبة الأستاذ تنويهاً بي تحدياً لي. فلأواجه التحدّي ولأنجز عملاً أكمل حتى يقتنع ويراجع رأيه وربما يندم على ما بدا منه! هذا كلام العقل، أما الفؤاد فلا يزال متردداً. تلتهب العواطف كما لو كنت أخشى المبارزة.. الشك يولد الريبة. لماذا تثور غضباً؟ تعرف قيمتك، ماذا يعنيك من الآخرين سخطهم أو رضاهم، تبريكهم أو تبكيتهم؟ قد أثنى عليك الناس بالعشرات منذ سنوات، يرتاب أستاذ واحد في أمرك فتنهار ثقتك بنفسك. أهذه صلابة إرادتك؟ من هذا الذي يوبّخني، يعطيني درساً في الأخلاق؟. ما حصل يحزّ في الصميم، ينسى ولا يمحي. لا حكم للإرادة على العقل، لا تناسب لا إنسجام بينهما. الهزيمة بعد النصر. مجد الصيف الماضي تعقبه مرارة اليوم. إخفاق محدود، حتى لو تجدّد طول سنة كاملة، طول أعوام الدراسة، طول الحياة، لا بد أن تتخلّله انتصارات. سعيد من أخفق أن نصره لقريب. وتدور الدائرة - الذهن أيضاً يقفز من شيء إلى ضده بلا واسطة، يتلقى يتلذّذ بتمزيق الذات. وإذا توقّف واستقر فلا تظنن أن شيئاً خارجياً قد وقع، أن شيئاً في المحيط الخارجي قد تغيّر.. السبب.. الدافع منه ومنه وحده..»

(1952. 12. 06)

* * *

الفصل الثالث

# الوطن

— 15 —

انتهت السنة الدراسية. تقدم إدريس للحصول على ديبلوم الدراسات الأدبية العامّة من جامعة بوردو ثم غادر الرباط عائداً إلى مسقط رأسه ليقضي آخر عطلة صيفية كشابّ في حضانة والده. مرّت أربعة شهور وهو ينتظر النتائج: نتيجة الامتحان، نتيجة طلب الحصول على منحة لمتابعة دراسته في فرنسا، نتيجة طلب الحصول على جواز سفر، نتيجة طلبه التسجيل في جامعة باريس، نتيجة طلبه الحصول على غرفة في دار المغرب التي كانت شيّدت منذ قليل في رحاب الحي الجامعي، وأخيراً نتيجة الصراع بين القصر والمقيمية العامة. سجّل مذكرات صيف ملتهب:

— 16 —

«اجتمع خمسة رجال يوم عيد الفطر. قال أحدهم وهو عائد من المصلّى:

ـ الإمام اليوم ما قصّر!.

ـ الفقيه والله عنده ما يقول.

ـ لمّا يبدا ما يتوقّف. مشيت عنده يوم الأربعاء الفارط. وجدت عنده سي فريجة والحاج حمّو. قبض فينا من الظهر للعصر والناس على الباب يتقلّوا في الشمس.

ـ ما قصّر في شأن حاملي القرآن. قال: تكلمت في الموضوع ثلاث مرات. ما بقى عندي شيء الله شاهد أنا بلّغت.

ـ حكى لنا قصة عجيبة. ها هي: كان في البلد رجل عاكف على عبادة الله. لا يفارق محلّه يصلّي ويذكر. في يوم من الأيام دخل عليه جمع من الزوار، سمعوه يقول: ها ما تعبدون وأنا الله، ويشير بأصبعه إلى موضع أمامه. قال الناس:

عبد حتّى وصل. لكن الوالي سمع الخبر فاستفتى العلماء وكانوا غايرين منه ومن شهرته فرموه بالزندقة وأفتوا بالقتل. جاء مبعوث الوالي، قبض على العابد وأمضى فيه الحكم. لما سال الدم على الأرض شكّل اسم الله. رد المبعوث الخبر على الوالي فأمر بحفر الموضع الذي كان العابد يشير إليه بأصبعه. حفروا فوجدوا كنز الكنوز. قال الوالي: أغواناً الشيطان فقتلنا الشهيد، ما كان من الزنادقة بل يعني: أنتم تعبدون الدنيا وأنا أعبد الخالق..

ـ سبحان الله! سبحان الله. وضحك الجميع.

* * *

استمع وأقول في نفسي: عمّي يا عمّي! هذه حالكم. شعب يعيش على إرث ثلاثة عشر قرناً لم يغيّر منه شيئاً منذ أن كان الوعّاظ يخرجون من الصحراء ويستميلون بكلامهم الجزل سكّان المدن المترفين. ما نسمع اليوم قيل وأعيد آلاف المرات لا في المغرب فقط بل ما وراء النهر والبحر والجبال الشاهقات.. نفس الحكايات، نفس العبارات، نفس الحكم يتسامر بها الطلاّب في صحون المدارس والمتجوّلون في مسالك المقابر. حضارة محنّطة. ثقافة ذات قيم بشرية عالية لا أحد ينكر ذلك، تساعد المرء على الحياة، تملأ الفؤاد بالأمل والاطمئنان، ولكن لم نعد وحدنا في المعمور. وهذا لم نحسب له أي حساب. أبدعنا حضارة ملائمة لحالنا نحن. ليس الخطأ إن لم نبدع حضارة صالحة للإنسانية جمعاء، لا أحد يستطيع ذلك. الخطأ أننا تصرّفنا ولا زلنا نتصرّف وكلنا ثقة أن حضارتنا تمثّل المطلق. اعتقدنا وما زلنا نعتقد أن التقدم مرتبط بالفرد لا بأي شيء غيره، الأمة أو الجنس أو مجموع الإنسانية. حضارتنا، كما هي اليوم، تعلّمنا أن المجتمع مبني على علاقات قانونية قارّة مرسومة إلى الأبد، وأن يستطيع الفرد، ضمن هذا الإطار القارّ، أن يسمو أو أن ينحط، في طريق الخير أو في طريق الشر. هنا سبب سباتنا الطويل، لهذا السبب قال العربي للإنجليزي في كتاب كوستلر: نؤمن بالله لا بالإشتراكية، هذه تهتم بالجماعة والمسلم لا يعرف إلا الفرد». /17 (14 .06 .1953).

* * *

— 17 —

ـ لم يسجّل أن القصة رواية شعبية لما جرى للحلاّج.

ـ ربما كان يجهل ذلك.
ـ هل لأبيه دور في هذا النقاش؟
ـ لا أظن، الحوار بين عمّه الأمي وأصدقائه أصحاب الورد. كان كلام إدريس مع أبيه يجري على مستوى آخر. كتب: «فسّرت اليوم لأبي أسس النظرية الماركسية وأوضحت له أنه يمكن فصل الجانب الاجتماعي والاقتصادي عن الجانب العقائدي».

كان إدريس قرأ، أثناء السنة الدراسية وبإشارة من لوزينكي، كتاباً حول الحرب العربية الإسرائيلية الأولى ثم خلال الصيف قصة آرثر كوستلر برج عزرا التي تدور حوادثها في فلسطين أيام الانتداب البريطاني. جاء حوار العمّ مع رفاقه فرصة لمعرفة مقدار صحة ملاحظات الكاتب عن الذهنية العربية. مشكل الفرد والجماعة محور فكر كوستلر خاصة في كتابه الشهير **الصفر واللاّمتناهي** حيث ينتقد النظام الشيوعي الذي جعل من الدولة قوة غير محدودة ومن الفرد قيمة قريبة من الصفر. الغريب أن كاتباً إنجليزياً آخر سيكتب مقالاً مناقضاً لما سجّله كوستلر/18. سيقرر أن الإسلام يتلاءم مع الماركسية لأن الاثنين لا يعيران اهتماماً للفرد ويعطيان سلطة لا متناهية للدولة حيث يتجسد المطلق، الله في الإسلام والتاريخ في الماركسية.

ـ قوله أن الحضارة الإسلامية خصوصية غير مقبول.

ـ لا يقول الدعوة الإسلامية غير عامة بل ان الحضارة التي أنشأها المسلمون خاضعة بالضرورة لظروف خصوصية، إلا أن المسلمين يجهلون هذه الحقيقة فيظنّون أن لا حاجة للتغيير. كل شعب يفعل بالدعوة المحمّدية ما يستطيع، يؤوّلها حسب مقتضيات أحواله. وهذا كلام لا غبار عليه.

ـ كلام يحتمل تأويلات أخرى.. والتأويل لا حدّ له.

— 18 —

«حوار مع الأب:
ـ من يدافع عن الضعفاء سوى الشيوعيين؟
ـ الشيوعيون أعداء الدين.
ـ نترك جانباً هذه النقطة. يقولون أننا لن نصل إلى أية نتيجة، فيما نعمل من أجله، إلا باستعمال القوة.

ـ لا يقهر الحديد إلا الحديد. هذا صحيح. أين الطائرات؟ أين البنادق؟

ـ هناك قوة من نـوع آخر. لو اتفق المغاربة وقالوا بلسان واحد (لا) لفهمت فرنسا وخرجت من البلاد

ـ هذا ما أقول دائماً. الاتفاق غير موجود اليوم ولن يتحقّق في القريب. بيننا كثير من الخونة. نوّرت جماعة صغيرة، بدأت تفهم الأمور، وتريد أن تضحي بها؟. هذه خسارة ما بعدها خسارة!

ـ ماذا ينفع الفهم بلا عمل. هذه الجماعة تفهم ثم تيأس إذا لم تعمل.

ـ تعمل لما تكبر! عند ذاك كل شيء يسهل.

توتّرت أعصابي.

ـ كيف تتصوّر المغرب بعد ستين سنة؟

ـ بين أيدي المعمرين.

ـ كالجزائر.

ـ نعم كالجزائر.

ـ وبعد قرن؟

ـ تتكوّن نخبة متعلّمة قادرة على انتهاز الفرصة. مهما يروا نقطة الضعف في الحكم الأجنبي يستغلوها.

ـ ما استغلوا هزيمة 1940؟

ـ لأن فرنسا وعدت وخانت. قالت: عدوّنا واحد، نحاربه معاً وبعد النصر يحرز المغرب على حكم ذاتي ثم خطوة خطوة يصل إلى وضعية تضمن الاستقلال وحقوق الجالية الفرنسية. لأنها أخلفت وعدها لن يثق بها أحد في المستقبل. استقلال المغرب رهن بالسياسة الدولية. نحن على أبواب مواجهة كونية جديدة. نعلم أن روسيا لن تشهر الحرب لأنها تملك وسائل أسلم لها وأضمن، وسائل الثورة من الداخل. تدّعي أنها تنوي الجلاء عن ألمانيا الشرقية بشرط أن تجلو أمريكا عن ألمانيا الغربية. الهدف هو توحيد ألمانيا وألمانيا الموحّدة لا شك تتّجه نحو روسيا. لن ترتكب غلط هيتلر الذي كان عليه أن يعقد صلحاً طويل الأمد مع ستالين. والتحالف الروسي الألماني قد يخسر الحرب ولكن روسيا لن تحتلّ كما أن أمريكا لن تخسر شيئاً لأن ميدان المواجهة هو دائماً أوروبا الغربية. فهذا الوضع هو الذي يشجّع الاثنين على المخاطرة ونحن نستفيذ في كل حال.

ـ تنسى القنبلة الذرّية. تتكلم عن الحرب التي انتهت.
ـ هل يستعملونها في البداية؟
ـ بالطبع.
ـ إذن ستكون النهاية. ولو. . ماذا نخسر؟.
وانتهت المقابلة في العاشرة والنصف من يوم الأحد.

***

**الإثنين**

فسّرت لأبي تاريخ اليابان الحديث، العوامل الاقتصادية والدوافع النفسانية، وركّزت على أنه لم يأخذ من الغرب إلا الوسائل المادّية، وسائل المناعة والتوسع. لاحظ أبي:

ـ قلت أن خيرات اليابان الطبيعية محدودة ومع ذلك حقّق ما حقّق. خيراتنا نحن أهم. لو حكمتنا دولة أقل نهماً من فرنسا لاستثمرنا تلك الخيرات وسرنا في طريق الرقي وكنّا دولة يحسب لها حساب. ويكون هذا في صالح الدولة الحامية.

ـ سوء حظنا هو موقعنا الجغرافي وقلّة عددنا واعتدال مناخنا، مما جعل من بلادنا مستعمرة سكنية. بيد أن المشكل غير هذا. المشكل هو نفسانية المغربي. هل يستطيع أن يفعل ما فعله الياباني؟ هل نجد بيننا من يكون طيّاراً انتحارياً؟ أين عقلية التضحية، إنكار الذات التي تميّز قادة اليابان؟ قد أضاعوا ما شيّدوه طيلة خمسين سنة ولكنهم عاشوا فترة مليئة بالأمجاد. تاريخ اليابان مجيد حتى في أحلك فتراته. هل يستطيع المغرب أن يرقى إلى هذا المستوى حتى لو كان حرّاً؟

ـ أنا مقتنع بذلك. بيننا عباقرة يستطيعون أن يحققوا المعجزات لو كانوا أحراراً في تصرّفاتهم. لكن من حسن حظنا أن فرنسا في طريق الانحطاط. حكومتها فاسدة، زعماؤ ها في خدمة رأس المال، اقتصادها يتنفس بمساعدة أمريكا. . لا بد أن تنهار عن قريب.

ـ هذه صحيفة بريطانية الديلي تيليغراف قالت أن فرنسا هو الرجل المريض في أوروبا. كان هذا اللقب يطلق على الايالة العثمانية في القرن الماضي. كما أن تركيا احتفظت بامبراطوريتها إلى حين بسبب التنافس الروسي ـ البريطاني فكذلك تحتفظ فرنسا بمستعمراتها بسبب النزاع الأميركي ـ السوفياتي.

**الأربعاء**

أحرق أبي أعداد العلم التي جمعتها منذ بداية السنة دون أن يخبرني بذلك. ما الباعث على مثل هذا التصرف؟ أية عقلية هذه؟ لا يهمّ ما يجري في ذهنك. فكّر بما تشاء واعتقد ما تشاء، لكن لا تقدم على أي عمل.. اتجاه عام، حتى داخل الحزب. لا أفهم.. إذ هذا السلوك يطابق ما يريده الفرنسيون. ونفس المنطق يجعل الناس ينتظرون من يحررهم من الخارج. لا يفهمون أنهم قد يستقلّون ولكنهم لن يشيدوا وطناً ذا تاريخ.. استقلال عقيم. حتى لو استقلّ المغرب في هذه الظروف فسيكون مثل ليبيا/19.. استقلال أبتر.. إذا خرج المستعمر لسبب عارض ما المانع أن يعود؟ كل يوم ازداد قناعة أن المقاومة الحقيقية هي في الميدان النفساني. يجب أن نحارب هذه الذهنية حتى نجتثّها. يخطىء الحزب عندما يظن أن الكفاح السياسي كاف. لا. الدليل هو ما نلاحظه من قمع والصمت المحيط به.

* * *

**المساء.**

خرجت أتجول على شاطىء النهر أسفل السور القديم الذي يعود بناؤه إلى أيام البورتغاليين والذي لم ينل منه الزمن شيئاً. أردت أن أطلع إلى أعلى باب الملاح لألقي نظرة على الشط الأيمن والمصبّ في البحر. فمنعت. من اتخذ قرار المنع؟ رئيس البلدية أم السكان في الدار المطلّة على ساحة السور؟ لا فرق لأن الساكن هو مساعد المراقب وليس الهدف المحافظة على معلمة عتيقة. كيف لا نعي الوضع المؤلم الذي نعيش فيه؟ لا يمكن أن نتعرف على بلدنا. المغرب مجزأ إلى مناطق ممنوعة على غير أهلها. لا يخرج المدني إلى البادية إلا ويجد نفسه محاطاً بعيون كأنه في بلد عدو، خاصة إذا كان طالباً. لا مجال للحرية، حرية القول أو النشر أو التجمع.. وضع روسيا تحت حكم نقولا الثاني بل أسوأ إذ أصغر شرطي أو شاوش، أي متمسّح بالسلطة، يظهر فضاضة لا توصف. هذه أمور ثانوية: لا نكافح من أجل حرية الأفراد، حرية المغاربة، بل في سبيل حرية المغرب. نريد مغرباً مستقلاً حتى لو عاش المغاربة في البداية تحت ديكتاتورية رهيبة. لذا لا نلقي سمعاً لمن يقول: المعمّرون أرحم من الملاّكين المغاربة، الرأسماليون الفرنسيون أعدل من البورجوازيين المغاربة. الدخلاء دخلاء وكفى. نقول هذا لا عن كراهية عمياء أو تحيّز حزبي ولكن عن استنتاج منطقي. إن الثورة النفسانية التي ستعيد وحدها للمغاربة،

والمسلمين عامّة، موقعهم في العالم والتاريخ، يستحيل أن تكون من عمل الفرنسيين، بل أن تطبّق بحضورهم. لا يحصل التغيير اللازم، الذي قد يتطلب اللجوء إلى القوة، لا يمكن القضاء على الخمول الموروث المانع لكل تقدم، إلا في ظل الاستقلال. .

* * *

**الأحد** 15 يونيو العاشرة مساء.

حوار بين طلبة:

ـ يصعب على الطلبة المغاربة اختيار مهنة. في فرنسا تقاليد عريقة، هنا نمثل أول جيل عليه أن يختار لنفسه. نجد نوعين من المهن: مهن للربح كالطب والمحاماة، تغرينا لأننا فقراء في الغالب، وأخرى لا تدر ربحاً كبيراً ولكن فيها نفعاً للوطن. في الطب أيضاً فائدة ولكن الطب لا يعرف شيئاً عن السياسة أو الاقتصاد.

ـ هل تنوي دراسة السياسة؟

ـ ليست السياسة علماً يدرس. الفلاسفة، المؤرخون، الجغرافيون، الحقوقيون، كلهم يشاركون في نشر الأفكار السياسية. ترون كم طغى الهمّ السياسي على تأملاتي، حتى عملي المدرسي تأثّر به.

ـ هذا واجب.

ـ نعم ولكن الطلبة المغاربة الذين أراهم في الرباط لا يفكرون إلا في الفيلات والسيارات والعيادات. الطالب الوحيد الذي لا يهتمّ فعلاً بمستقبل البلد من الأقليم الشرقي ومنخرط في الحزب الشيوعي. . والمسؤول على هذا الاتجاه في نظري هو الحزب. يقول للشباب: اشتغلوا بالدراسة. الواقع أنه لا يكفي الانكباب على الدراسة إذا أريد أن يكون لهذا البلد مستقبل. من كان وراء الوحدة في ألمانيا وإيطاليا؟ وراء الثورة في روسيا والصين؟ الطلبة، لا البقالة أو التجّار. طبعاً عمل الطالب ليس في حمل السلاح ولكن دوره كبير حاسم في التوعية وبعث الهمّة. عندما رأيت خمول رفاقي وحيوية الطالب من المغرب الشرقي تساءلت: ألا يكون السبب هو قناعته السياسية؟ صرّحت بما في خاطري فرميت بالشيوعية. الواقع لست شيوعياً، لي عقيدة وإيمان، مثل أعلى أريد أن يتحقّق فألجأ إلى كل الوسائل، ومنها التحالف مع الجميع الذين يعملون لنفس الغاية. أنا أصوم وهو لا، أنا أقرّ بوجود خالق يثيب

المحسن ويعاقب الظالم وهو يجحد ذلك، هل هذا يمنعنا من التعاون والتآزر؟ الحزب يرفض العمل المشترك وأرى في هذا الموقف خطأً كبيراً. . تحالف مؤقّت ولكنه ضروري في الظروف الراهنة. بل أزيد: كل شيء أفضل من الاحتلال والاستعمار ولو كانت الشيوعية.

ـ العامل الديني مهمّ. نحن نقبل التساكن مع أولئك الناس ولكن الشعب يرفضه بالمرة. لا ثقة له فيمن لا إيمان له. من هو الزعيم الأقرب إلى قلوب الجماهير؟ أبعدهم عن السياسة العصرية.

ـ أفهم أن السياسة هي علم الممكن، فن التلوّن مع الواقع. الدين واقع، ولكن الدين أحياناً يساعد وأحياناً يعرقل النشاط الوطني، في صفائه حليف قوي لنا ولكن، في الشكل الذي تفهمه عليه طبقة بأسرها، إنما هو دعوة إلى الرضوخ والاستكانة. يقولون: كل شيء مسطّر مكتوب. . عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. . هذه العقيدة يجب محاربتها وإلا رضينا بحالنا إلى آخر الدهر. تقول أن الدين عامل وحدة، آخر حاجز نحتمي وراءه لردّ الغزو الروحي الأجنبي ولكن نراه يومياً كيف يساعد السلطة الحاكمة. .

ـ المغاربة لا يعرفون معنى التضحية.

ـ التضحية تأتي في وقتها. انظر حال تونس اليوم، من كان يظن أن تظهر فيها مقاومة مسلّحة؟

ـ الجماهير المغربية ساكتة قانعة.

ـ اليوم. . وعندما تقوم؟

ـ أعرف ما تعني. لا أتحمّل هذا الاحتجاج الدائم بأعمال الماضي. كل الأحزاب تستشهد بالتاريخ. توجد أمم ذات ماض مشرق وهي اليوم وادعة شبه ميّتة. . اليونان مثلاً.

ـ ثار المغاربة عدة مرات.

ـ نعم ثاروا ضد الرومان والعرب والأتراك. . المغاربة أصحاب نجدة وأنفة، لا يقبلون الضيم طويلاً، دائماً متشبثون بحريتهم واستقلالهم. . أسطوانة أعرفها من ألفها إلى يائها. لكن المغاربة اليوم من هم؟ الفلاحون؟ لا تنتظر منهم شيئاً. تجار المدن؟ لن يقدموا على أي عمل. المثقفون؟ عددهم قليل. يستطعون أن يؤثروا في

عقول الناس ولكنهم خيبوا الآمال المعقودة عليهم. عمّال الصناعات الحديثة؟ هذه طبقة في طور التكوين لم تع بعد خصوصيتها. .

ـ لم يبق شيء.

ـ بالفعل لم يبق شيء من الأوهام التي يتلهى بها الناس.

ـ علينا إذن أن نبني من الأساس. . نعم من الأساس.

* * *

**الأربعاء** 16 يونيو. حوار مع أساتذة المدرسة الابتدائية.

تعليم اللغة العربية مهمل إهمالاً كلياً. الحضور اختياري، المعلم غير مؤهل، الحصّة في آخر النهار، حتى أن بعض المعلمين يجدون القاعة مقفلة. الراتب الشهري لا يتعدى 9.000 ف، المعلم في الغالب رجل من البلد يحفظ شيئاً من القرآن. لو عهد تلقين العربية إلى المعلم الرئيسي لكانت النتائج أفضل. .

ـ لا أبداً. تلقّن حينذاك بالفرنسية كما لو كانت لغة أجنبية كالإنجليزية أو الإسبانية.

ـ الضعف في المعلم وعدم كفاءته. أما المقرّر فلا بأس به. أدخلت دروس جديدة مثل الأخلاق. .

ـ لا داعي لذلك. أدخلت الأخلاق في المدارس العمومية في فرنسا بعد أن نزع التعليم من أيدي الكنيسة. أما في المغرب فيكفي تعليم قواعد الدين. .

ـ ثم المفتّش لا يهتمّ بالموضوع فيتراخى المعلّم. يرى الفرق بينه وبين المرسّمين. .

على أي حال في الظروف الحالية لا يمكن فعل أي شيء. . يخاف المعلم أن يحكي التلاميذ ما يجري في القسم لآبائهم وأن يشتكي هؤلاء. . حتى لو علّمهم مبادىء النظافة لاتّهم وربما طرد من منصبه. .

ـ طبعاً تختلف الأوضاع من بلد لآخر. . ولكن دور المعلم أساسي. في فرنسا يكرس النظام العلماني ضد الكنيسة الحاقدة، في ألمانيا يذيع الأفكار الجرمانية. . في المغرب واجبه توعية النشء وتلقينه مبادىء الوطنية.

ـ صحيح. . ولكن ماذا تفعل بالسياسة. أنا أريد أن أتكلّم عن المغرب والملك والعرش فأخاف من سخط الآباء والأمهات.

ـ أستعمل وسائل ذكية. يكفي أن تحسن اختيار املاء أو محفوظة ينصرف التلاميذ من ذاتهم إلى التفكير في شؤون الوطن. .

ـ يسألون عن أشياء كثيرة وباستمرار. . إذا سمعوا كلاماً عن عيد العرش سألوا عن مغزاه. .

ـ كتب الإنجليزي هاكسلي/ 20 مقالاً مطولاً عن تونس. وصف فيه ما لمسه من وعي نقدي وحب استطلاع عند صغار التونسيين ولاحظ أنهم بقدر ما يتلقون دروساً في الدين بقدر ما يختفي وعيهم النقدي ويشيع بينهم الكسل الذهني. ثم ختم مقاله قائلاً: لذلك أضاعوا حريتهم. أظن أنه أصاب الحق. ربما الدروس الدينية التي يتكلم عنها لا تعبر عن حقيقة الدين ولكنها هي التي تؤثر في أذهان الناس. كنت أناقش يوماً رجلاً عجوزاً وأحاول اقناعه بضرورة وحدة الصف والعمل المشترك من أجل استقلال المغرب. أجاب: هذه الوحدة تظن أنها ممكنة خارج نطاق الدين؟ أعلم أن العقيدة الدينية هي إحدى ركائز الوحدة الوطنية ولكن ليست الركيزة الوحيدة. ثم تحقيق الشرط صعب. كيف نجبر الناس على الخضوع كلهم لأوامر الدين قبل مطالبتهم في الاشتراك في العمل الوطني؟ أجاب هذا بالضبط ما أقول. . كيف يمكن أن نتبع فلاناً وهو يدخن باستمرار ولا يعرّج أبداً على المسجد؟ كنت أستمع لكلماته وأتساءل: أليست هذه الذهنية التي يختلط فيها الدين والسياسة هي العقبة الكبرى لكل إصلاح وتجديد؟ هذا رجل يقبل الحكم الفرنسي إلى أن يثوب كل المغاربة إلى الدين ويعني بالدين تقاليد غلبت عليها البدع منذ قرون. .

ـ لننظر في حال عبد الحي. ماذا تعلّم من الدين؟ أن يستغل الظروف السياسية لأخذ الثأر. . / 21.

ـ مثل آخر بين أظهرنا. الدين يدعو إلى التقشف والزهد. من زهد في الدنيا وأصبح لا يفكر إلا في الآخرة لم يعد يهتم لشخصية الحاكم: ماذا يعنيه أن يكون من هذا الجنس أو ذاك؟ لكل واحد الحق أن يختار هذا الطريق ولكن ليس من حقه أن يدّعي أن هذا الاختيار واجب على الجميع. هذا غرور وجبن.

ـ الحقيقة أن لا أحد منهم ينسى نصيبه من الدنيا.

ـ لذلك عادى مصطفى كمال أصحاب العمائم الذين تسبّبوا في خراب الوطن. لا نريد أولياء، نريد أبطالاً. نطرح على هؤلاء المشعوذين السؤال: المثل الأعلى هو النبي أليس كذلك؟ هل كان بطلاً أم ولياً منعزلاً؟

* * *

**الخميس** 18 يونيو. بلاغ من القصر الملكي.

يعلن إلغاء حفلات العيد. يشكر أفراد الشعب الذين عبّروا بواسطة البريد عن ولائهم وتعلّقهم بأهداب العرش العلوي المجيد.

يؤكد على حقوق الجالية الفرنسية ودورها في التقدم الاقتصادي.

يقول: «إن الصداقة المغربية الفرنسية لم تكن أبداً بالنسبة لنا عبارة فارغة».

يذكّر بالبرنامج الاصلاحي الذي سبق أن تقدم به للسلطات الفرنسية (دمقرطة الحياة العامة، مشاركة الفرنسيين في تسيير البلديات، التخطيط الاجتماعي، الاصلاح القضائي بفصل القضاء عن الإدارة، تشجيع الاستثمارات، الحق النقابي).

الواقع أن الملك يتقدم شعبه وبمسافة كبيرة. فيسهل على الفرنسيين توسيع الهوّة. هذا هو مضمون الأزمة الحالية. آه! لو وجد قبل الحماية! وجد الآن ملك مصلح، يعلن عن برنامج إصلاحي بعد أن فقد حرية التصرّف!. قدر معاكس.. سيقول المؤرخون: جاء بعد أو ربما قبل، الآوان..

لو كان مقدراً أن تكون الحرب السبب المباشر لتحررنا من التسلط الفرنسي!!

* * *

**نفس اليوم**. نقاش بين أبي وابن عمي.

هل وقّع الملك على ظهير البلديات؟

ـ وقع. صرّح مراراً أنه يضمن حقوق الفرنسيين القاطنين في المغرب.

ـ ولكن سيكون لهم حق التقرير، إذن الآن بدأ الاحتلال الحقيقي.

ـ كلهم أرادوا فرنسا. ماذا يفعل هو وحده؟

ـ سيرون النتيجة.

خلاصة الكلام: إذا خان الجميع فعلى الوطنيين أن يخونوا مع الخائنين. منطق عجيب!.

* * *

**السبت** 20 يونيو. عشاء في حي الحفرة مع رجلين في مستوى التعليم الابتدائي.

ـ سمعت كلام الجلاوي؟
ـ ما عنده كلام. يقرأ ما يكتب له أسياده. هذا هو الحق.
ـ قال القواد والبشوات يقبلون الديمقراطية...
ـ هذا دليل على أن الكلام ليس منه.. فيه تناقض..
ـ فرنسا الآن بلا حكومة. كيف تجيب على مقترحات الملك؟
ـ الوزارة المستقيلة تقوم بالأعمال.
ـ الحكومة الفرنسية دائماً ضعيفة. لا صدق ولا أمانة.
الرأسماليون لا يريدون إلا الربح. لا يهمهم الاصلاح. والحزب الراديكالي بين أيدي المعمّرين.
ـ أعلن نجيب رسمياً قيام الجمهورية في مصر. نتمنى أن تتحسّن عندهم الأمور.
ـ لا بد من الإخلاص والوطنية.
ـ سيغضب العراق.
ـ هكذا يكون على بال ويقطع علاقات التبعية مع انجلترا.. نوري السعيد كلب..
ـ قرأت الافتتاحية: المغاربة ينقصهم النضج السياسي.

* * *

**الجمعة** 19 يونيو. حوار بين أربعة أشخاص.
ـ الدروس في جامع القرويين هي هي منذ قرون. يأخذ الشيخ كتاباً عتيقاً ويعلق عليه. قال فلان وقال فلتان.
ـ المسؤول الإدارة الفرنسية. طلبنا مراراً من جلالة الملك الإصلاح وكل مرة تعارض الإقامة العامة. إذا تركونا نقرأ الكتب الحديثة فكأنهمو أعلنوا بالرحيل.
ـ يجب تحويل القرويين وابن يوسف إلى جامعتين. يدخل إليهما المتخرجون من المدارس الثانوية ويتخصّصون في الأدب أو في الفقه كما هو الحال في بلاد الشرق.
ـ لكن تلاميذ الثانويات ليسوا في مستوى طلبة القرويين.
ـ بسبب قلّة الأساتذة الأكفاء. المتخرجون من المدارس الفرنسية يدرسون العلوم كما يجب والمتخرجون من القرويين يعلّمون العربية على الطريقة العتيقة.

يجب تغيير المناهج.

ـ نحن نقول عربية المدارس الثانوية لا قيمة لها.

ـ لا. من التلاميذ من تخرّج بتفوّق.

ـ أكثر من يخفق في الامتحان يخفق بسبب العربية.

ـ لأن الممتحنين يسألون عن أشياء في منتهى الدّقة كما لو كان المرشّحون كلهم يتجهون إلى مهنة القضاء.

ـ لا بد أن يطلعوا على أصول دينهم.

ـ الدين. . الدين. . حتى لو كان أصل التأخّر! تطلب من التلاميذ أن يقضوا الأيام والشهور في حفظ أشياء لا تنفعهم أبداً في حياتهم اليومية.

ـ هذا دينهم.

ـ أما أن ننسى تلقائياً هذه المسائل الكلامية وأما أن نخلق طبقة تنعزل عن الدنيا، تزهد في الحياة العامة وتتعاطى كلياً لهذه الأمور العقيمة.

ـ ديننا لا يقبل الإكليروس.

ـ إذن تريد أن يبقى المغرب في منتهى التأخّر.

ـ وبلاد الشرق متأخرة؟

ـ أترك أغاليط الدعاية. البلاد الإسلامية كلها متأخرة. بلد واحد يتقدم.

ـ لبنان؟

ـ لا. تركيا.

ـ السلام عليكم.

يبتعد بسرعة.

ـ قلت الحق ولكن بخشونة.

ـ المغاربة غارقون في الأوهام. إذا هدّمتها دفعة واحدة زاغت عقولهم.

ـ لا بد أن تترك لهم بعض الأمل.

ـ تعتقد فعلاً أن الدين سبب التخلف؟

ـ الدين كما تفهمه العامّة سبب الانحطاط. البول وقوفاً حرام، تقديم الرجل اليسرى عند عتبة المسجد حرام. . اقتراب الأطفال من المصحف حرام. . مسائل تافهة تعقّد الدين. لا بد من تصفيته من هذه الشوائب.

ـ الدين كما جاء في القرآن والحديث الصحيح يسير جداً. الصعوبات جاءت من بعد، عندما بحث الناس في مسائل احتمالية. علينا أن نرجع إلى التاريخ. اكتشفوا العلوم اليونانية والفلسفة وخاصة منطق أرسطو. . أرادوا تطبيقه في نطاق الفلسفة لكن هذه كانت مهجورة. . لترويج كلامهم اتجهوا إلى الدين وابتدعوا كل هذه التجزيئات. فهي وثائق تدلّ على ذهنية المسلمين في فترة من فترات حياتهم. أما الآن، فنحن أمام مشكلات جديدة سنحاول حلها بتطبيق المنطق الغربي العصري كما حاول القدماء حلّ مشكلات العهد العبّاسي بتطبيق المنطق اليوناني.

ـ بهذا المعنى أقبل ما تعنيه أنت بعلم العلماء. .

ـ أما الجزئيات التي ذكرت فلها فائدة. التلاميذ الفرنسيون يتلقّون دروساً في الأخلاق عوض الدروس في الدين. أما نحن فنعوض الأخلاق بتلك الأوامر والنواهي. تظن أن البول وقوفاً أو القرفصاء على حدّ سواء ولكن إذا رأيتها من جانب ترويض الجسم وتغليب العقل على الغريزة أي من جانب التربية الأخلاقية ظهرت لك الفائدة. إذا كنت لا تفكر أبداً في أي أمر أو نهي عندما تقدم على عمل من الأعمال غلبك الجسم وأصبحت حيواناً بين الحيوانات.

ـ طيب قد تكون لهذا النوع من التربية فائدة في الماضي. أما اليوم فالإنسان لا ينفك يفكّر.

ـ يفكر في أي شيء؟ فيم يفكّر الأميركي؟ في السيارة والويسكي والنساء.

ـ ليست أمريكا مثل الحضارة المعاصرة؟

ـ ومن يمثّلها؟

ـ البلاد الإسكندينافية.

ـ طيب. لأي سبب تقول أن أولئك الناس متحضرون. لأن مستواهم المعيشي مرتفع؟ لأنهم حقّقوا توازناً بين الفئات الاجتماعية؟ إذا كانت هذه هي مظاهر الحضارة، فلا شيء إذن ينقص المغرب أو البلاد الإسلامية عامّة، أو الصين أو اليابان، عجب الأوروبيون دائماً بما لاحظوا في كل هذه البلاد المشرقية من اعتدال وتوازن. عاشت الصين مدّة قرون في التآم ووفاق داخل تنظيماتها التقليدية حتى جاء الأوروبيون وهدّموا بالقوة هذا البناء التقليدي ففقدت الصين توازنها ولم تزل تبحث عن توازن جديد عبر الحروب والثورات حتى وجدته الآن باعتناقها الشيوعية.

ـ لا أوافق على أن حالتنا ميئوس منها.

ـ كل حضارة، مهما كانت أصولها، لا تضمن لذاتها الدوام والاستمرار إلا إذا ملكت القوة والسيطرة. عندما كان المغرب قوياً سياسياً حافظ على توازنه وعندما ضعف اختلّ نظامه. علينا أن نتّبع طريق اليابان وأن نستمدّ من الغرب كل ما يعيد لنا قوتنا العسكرية. وبذلك أن نؤسس حضارة جديدة تحتفظ بشيء من الماضي. يتجزأ المغاربة إلى ثلاث فئات: الأغلبية التي لم تتغير في شيء، الأقلية التي تعرفت هي الأولى على الغرب فتغربّت وأصبحت غريبه عن الشعب ونحن نمثّل الفئة الثالثة، فئة الوسط والجميع يبحث عن توازن جديد. المشكل صعب جدّاً لكن الحل لا يمكن أن يأتي إلا على أيدينا نحن.

***

**11 غشت**. جولة الجلاوي عبر المغرب. عهد مولاي إدريس

**12 غشت**. بلاغ من القصر الملكي.

**13 غشت**. (عدد جريدة المعمرين). تصريح للجلاوي: لا تراجع من الآن. الشعب معنا. حزب الاستقلال يمثّل عشر السكان والسلطان هو السلطان الكاريان، درب غلّف وحفنة من الفرنسيين المغرّر بهم. فتوى حسن مزّور المنشقين. محاكمة المشاركين في فتنة 1951 أحصى ثلاثمائة من القتلى بين المغاربة حسب الدفاع، يتقدمه شارل لوكران وعبد القادر بن جلون والخطيب/ 22.

**14 غشت** (عدد الجريدة) مات أثناء فتنة ابن مسيك أربعة وثلاثون من الأوروبيين حسب أحد الجنود الفرنسيين. مرافعة المدعي العام. ظهائر الإصلاح التي وقّع عليها السلطان أمس والتي سيعلن عنها بعد يومين تضع حداً للحكم المطلق وتؤسس مجلساً تنفيذياً مكوناً بالمناصفة من وزراء مغاربة وفرنسيين.

حركة دائبة في مراكش حيث اجتمع القواد والبشوات لتنصيب سلطان جديد. القصر في الرباط محاصر. الحافلات المتجهة إلى الرباط من فاس أو البيضاء توقّف، القاصدة مراكش لا توّقف. صرح إبراهيم بن الجلاوي: عينّا إماماً ولم نرد الإقدام على قرار أكثر جذرية لكي لا نحرج فرنسا. ولكن موقفنا ثابت لا يتغيّر. لم نعد نعترف بسيدي محمد بن يوسف سلطاناً علينا رغم توقيعه على ظهائر الإصلاح. سنطّلع على فحواها غداً.

**15 غشت**: ذهب فالا وبونيفاس ودوتفيل/ 23 إلى مراكش طلبوا مهلة أربع وعشرين ساعة لأن الحكومة الفرنسية في باريس لا تدرك بوضوح أسباب ثورة القواد

والبشوات. لا بد من مهلة لكي تشرح لها أهداف الحركة.

يتكلمون عن الفصل بين السلطتين، أي مغربي سمع أبداً بهذا؟

الأمة على طريق الضياع وهو يكلمني عن مستقبلي كما لو كانت الأحداث بعيدة عني. إذا قضي نهائياً على شخصية البلاد ماذا يبقى لنا؟ يقول الناس: الخطأ منّا، تسرعنا. أقول: هذا الشعب لا يفهم أن كل شيء منوط بعمله وأن السلطان لا يستطيع شيئاً بمفرده. إن فرنسا تهين المغرب ومع ذلك يقول المغاربة: الحالة أفضل من سيبة 1912. إذا كان الشعب يريد الحرية بالفعل عليه أن يدخل في معركة حاسمة مع فرنسا. اما موقف اصبر حتى نرى ما يفعل الله، فلا ينفع أبداً. الهندصينيون يحاربون فرنسا بالقوة منذ سنوات ولا يقفون مكتوفي الأيدي. هنا العرش يتزعزع والناس يقومون بأشغالهم العادية. أيكون الجلاوي على حق عندما يدّعي أن الأغلبية ليست مع السلطان؟ أيكون صحيحاً أن الجمهور في الحياد لامع هذا ولا مع ذاك؟ كيف يمكن لشعب مستسلم أن يكتب التاريخ؟ مغروورون يظنون أنهم انتصروا.. على من؟ يوماً ستكتشفون أنكم خدعتم وأهنتم وأن الملك كان فرصة لتقدمنا وازدهارنا وأنكم أخرتم البلاد بسنوات عدّة.

**16 غشت**. مظاهرات دامية في وجدة. قتل ثلاثة وعشرون أوروبي وجرح خمسون. مظاهرات في الرباط والقنيطرة. في الدار البيضاء قتل عسكري.

بلاغ من القصر الملكي. يطالب الناس بملازمة الهدوء. يفسّر ما حدث بإقدام الإدارة على إجراء مناقض لأصول الدين التي لا سبيل إلى تبديلها. لا يمكن الفصل بين السلطتين. يذكّر الملك فرنسا بأنه وقف بجانبها سنة 1939 وأن لا شيء ينزع منه الشرعية. يختم البلاغ بالآية الكريمة: **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم/ 24**.

تصريح الجلاوي: لا يمكن أن أمنع فرنسا من أن تتصرفّ كما تشاء ولكني أقول: أني عازم على انقاذ بلدي المغرب مهما كان الثمن حتى ولو أدى ذلك إلى التنكّر لصداقة غالية علي خدمتها طول حياتي وضحيت من أجلها بمالي وفلذة كبدي.

* * *

**الخميس 20غشت** الثانية ونصف.

غادر الملك أرض الوطن ذاهباً إلى كورسيكا.. العين باكية والقلب

متبول/ 25 ومعه ذهبت الملكية الشرعية. كيف يستمر نظام إذا سقط فيه الرمز تفتّتت الأمة؟ هكذا فتحت مصر وفارس. لم نعرف كيف نتحرّك في الوقت المناسب.

منع التجول بعد العاشرة.

**21 غشت.**

يصل اليوم السلطان الجديد إلى الرباط.

ألقى خطبة. نفس الموسيقى، نفس العبارات، نفس المراسيم. ومع ذلك ظاهر أنه في غير محلّه كما لو كانت هذه الأمور كلها مرتبطة بشخص السلطان الغائب. أين الأبّهة؟ أين الهيبة؟ أين الملوكية؟ يعيش المسكين في نفس الديكور ولكنه سلطان زائف قزم. لا شيء يربطنا به إذا لم يتغير لن يعرفه أحد ومن أين له أن يتغير؟ المحمّد الوحيد هو المعبّر عن ضمير المغاربة، هو الذي يقول لا للغرب. وهذا الزائف الدمية يتكلم عن صداقتنا الدائمة لفرنسا.. كيف تدوم بربك صداقة لم تر أبداً النور؟ لعنة الله على الكاذبين حتى ولو سمّوا أنفسهم وسمّاهم الأجانب سلاطين. يقال إنه جرّ بالسلاسل إلى العرش ومع ذلك سيلعن أبد الآبدين.. مسكين سيؤدي ثمن ضعفه أو غروره..

* * *

**26غشت.**

إننا نمدّ أيدينا لأعدائنا.

يقول عبد الحي: لقد منعنا القصر من أن يحطّمنا نحن الأغلبية الحية النشيطة المكوّنة من الأعيان والرؤساء.

يقول الجنرال غرسيا بالينو/ 26: لا بدّ من اتفاق مسبّق بين الإسبان والفرنسيين على كل جوانب التطور المغربي.

**28 غشت.**

نص مقابلة مع جورج بيدو/27. كلها مغالطات. يتكلّم عن الشعب المغربي، شعب وديع في زعمه. أبك على الرسوم والأوشام!

على أمّة صريعة الأوهام!

* * *

نهاية عهد. نهاية سياسة.

أبعد الملك الشرعي عن وطنه وأمته. بعد عشر سنوات من التردّد قرّرت فرنسا اللجوء إلى سياسة العنف، إلى دفن المشكل المغربي بنفي من يجسّده. سياسة جرّبتها في مناطق أخرى. ماذا حقّقت من نتائج؟ أكسبتها خمس أو عشر سنوات من الهدوء ثم انفجر المشكل من جديد وبكيفية أعنف.

هل تعكّرت نهائياً العلاقات الفرنسية المغربية؟ الجواب على هذا السؤال يستلزم الجواب على سؤال آخر: كيف تمكّنت فرنسا من أن تنتصر ولو موقّتاً؟

طبعاً السبب الأول هو استعمال المدفع والرشّاش، الدّبابات التي طوّقت القصر عدّة مرات آخرها بعد ظهر الخميس. ولكن فرنسا أرادت أن تضفي على تصرفها طلاء من الشرعية. فطلبت من المخزن أن يجتمع برئاسة عجوز أربى على المائة سنة/28 وأن يسجّل الهوّة التي أصبحت تباعد بين الملك والشعب. العالم أجمع يعرف أن المخزن شبح، أن القواد والبشوات آلات طيّعة في أيدي المراقبين، أن تجمهر القبائل تحت أسوار الرباط وفاس مهزلة بئيسة. ولكن هل من الحكمة أن نحمّل الفرنسيين وحدهم المسؤولية؟ دور المعمّرين محقّق، بتعنّتهم وخوفهم ودفاعهم الأعمى عن مصالحهم المادّية، ولكن ما القول في المغاربة الذين شاركوا من قريب أو بعيد في المهزلة؟ لم يكونوا مطّلعين على ما كان يجري في مراكش؟ دعوا آخر لحظة فذهبوا رغماً عنهم؟ هذه هي الطامّة. العذر أكبر من الزلّة. لم يفهموا أن تصرّفهم ينهي فصلاً من فصول تاريخ البلاد وأن المغرب لن يستطيع بعد ذلك أن يقول لا للتسلّط والاستغلال الفرنسيين. الجلاوي والكتاني وأصحابهما كانوا وراء هدف، مهما كان دنيئاً، أما القواد والأعيان الذين سيقوا كالأكباش ووقّعوا على بيعة السلطان الزائف بدعوة من المراقب فما القول في حقكم؟ أنهم حجّة على أنفسهم وعلينا. عندما كان الحزب يقول: الشعب معنا. ربما كان يعتقد ذلك ولكنه كان خاطئاً. قد يقال: الجمهور دائماً مع الغالب وانقلاب الجنرال الزاهدي/29 في إيران يوم 17 غشت يثبت ذلك. إلا أن الأوضاع مختلفة: جماهير طهران تتظاهر في الشوارع منذ سنتين. من المحتمل أن يلحقها السأم وقد يكون قسم منها متعلقاً فعلاً بنظام الشاه. أما جماهيرنا فهي تغطّ منذ أربعين سنة. أما سئمت النوم والاستكانة؟ رغم الدعوة الوطنية فهي لا تزال تفضّل النوم على اليقظة. تتبع كل من يضمن لها الاستقرار والهدوء وتعادي من يشوّش عليها راحتها. فرنسا هي المسؤولة على الجريمة، بسبب

ضيق أفق زعمائها، ولكن المغاربة شاركوا أيضاً في الجريمة بعمل أقلية متنكّرة لقوميتها وبامتناع الأغلبية الساحقة. لا بد من الاعتراف بأن الفرضية التي بنت عليها فرنسا سياستها قد تحقّقت: بقيت الأرياف خارج المعمعة، بقيت محايدة غريبة عن هموم الحواضر. الوطنية حركة حضرية، قالهـا الفرنسيـون وأثبتتها الأحـداث الأخيرة. سيحمّل البعض الحزب المسؤولية. أقول: لم يكن ممكناً أن يتحاشى الحزب الخطأ لأنه مبطّن في ثنايا تاريخنا، في فهمنا لتعاليم الدين. الغلط الخاص بالحزب وبه وحده أنه سار في تيار السياسة الفرنسية. منذ ليوطي والفرنسيون يعملون على أن يأتي المثل دائماً من الفوق. أراد الحزب أيضاً أن يستميل علية القوم، أن يعتمد عليهم لنشر أفكاره ولم يحسب أي حساب لتقلّباتهم، لعدم ثباتهم على مبدأ بسبب مصالحهم. من نافق النبي كيف لا ينافق زعيماً سياسياً؟ تدلّ مأساتنا الحالية على أنه إذا كان المثل يأتي من فوق فيما يتعلّق بالتطور والتثقيف فإنه ينبثق ضرورة من تحت فيما يتعلق بالمطالبة بالحقوق. علينا أن نقلب كلمة سيييس /30 الفكرة من فوق والقوة من تحت. وما القول في تأثير حزب الاستقلال على الملك؟ يدّعي الفرنسيون أن الوطنيين هم الذين أغروه وحادوا به عن جادّة التعاون الصادق مع الدولة الفخيمة. هل كان في حاجة إلى دعوة الحزب ليسلك الطريق الذي سلك؟ كان يكفيه أن يفتح عينيه على الواقع وأن يكون ذا وعي وحس وإيمان. صفّق الحزب لمواقفه، بارك أعماله وشاهدنا مشهداً نادراً حقاً: ملكاً يسبق مطالب شعبه. درس الأزمة أن ملك البلاد، في الظروف التاريخية الراهنة، كان عليه أن يسيّر شعبه لا أن يسبقه. والحزب أيضاً ارتكب خطأً موضوعياً ما كان في وسعه أن يتحاشاه. ظن أنه ينطق بلسان الشعب في حين أنه كان ينطق بلسان الأقلية المتقدمة (أكثر من اللازم) على الأغلبية. لم يعمّ الوعي كل عناصر الشعب في البوادي والقرى والمداشر. اتسعت الفجوة بين الحزب والشعب، أراد الحزب أن يجرّ إليه الشعب بعنف. فتمطّطت الأحبال ثم تقطّعت واندسّ عملاء العدو بين الجارّ والمجرور.

لا أقرّرهنا ما يدّعيه دعاة الفرنسيين عن تطرّف الحزب. أعتقد أنه كان معتدلاً بما فيه الكفاية. كانت المبادىء صالحة، الخطّة هي التي كانت فاسدة وهي التي تسبّبت في الأزمة، هي التي أعطت لفرنسا الفرصة لتفجير الأزمة. كان الواجب هو استدراج الشعب خطوة خطوة دون الاعتماد كلياً على رؤساء القوم. هل يعني أن هذه الخطة قد تنجح الآن؟ لا. الفرصة إذا ضاعت لا تعوّض. تفشل سياسة في وقت

ما، يظن المرء أن عكسها ينجح. فينتهج الخطة المضادّة فيخطىء. لأن ذلك العكس كان صالحاً قبل الفشل لا بعده. من بين زعمائنا يتدبّر ماكيافيلّي؟ كلهم يفكّرون في اليوم وباليوم!

قبل أيام كنت أعتقد أنه يجب النظر إلى مشكل المغرب من الداخل دون الالتفات إلى ما يجري في بلاد نجيب أو مصدّق.. الآن أعـود إلى فكرتي الأولى.. مع بعض التعديل. لم يعد لزعمائنا حظ هنا. نفد زادهم. عليهم بالذهاب إلى الخارج، عليهم بالشرق. أوافق الآن رأي أبي، في خطوطه العريضة. الحرب في صالحنا، مهما كان المتحاربون ومهما كان المنتصر. يجب في نفس الوقت الاعتماد على اليسار الفرنسي الذي يستطيع وحده أن يغيّر ما بنا، أن يزودنا بما يوقظنا من سباتنا العميق، من ذهولنا، مما رسب في أذهاننا من بهلوانيات عبد الحي وشركائه في الخطيئة..»

— 19 —

- أقوال تجرح العواطف!

- قد سمعتها من فم إدريس بحضور آخرين.

- نسمع أشياء ونتحمّلها في ظروف ثم نضيق بها في ظروف أخرى. رغم هذا لم أغير شيئاً.

- سوى بعض العبارات.

- نعم. استوحى إدريس عبارة من عنوان رواية ألان باطن ابك على البلد الحبيب/31، حول الأوضاع في أفريقيا الجنوبية، فأبدلها بعبارة: ابك على الأبطال والأوشام.. لا أظن أنني مسست الجوهر. قمت بعمل المؤرخ الأمين. لم أغير الترتيب الزمني رغم تشابه الموضوعات وتداخلها، ليدرك القارىء الجو العام في مدينة صغيرة، منكمشة على نفسها، ولكنها قريبة من العاصمة الاقتصادية، تقرأ الصحف وتسمع الإذاعة، تستقي من طنجة ولندن والقاهرة أخبار مصر وإيران، ما يحاك في قصور مراكش وما يقال في باريس، لكي يلمس القارىء كيف أثّر هذا الجو في عقلية إدريس وهو ينتظر رخصة السفر إلى فرنسا.

- من هو الطالب الشيوعي؟

- كان يسبقنا بسنة ويدرس الحقوق. كنا نراه في المطعم الجامعي. يدور

الحوار بيننا عادة على الشؤون الطلابية. لم أشعر وقتها بأي تقارب بينه وإدريس. وأمّا أنه كان يقابله في مناسبات أخرى وأما أنه ضخّم علاقته به فيما بعد. كان الشيوعيون آنذاك نشيطين في الأوساط الطلابية، ينتقدون الزعماء الوطنيين لأنهم كانوا يرفضون التعاون معهم لكي لا يبرّروا الدعاية الفرنسية. كانت الإقامة العامة تتهم الوطنيين بالتحالف مع الشيوعيين لقلب نظام الحكم في البلاد وتهدف من وراء ذلك إلى تخويف الملك والأمريكيين معاً. لكن ميل إدريس نحوالطالب المذكور يعود أساساً إلى باعث أخلاقي. وجد فيه تعلقاً بمثل أعلى لم يجده عند رفاقه المتشدّقين بالوطنية.

- هل انخرط في حزب؟

- لا أظن. يعني بالحزب الحركة الوطنية. لذلك احتفظ بحرية تفكير، وإلا لكان دافع عن سياسة الحزب من وجهة نظر الحزب. يحكم على الزعماء والطلبة وعلى تصرفات أبيه من نفس المنظور: انعدام مثل أعلى.

- حنين إلى بطولة نيتشه.

- حنين إلى بطولات التاريخ الذي حبّبه إليه لوزينكي. كثر في كلامه التمثل بأحداث التاريخ الحديث، الغربي والشرقي. وهذه الأمثلة التاريخية (الثورة الفرنسية، تاريخ انجلترا، الثورة الروسية، وقائع الصين -) هي التي تعتمد عليها عادة التحليلات الماركسية.. ماركسية مبسّطة، سياسية، لا ماركسية فلسفية.. تشيع مفاهيم العمل والانتماء والالتزام. يقرنها الناس عادة باسم سارتر ولكن عند سارتر نفسه فإنها ناتجة عن تلقيح ديكارت بنيتشه وماركس. تعبّر عن الشعور بضرورة تخطي حدود الذات لإدراك الغير والالتحام بالجماعة. غير أن الجماعة، في أوضاع المغرب، تمرّ بأزمة وكأنها فاقدة الوعي والروح. لم الانتماء وبم الالتزام؟ لذا كانت أحكام إدريس قاسية..

- بنت اللحظة. كتبت على الفور. يتصرّف كثير من مواطنينا اليوم وكأنهم كانوا يعلمون أن الملك سيرجع إلى المغرب بعد سنتين من المنفى. وهم وأي وهم! لا أحد اليوم يقول بصراحة أو يتذّكر بصدق ما دار بخلده عندما سمع بخبر نفي الملك!

- شاركت في الحوار؟

- بالطبع.

- هل سجّل بأمانة؟

ـ سجّل إدريس الجوهر. في السنوات الأولى كان نقاشنا يجري حول حروب علي ومعاوية والشخص الذي كان ينتصر لمعاوية هو الذي لم يتحمل الكلام على تأخر البلاد الإسلامية. انخرط فيما بعد في سلك القضاء.

ـ يظهر من كلام إدريس أن حوادث الصيف هي التي كانت سبب ابتعاده عن أبيه. لا يذكره حتى بالاسم..

ـ والغريب أن تحليله النهائي هو في العمق تحليل أبيه: كل مصائب المغرب راجعة إلى الفجوة بين إيمان المدينة وجهالة البادية. وحق لأب إدريس أن يقول أنه يعرف البادية وسكّانها. بعد أزمة الثلاثينات وكساد تجارته اشتغل كاتباً مع أحد شيوخ الأحواز فسمع ما سمع من الشكاوى حول التركة والقسمة والشفعة..

ـ تقول أن إدريس غالى وتطرّف..

ـ تطرّف الشباب قبل أن تطوّعهم الحياة..

* * *

# القسم الثاني

الفصل الرابع

# الوجدان

ثم سافر إلى باريس يوم العاشر من أكتوبر.

فاز بمنحة حكومية على شرط أن يهيء المباراة العامّة لولوج المدرسة الإدارية/32. ساعده على الفوز بها، علاوة على تفوقه في الامتحانات، انتماؤه لمدينة صغيرة هادئة. وبعد طول الانتظار وأحياناً اليأس، وصل جواز السفر. عندما تمّت كل الترتيبات لم يبق له سوى خمسة أيام ليؤكّد تسجيله في المعهد الذي يهيء للمباراة المذكورة. ضاق عليه الوقت ليحجز في الباخرة الرابطة بين البيضاء ومرسيليا ولا حتى لامتطاء القطار فاضطر إلى أن يركب الطائرة لأول مرّة في حياته.

سافر في رحلة ليلية إلى بوردو ومنها إلى باريس. وصل إلى مطار لو بورجي على الساعة الخامسة صباحاً في جوّ قاتم كئيب. امتطى حافلة اخترقت الضواحي الجنوبية. بدت له العمارات سوداء، الأشجار هزيلة النساء لون السمن المعتّق. كل الألبسة باهتة، لا تخرج عن القهوي الفاتح أو الحجري المقفل. كان يلبس معطفاً أزرق ضاوياً وحذاء ملمّعاً أحمر. أدرك في الحين أن لباسه لا يوافق أرضاً تعادي الألوان. توقّفت الحافلة وسط المدينة دون أن يدرك أين بالضبط. خرج من محطّة الخطوط الجوية وانتظر طويلاً، الناس أمامه يتسابقون نحو سيارات الأجرة. أخيراً، بعد أن فرغ الرصيف، تقدّم نحو سائق تاكسي وأعطاه عنوان دار المغرب في الحي الجامعي. درجت السيارة وهو لا يعلم اتّجاهها. اخترقت ساحة واسعة متمادية حول مسلّة عظيمة، تقابلت مع بناية تشبه معبداً يونانياً ثم لوت على اليسار مرتقية شارعاً عريضاً جداً تتوالى على جنبيه العمارات الضخمة المشيّدة بالأحجار المنحوتة الرمادية. بعد ذلك لوت على اليمين في شارع كبير آخر لم يدر إدريس آنذاك أنه مرّ

بالقسم النشيط من شارع سان جرمان وشارع سان ميشيل وأنه خرق الحي اللاّتيني وحاذى حديقة لوكسانبورغ في اتجاه باب أورليان قبل أن يميل به التاكسي نحو شارع جوردان حيث يوجد الحي الجامعي والذي يمثل جزءاً من النطاق الصغير المحيط بباريس والمقسم إلى أجزاء تحمل أسماء جنرالات نابوليون. لم يكن يدري آنذاك أنه سيتبع هذا الطريق كل يوم تسعة شهور في السنة مدّة ثلاث سنوات. لم يكتشف في البداية لا مونمارت ولا مونبرناس. سينحصر عالمه الباريسي في المساحة الفاصلة بين كنيسة سان جرمان، حمى السوربون وحدائق الحي الجامعي.

قال له المدير: نعم اسمك مسجّل عندنا لكن الغرف لم تجهّز بعد. عليك أن تقضي أياماً في أحد الفنادق. فغر إدريس فاه قائلاً: لكني لا أعرف أحداً في باريس وليس عندي ما أسدّد به الكراء. نظر المدير إليه، رأى غضاضة وجهه وسذاجة هيئته فأشفق عليه وردّ مبتسماً: طيب يا ولدي ابق معنا، سنجد لك مرقداً. هذا الرجل الرقيق العاطفة كان أحد أقطاب الشرطة الفرنسية في المغرب، لكن الله يرعى الأبرياء.

في نفس اليوم استقلّ الحافلة العمومية رقم 21 التي تنطلق من باب جانتيي وتقف أمام لوكسانبورغ على رأس المنحدر المؤدي إلى ساحة سان ميشيل ونهر السين قصد نزل مونتيني مأوى قسم من الطلبة المغاربة. سأل عن رفيق له من أيام ثانوية الرباط. وجده في غرفته برفقة فتاة فرنسية. تذاكر الثلاثة هنيهة ثم غادروا الغرفة. كان حذاء إدريس الأحمر الملمّع مقوّى في جانب الكعب بقطعة حديد. كلّما خطى خطوة تزعزع الدرج. لاحظت الفتاة مازحة: مصفح كالحصان! فعلم إدريس أن ذوق المغرب لا يوافق باريس. وبالفعل خلال السنوات الثلاث التالية اكتسب إدريس أفكاراً جديدة. من أجل هذا سافر إلى فرنسا. لكن التحول الحقيقي الذي طرأ على نفسانيته هو أنه اكتسب ذوقاً جديداً. إن إدريس الذي حجّ إلى مونمارت قبل أن يغادر باريس أواخر غشت 1956 غير إدريس الذي طرق دار المغرب صباح عاشر أكتوبر 1953. أعلم ذلك ورغم ما أعلم أتعجب من بعض ما أقرأ في أوراقه.

— 21 —

«غاب الفتى سنوات طويلة ثم عاد، بعد أن عرف المدن المكتظة، الجامعات العقيمة، الغرف الباردة، الملاجىء المظلمة، المطاعم البئيسة المنزوية. عاد في يديه كتب مغبّرة مخرومة وفي ذهنه مواقف مسرحية: فيدرا ترتعد، هيرميونا

تحتضر، كامليا تلعن، فيرثر ينتحر، مارغريتا تستعطف/33. . كانت هذه الأشباح ترافقه باستمرار، أما الأشياء والأشخاص المحيطة به فكان يراها من خلال ضباب.

عاد إلى الحصن العائلي في ظلمات جرمانيا ليعاشر أباً ينغمس كل يوم في أشغاله الإدارية ونـساء لا يفقهن قولاً. كان له أخ. وجده غائباً، في سفر مع زوجته الشابة. آوى الفتى إلى كتبه يملأ بها فراغ نفسه ويدفع بها هجمات الواقع المحدق به. رجع أخوه بمفرده فأحسّ بالخيبة. كلّما سئم المطالعة عكف على تفتيش غرف الحصن تفتيشاً دقيقاً. ويوماً عثر في مخبأ على خفّ غريب الحجم، لا هو صغير ليكون لطفلة ولا كبير ليكون لامرأة مستوية. تساءل: أيكون لزوجة أخيه؟ وضعه فوق مكتبه وتأمّله طويلاً ثم عاد إليه المرّة بعد الأخرى.

صحت السماء ودفأ الجو. فتح النافذة، اتكأ على الحافة والخفّ في يده. رفع بصره فلمح في الأفق شيئاً يتحرّك. اتبعه بصره حتى اختفى. أتكون امرأة هجرت خليلها ثم ندمت؟ قالت لنفسها: أن ينتحر من أجلي ألطخ وجهي، أغبر شعري، ألبس المرقعة وأسح من بلد إلى بلد! وها هي تسابق الريح والقدر. هيهات هيهات أن تصل! سرح ذهن الفتى، ارتخت أصابعه فلم يستعد وعيه إلا عن وقع الخف على الأرض. انطلق من الغرفة يجري. استردّه، وضعه في محلّه المعتاد وانغمس من جديد في مؤلفات كانط.

توالت الأيام. كلما فتح النافذة رأى أثر الخف، لا الرياح تمحيه ولا الثلوج تدفنه. رآه أولاً منتظماً في سرب من الآثار المتماثلة ثم مميزاً يشير إليه، بل يأمره، أن انزل. غادر مرقبه وقفّى الآثار، الواحد بعد الآخر، حتى وصل إلى الجانب الأيسر من الحصن فلمح طيفاً أبيض ناصعاً يلوي على اليمين كمن قام بهمّته وذهب يستريح. مرت الأيام والمنظر لا يتغير حتى يئس الفتى وعزم على ملازمة غرفته. ثم تحقّقت الأمنية. توقّف الطيف تحت النافذة، رفع رأسه كشف عن وجهه الناصع وهمّ بالكلام ثم أطرق متردداً وانطلق نحو الزاوية اليمنى. في اليوم التالي مرّ مهرولاً وسمع الفتى صوتاً يصيح: ألحقني. فأجاب بقوة: إليك مارغيتا! وقفز من الغرفة متخطياً الدرج.

بحث عنه الخدم فوجدوه فاقد الوعي مجمّد الأطراف. عالجه الأطبّاء فاستعاد صحته لكنه فقد القدرة على النوم. يقضي الليل كله يناجي النجوم ويتجوّل

في أروقة الحصن. ثم سمع بعودة امرأة أخيه فنزل ليحيّيها. كشفت عن وجهها فتغيّر لونه وانعقد لسانه. انحاز إلى غرفته ولم يفارقها إلا ليغادر الحصن دون أن يودع أحداً.

ساح بين المدن والأوطان والناس من حوله يتساءلون: أي سر وراء هذا الوجه الأليم؟ تعاطى صناعات شتّى. لم يجد في أية منها راحة الضمير حتى ركب البحر فهدهد موجه المتجدّد أحلامه اللامتناهية/ 34. مازحه زملاؤه: يداك بيضاوان ناصعتان وأيدينا سمراء خشنة. فكان يجيب مقطّباً: انّه البرص!. ثم أغواه الموج فدفن سرّه في أعماقه.

في متحف الحصن المظلم تسأل الزائرة.:

ـ هذا الشاب الحزين من يكون؟

ـ عم سيّد الحصن. مرض فغادر الوطن. قيل انه توفي في مصحّة جنوب إيطاليا.

ـ ما أتعس الحياة!.

— 22 —

كان جلّ الطلبة في دار المغرب، المسجّلين في الآداب والحقوق بخاصة، لا يتقيّدون بحضور الدروس. يستيقظون متأخّرين بعد قضاء أمسياتهم في لعب الكارتة. ينزلون لتناول الإفطار في ملابس النوم أو الرياضة، يطيلون الجلوس إلى أواسط الصبيحة ثم يقرر كثير منهم عدم مغادرة الحي الجامعي. يتّفقون على من يذهب يتقضّى عند البقال ومن يقوم بتحضير الغداء ثم يوصلون نهارهم بليلهم في المحادثة ولعب الكارتة. هذه الجماعة المعروفة بخمولها وحدّة لسانها وعجزها عن الانسجام مع الجو الثقافي الفرنسي، هي التي ستملأ دواوين الوزراء في السنين الأولى من الاستقلال. الغريب أن إدريس تلا هذه القطعة على أعضاء تلك الجماعة بالذات. لماذا؟ أظن أن القطعة كانت بالنسبة إليه بمثابة تجربة، رؤ يا واعية سجّلها مباشرة بدون تردّد ولا مراجعة. أراد أن يعرف وقعها على الآخرين. سمعتها الجماعة بكثير من الحذر وعندما انتهى إدريس من التلاوة عمّ الصمت. سأل إدريس بعضهم عن رأيه فنطق بكلام مبهم. لم يفهم أحد مغزاها ولا هدف إدريس من تدوينها ومن تلاوتها عليهم. بعد هذه التجربة بقليل قرّر إدريس أن يغادر دار المغرب بعد أن قضى سنة فيها. . الآن وبعد السنين الطويلة أرى أن قيمة القطعة ذاتية محض، متمّمة لما

في قطعة النزهة/35. لا يخامرني شك أن مارغيتا هي مرجانة وأن فتاة كانت تسكن الدار التي عاش فيها إدريس والتي زرناها مراراً دون أن نسمع شيئاً عن الفتاة الساكنة فيها.

ـ اعتراف إذن؟

ـ غير مباشر وربما غير واع. العلاقة بالواقع المغربي موجودة ولكنها خفية. انظر إلى مسألة الخف. قال لي إدريس ان أباه كان يعتقد أن جاذبية المرأة في جمال يديها ورجليها ثم علّق: وهذا طبيعي، ماذا تبدي النساء أثناء زيارتهن للأضرحة سوى الأيدي والأرجل؟ تروي القطعة قصة فشل وإخفاق. لم يجن الفتى من سنوات الدراسة سوى الانفصال عن الواقع والانغماس في حلم متواصل قاده مباشرة إلى الفناء. تخيّل الفتاة قبل أن يراها. هل شابهت بالفعل ما تصوّره أم تشكّلت في عينه ورغماً عنه حسب حلمه؟ تجسّدت فيها صورة الحلم فخشي العواقب وهرب كما لو كان ارتكب جريمة. الحلم إذن قاتل وبلا سبب ملموس. ومولّد الحلم هو العلم العقيم المكتسب في الجامعات.

ـ تبدو القطعة تمريناً.

ـ ومع ذلك تعبّر عن عاطفة رافقت إدريس سنين طويلة. الاسم نفسه مزيج من الأجنبي والمحلّي. لكن وراء العبارة النمط. الجملة الأولى لها نكهة فلوبيرتية/36، مع إني متيقن أنه لم يكن قرأ التربية الوجدانية. طبعاً ليس ضرورياً أن يقرأها ليتأثّر ببعض خصائصها. كمن يسمع في زقاق خلفي جملة موسيقية يردّدها دون أن يعلم أنها مأخوذة من سينفونية مشهورة. رواية فلوبير مقررة باستمرار في شهادة الآداب الفرنسية. وكان لنا زميل يهيء الشهادة تلك السنة. يحتمل أن يكون إدريس قد تحاور معه في شأنها.

ـ نسير ونسير ثم نعود إلى مسألة التهذيب.

ـ والمسألة هي بالضبط موضوع فلوبير. قرّره ثم شخّصه. لم نكن نعلم ذلك في الأيام التي نتكلم عنها. لم أدرك مغزى الرواية إلا بعد سنوات عندما أتيحت لي الفرصة، خارج المغرب وخارج فرنسا، أن أقرأ فلوبير بإمعان.

ـ ربّما كان أكثر اطلاعاً مما تظن!

ـ أجد في القطعة دليلاً على العكس. اسم كانط الذي ذكره لا يتجانس مع جو القطعة الرومنسي المتأخر، هناك أسماء أكثر ملاءمة، لم يذكرها لأنه كان يجهلها.

أرجّح أنه لم يفهم مغزى كتابات فلوبير، بل أذهب أبعد من ذلك وأقول: لولا ذلك الجهل لما كتب القطعة أصلاً وهذا مما يدلّ على صدق شعوره. قد نعتبرها تمريناً بعث به إدريس إلى مراسل فنفهم سبب كثرة الإيماءات، إلا أنها صادقة لأنها بريئة، لأنها تنبىء عن مؤثرات غير واعية. التربية الوجدانية حكاية رغبة لم تتحقّق، سيرة ذاتية مكتوبة بأسلوب نقدي استهزائي. أقصوصة إدريس أيضاً حكاية إخفاق شامل ونهائي.. الحياة كلها خيال في خيال، عقم في عقم، التربية تدريب على تعقّب الأطياف التي تستدرج الخلق بوساطة الهوى إلى عالم الفناء. هكذا يحكم إدريس على التربية التي تلقّاها.. بمضمونها ووعائها.

ـ رفاقه الذين لم يدركوا مغزى القطعة تلقّوا نفس التربية..

ـ إلى حدّ. تعلّموا اللغة وأهملوا المضمون. نتكلّم بالطبع عن اللغة الأدبية. الفرق بينه وبينهم، هذا الفرق الذي أرغمه على مغادرة جوارهم، هو ما أدّى به إلى محاكمة التربية الأدبية، التي تقبّلها هو بشغف واستوعبها لغة ومضموناً، ربما لأسباب ذاتية لم تتّضح لديه هو نفسه. وقع هذا في الوقت الذي بدأ فيه يتحرّر من نيتشه ويكتشف الانتماء إلى الجماعة. في القطعة إفراط وعدم توازن، ألا يدلّ العيب على هاجس نقدي هجائي؟

ـ التأثير قضية مبهمة.

ـ وتزيد إبهاماً مع الفحص. لا أحد فينا يتعلّم اللغة، أية لغة، كلمة كلمة، لا يتخيّر المفردات واحدة واحدة. لو كان الأمر كذلك لأبدع كل منّا لغة خاصة به. قد يحصل شيء من هذا في بداية تعلّمنا اللغات الأجنبية. في الواقع ننطق دائماً بجمل محفوظة.. نبني بقطع جاهزة، وكل قطعة تحتفظ بشيء من المخطّط الذي جهّزت له وتوظّف لمخطّط قد يكون مخالفاً للأول. الأسلوب، الشكل بعامّة، دائماً جسر مهزوز بين مضمونين أحدهما موروث معروف والآخر مجهول في أكثره. الأول واضح يتعرّف القارىء الناقد عليه بسهولة فيقول: هذا أثر الكتاب الفلاني أو المذهب الفلاني. أما الثاني وهو مبهم حتى في ذهن كاتبه فلا يلتفت إليه ويجهد في تبيانه إلا من له رغبة ملحّة في استكشاف تعبير جديد عن التجارب التي عاشها. نحن نعرف قسماً على الأقل من الواقع الذي أحاط بإدريس فنريد أن نستخلصه من خلال ما ألّف صديقنا بالقطع الجاهزة. نصمّ آذاننا عن لغو هذه ونركز انتباهنا لنلتقط اللحن الخفي المساير لها. لولا رغبتنا الملحّة في السماع لصوت إدريس لحكمنا عليه بأنه مجرّد

صدى، لقلنا: هذه تمارين على قواليب غريبة.

ـ ويبقى السؤال: لماذا إدريس؟

ـ طرح إدريس السؤال بل لم يطرح سؤالاً منذ أن حان وقت اختيار مهنة وتعارضت أهدافه مع أهداف ورغبات الأسرة. لا أظنه وصل إلى نتيجة.

— 23 —

«أفكر في أمبيل/37 الوحيد المتوحّد وأنا أفترس قلبي. عائد من السينما. أمرّ بقاعة الاجتماعات، مضاءة، صاخبة، مملوءة بالطلبة المحتفلين بعيد الميلاد! لم أشاركهم فرحتهم. التجأت إلى قاعة مظلمة تابعت فيها أدوار قصة مبتذلة دغدغت عواطفي وأطفأت شهوات نفسي. أتظاهر باحتقار زملائي لأنهم يلهثون وراء الأنثى، لكن عندما أجد نفسي وحيداً مهجوراً في قاعة مكتظّة بالأزواج أكاد أتقيّض غمّاً. أقول انها نوبة ضعف، سأتجاوزها. أقول انه سيناريو أمثّله باستمرار لنفسي.

إذا صح العزم لماذا الحزن؟ أعوّض تناقضاً بآخر، أعيش في حرب دائمة، في ظل كآبة لا نهاية لها. وأثناء الليل أحلم. بمن؟ لو كنت بلا رغبة بلا شهوة!. السنة الماضية كنا نلجأ إلى حومة النساء، سوق النساء. أقضي ساعات منتظماً في تيار الشهوة الحيوانية وقلبي مليء بالمرارة. الواحدة عجوز أو كالعجوز، سجينة بلا أمل، تتظاهر بالرضى بما قدر لها بين العمل والراحة. ترتبط بشابة تخدمها وتعيش من كدّها كما عاش غيرها من كدّها هي. الأخرى دميمة تكاد أن تكون مشوّهة ولا تعبأ. تعلم أنها في دنيا الخفافيش حيث لا وعي بالجمال الفطري. هذه شابّة لها أتباع وأتراب كالأميرة أو العروس. تضحك من الحياة التي سخرت بها. تتلذّذ بدلالها وتكسبها فرحتها أتباعاً جدداً. تلك حزينة طلّقت الأمل. تقف على عتبة الدار لافّة صدرها بذراعيها كأنها تلميذة. تطلع الدرج متأنية غير مكترثة بمن يتبعها. لا تمزح لا تبتسم. في ضوء مشطّط بدخّان السجائر تجلس مطرقة مسدلة الأجفان. لا تتعلق بأحد، تقوم بعملها كما لو كان مهنة عادية. تختلي في غرفتها مدّة معلومة لا تتجاوزها. تبعد البعض بترفعها وتستهوي البعض بهدوئها وبطء حركتها. جسمها يعمل وذهنها سارح في غير وهم ولا حلم. أتتذكّر حين كانت طفلة تلعب في بيت والدها؟ لا أصف نساء الحي بل إحداهن فقط، أكثرهن جاذبية، تلاحقني في كل أحلامي. أكانت تعطي لعلاقتنا وزناً خاصّاً؟ هل كانت تعي ما تفعل وما تقول؟ أكان حزنها تعباً أم يأساً؟ مرّة زوجة ومرّة قينة، متعدّدة الأشكال متغيّرة المفاتن. أتذكّرها. . أفرح بصورتها المرتسمة

في ذهني وربّما في جسمي! (24 .12 .1954).

* * *

يقول: لا تعرف الحياة. ماذا يعني؟ الإدمان على الخمر، اعتياد الملاهي، اصطياد النساء؟ له الحق أن يختار هذا السبيل، هل من حقه أن ينتقد أو يحتقر من يختار طريقاً آخر؟ كنت أظنّ أن عهد الغيرة يولّي مع الشباب. في الحقيقة يبقى كامناً حتى عندما يظهر المرء رجلاً سوياً. لم يقل لي أحد من الجماعة: أنت ساذج، ولكن هكذا أبدو لهم بدون شك. أتكلّم عن الضمير، عن الواجب، عن الاستقامة، لا أتحمّل الخبث والاحتيال. قناعتهم التفوّق في الدراسة دليل على السذاجة.

النفس البشرية ضعيفة. أعاتب نفسي: ماذا يعنيك من حكم الجماعة؟ ما تأثيره على الواقع؟ هل يغيّر منه شيئاً؟ أليس هناك حكم يفصل بين المتغايرين؟ ماذا يفعلون هنا إذا لم يكن هدفهم الدراسة؟ أما كانوا يجدون في المغرب ملاهي ونساء؟».

— 24 —

ـ تعلم أن ابن حزم رمي بالسفه.

ـ وكذلك فلوبير.

ـ قالوا انه يحيد عن المسطرة المعلومة. يطرح أسئلة لا يجب طرحها. يتعلّق بحجج اتفق السلف على نبذها. يحلّ شبهات بالعودة إلى بديهيات أجمع السابقون على التغاضي عنها. من يفعل كل هذا لا زال في عهد الصبا حتى ولو جمع من المعلومات ما لم يتيسّر لأحد قبله.

ـ الحقّ لا ينكشف إلا بالمثابرة والعناد وفي العناد شيء من الغباوة. اجتمع في دار المغرب عدد من الطلبة المغاربة الذين قضوا سنوات في باريس دون أن يحرزوا على أية نتيجة. كانوا لا يبرحون الحي الجامعي.. من الغرفة إلى المطعم ومنه إلى المقهى ثم إلى قاعة الاجتماع. يلعبون الكارتة، يشربون البيرة، يتذاكرون في أخبار المغرب، الحقيقية والملفّقة. تأذّى إدريس من جوارهم حتى أنه فضل بعد سنة أن ينتقل إلى دار اليابان حيث لم يكن يعرف أحداً، حيث كان يسمع حسّ الريشة إذا لمست الأرض.

ـ لو قرأ أحدهم هذا الكتاب لقال: السذاجة عدم الانسجام مع الحياة.

ـ ولتجرّأ على الحق. هل كان مطلعاً على الغيب؟ عندما كان الجميع في دار المغرب كانوا هم، لا إدريس، العاجزين عن التكيّف مع محيطهم. جعلوا من دار المغرب داراً مغربية!.

— 25 —

«نجهد دائـماً أنفسنا لتنظيم أفكارنا. نطّلع على فكرة جديدة، نشكّ في أخرى قديمة فنشعر بضرورة التحوّل من مستقرّ فكري إلى آخر. وإذا لم ننجح، إذا بقيت أفكارنا مشتّتة أحسسنا بالسأم ثم بالقلق..

عهد الصبا عهد التطوّر السريع. كم من مرّة في ظرف ثلاث سنوات، قمت بحركة ترويضية تحويرية عجيبة أحافظ بها على التوازن في الفكر والشعور وكل مرة تزداد العملية صعوبة وتعقيداً.

الذات في انهيار متجدّد. كل يوم ينهدّ قسم منها كبنيان عتيق يمرّ تحته خطّ حديدي أو يتسرّب إلى أسفله سيل من الماء. فأتشبث بكل قواي بما يمكن أن ينقذ الوطن الأمّة. ماذا يعنيني أن يكون الوطن مكوّناً أو في طريق التكوين؟/38 إني محتاج إلى عقيدة، إلى الإيمان بأني جزء من كلّ له مستقبل. الوطنية لهيب يحرق ما في الفؤاد من ميل وتعلّق، من ندم وأسى. أقرأ على الطريق لافتات كتب عليها: لست شيئاً. أعود إلى الذات فأجدها فارغة: اما البلادة أي الانتحار الفكري واما حشو الذهن بفكرة سميكة صمّة لا يقطعها قاطع ولا يذيبها نقد أو ريب. إذا لم أحس في جسمي بحرارة السياط الذي يجلد به عامل خريبقة، إذا لم أشعر بالإهانة التي شعر بها ملك البلاد وهو يستمع لتهديدات غييوم/39، إذا لم أحس أني المعني شخصياً بما يقال في المجلس الفرنسي وهو يناقش حالة المغرب، إذن أمسخ إلى حيوان أبكم. اما الوطنية المطلقة العمياء واما اليأس والقلق. لا أسمع، لا أفهم، ما يقال عن الواقعية وحرمة الإنسان، عن الممكن واللاممكن. لا خيار، الوجود قبل الصفة، أن أكون أو لا أكون، لا أن أكون على هذه الصفة أو تلك..

* * *

## رسائل إلى مجهولة

* * *

أكلمك عن «الطلعة» من القصر الملكي إلى باب أورليان. أشكّ أن تكوني قد انتبهت إليها. أما أنا فكلّما مررت بجزء منها أتذكر تلك الليلة الدافئة من بداية

الربيع، عندما كنت تمشين بجانبي صامتة غائبة. لم أرض بصمتك كما لم أحبّ الفستان الأحمر الذي ارتديته بالمناسبة. لكني كنت أشعر أنك لم تكوني أبداً أقرب إلى قلبي من تلك الليلة. شاهدنا مسرحية بور روايال /40، خرجنا من المسرح، قصدنا قوس الكاروسيل وبدأنا «طلعتنا» دون أن نعقّب على المسرحية. لم تكوني ميّالة إلى النقاش. فنثرنا في الهواء ملاحظات عادية اختزلنا بها المسافة. لم أحلّل لك أسباب خيبتي. أخذ الكاتب موضوعاً رفيعاً فعالجه بخبث، أدخل الحيلة والمخاتلة في قصّة لا تحتمل إلا التحليق في سماء البطولة، بغضاً للنساء واحتقاراً لزمانه وشعبه. كنت أخاف أن تخطئي فهم كلامي. كنت متحفظة وأنا محترز.

كنت أحمق أحلم بحبّ ملوكي. أكتب كلمتي هذه لأني أعلم أنك لن تقرئيها أبداً. ما الفائدة أن تسمعي عن شعور غريب عنك؟ أتساءل: لماذا أنظر إلى الماضي الذي يحمل جراثيم الموت؟

أكتب لأني رأيت البارحة بسمة فتاة. رافقتها، صبرت على زقزقتها فأدركت أني أتماثل للشفاء. أقول لنفسي ما لم أقدم على الإفصاح به لك في الوقت المناسب.

***

تتطلع إلى الغير كما لو كنت في حاجة إلى الاطمئنان على وجودك. إذا عدمته أو فقدته شعرت بنزيف داخلي. قبل التجربة فارس مدجّج، بعد الهزيمة راجل أعزل، في جنبك جرح يتسرّب منه روحك. تتعثّر، تتثاقل، تتأرجح وتجذب جذباً إلى الهوّة فاقد الوعي مسحوق الكبرياء.

تجربة الحياة.. هل يضمد الغير الجرح؟ هل يملأ الفراغ؟ يطبّب، يعالج ولكن إلى حين. تغلب الحياة من جديد ويتّسع الجرح. لا اكتفاء للذات ولا دوام للقران.. تجربة مرّة متجدّدة.

ذهبتْ

لا حبّ. لا رغبة في الحين. كانت صبية تتسلّى بالعواطف.. تقول أنها تكتب الشعر ولا تنشده أبداً. كنت أعلم أن ما بيننا علاقة تصنّع وتمثيل، وأنها سابقة لأوانها. ومع ذلك أشعر الآن أنها أخلفت وخانت. أجعل من التباعد فراقاً ومن الصدفة حكم القدر. ذهبت إذ لم يكن يربطني بها شيء ومع ذلك أشعر بالهزيمة كما

لو عرضت نفسي في سوق البائع فيها كثير والشاري قليل. الحب الإرادي، أحمله في نفسي وأعلّقه على أية فتاة تقطع سبيلي.. شعاع من الذات يلوّن الأشياء.. المسرح في الشارع..

* * *

مرة أخرى استيقظ فيهاجمني القنوط وأتمنّى أن أتخفّف من النفس والجسم والذكرى. ليس الشرّ وضعيّة سيّئة بل هو تناقض بين الوجدان وتصرفات مفروضة. أحلم بحياة لا طموح فيها. من يدّعي أن التصوف صعب؟ إذا كان يعني الرضوخ لحوادث الزمن، نبذ الكبرياء وقبول الإهانة، لا شيء في كل هذا يفوق قدرة الإنسان العادي إذ يميل تلقائياً إلى الخنوع والاستسلام.

الصعب هو معاكسة الطبع ومعاندة القدر، هذا هو ما يتطلّب رياضة طويلة شاقّة. جوني /41 حقير لأنه يرضى بقدره. تؤلمه التجربة فكرياً ولكنه يستغلها ليخجل الإنسانية جمعاء.

يقال الحرية المطلقة مطابقة الذات لذاتها. الحجر الصمّ إذن حرّ. ليس هذا النوع من الحرية الجوفاء هو ما يعني الإنسان بل النهوض ضدّ الذات، تكسير مجرى القدر. الإنسان إنسان إذا ثار وتوثّر.. وإلّا خان..

وشدّ ما يخون!.

* * *

رأيت في المترو فتاة تشبهها. ألصق بلا شك صورتها على أوجه سائر النساء. انظر إلى الفتاة جانباً فأرى الأنف الرقيق والشفة السفلى الممتلئة والذقن المتقدمة، رمز الصرامة والعناد. لو كانت وديعة سهلة الانقياد، لتيسّرت الأمور، لكن هل كنت أحببتها؟ وهل أحببتها بالفعل؟ تألّمت أن تكون هي التي بادرت بالقول: تعبت منك أغرب عني.. حتى هذه الجملة لم تقلها. قالت ببساطة: القدر فرّق بيننا، لا تحزن، أياماً وستنسى. طبعاً سأنسى لكن الآن أرى وجهك في كل فتاة. الآن وبعد أن انتهى كل شيء أراود نفسي وأحدثها عن الأخت الصغيرة. أتخيّلني أتودّد لها، أغازلها، ليحزّ قلبك.

أتذكر موريزيوس/42.. الرجل الذي.. أحلام لا تنتهي..

* * *

الكاتب عاجز إذا لم يكن له مراسل ناقد!

لو كان لي مراسل لكتبت له اليوم: ضاع من لم يذق مرارة القنوط. أول الواجبات تطهير الأرض من أمثال دون كيخوته. لا أحد يحبّ أن يقوم بهذا الواجب ومع ذلك لا بد أن يتطوّع أحد يوماً من الأيام. هل القنوط شعور متداول بين الناس كما يشاع؟ إنه قناع لا ينبع من حرية الفرد بل من فشل موقّت يترك في النفس لمسة غيظ. ولكن خلف التبرّم، خلف ما يدعى قنوطاً، ماذا؟

أحلم بعملية استيئاس شاملة. أيأس الدنيا بكاملها ثم توسّل: لا تيئسوا عمّال بيانكور! ./43 العملية دليل حب وعطف رغم المظاهر التي يتعلّق بها الناس. ألا ننخدع عندما نظنّ أننا نسير نحو هدف مرسوم؟ إذن لا تكسب حياتنا شكلاً وأسلوباً، متانة ورشاقة، إلا إذا عدنا لا ننتظر شيئاً من الدنيا.

يائس قانط. . لا أجد في الفكر أي سبب يدعو إلى السكينة والاطمئنان. الذات موزّعة بين مطالب متنافية. . السياسة لعبة، الحب تصابٍ، الكتابة مغامرة، التصوف جبن، الكسب كره. . الفكر معاند، الاختيار ممتنع والحرية احتمال مصائر متعدّدة. .

***

أرغميني وسأختار عن ضعف وتراخ. . ثم احذري سورة الغضب. يجب أن يكون الحب بيننا صراعاً بلا هدنة. عليك أن تكوني، دائمة التلوّن وبانعكاس كل منا في مرآة الآخر نبدع مسرحاً سحرياً، عالماً مصغّراً ترسب فيه الهزائم وتتجذّر الحرية.

***

الهزيمة! أقف عندها تائهاً متحسراً أم أنتعش بها وأستغلها لسبر الذات؟ اختناق وانهيار أم تحايل وانتعاش؟

تقول الندامة. . الندامة على ما فات . أجيب: حذار. . حذار من القدر.

إن اقترن اسم باريس بالفشل بأي اسم يقترن الفوز؟

لن أنسى ليالي باريس، أضواء المصابيح، أشباح المارّة المتباطئين. . لن أنسى الدموع والغضب المكتوم في غرف قارسة. مدينة النور. . مدينة التعاسة. . فيها عاديت نفسي. جئتها سيّد الأسياد فحوّلتني إلى متصوّف بلا ضمير ولا ارادة. هل ينفع

الحزن.. يزهر ويغلّ؟ أم يشمل الإخفاق كل شيء.. التعامل مع الغير ومع القرطاس؟ وتبقى السياسة.. السياسة، النجاح فيها محتمل لكنه ينسي الذات ويجرّ إلى العجرفة. مع التفاؤل ينعدم الصدق في القول والفعل..

لفّ، لفّ يا ذهن! انحكّ وانخر. تقول: لو كنت امرأة.. لو كنت صبياً! ماذا تعلم عن أشجان النساء وأهوال الصبيان؟ افهم إن استطعت العبارة التالية: حلم صبي كلمة شفّافة. كم تحمل من إشارات!

* * *

عثرت عليها البارحة في الموضع الذي لقيتها فيه أول مرة. جرى بيننا حديث خفيف ظريف. سألتها عن حالها وعن المدرسة، رويت لها حوادث تافهة ثم ودّعتها كعجوز لا يصبر على ثرثرة عجوز آخر. هلا صرّحت لها اني أحببتها ولم أشعر بعمق حبّي إلا بعد أن فات الأوان!

هل بادرتني بالمداعبة أم تحمّلتها عن مضض؟ فارقتها مزهواً كمن خرج منتصراً من معركة حاسمة. قلت لنفسي: حان الوقت أن تعترف، هل تحبها هي أم تحب تصوّرك لها؟ إن كنت تحب نفسك من خلالها أي امرىء أنت؟ ألا تستطيع أن تحبّ أو تكره مثل الآخرين؟ لعبة تعيسة مرهقة.. أريد أن أرى نفسي، أن أعبّر عنها، فأختلق أفكاراً اعتباطية وأحتبس فيها.. إن كانت شؤوني متعلّقة فعلاً بهذه الفتاة فلأعترف بذلك، إن كانت متعلّقة بي أنا وحدي فلأتصرف على ضوء هذا الوضع. أجعل الآن من حياتي جميماً، ألا أستطيع أن أكيّفها حتى تعود محتملة؟ ألا يمكن التوفيق بين الكيان والوجدان؟

وبغتة يطلّ شبح السياسة. هي أصل التعقيد، مع الكبرياء. هنا أحلم بحياة غربة وصمود، هناك تنتظرني حياة غبطة وهناء. يهيّئون الخوان من أجلي ويستعدون لأخذ مقاعدهم حوله. لا يتوقّعون لا يتصوّرون الرفض. سيصدمون سيصرخون: أحمق أبله! لا أحد فيهم يفهم أن لا حياة بدون قلق. أتصور الإشكال حتى لو لم يوجد، أفترض الإخفاق حتى لو لم يظهر، لكي لا أمسخ إلى حيوان يرعى ويجترّ ثم ينام.

الطريق مرسوم إذن، طريق التقشف والتجرّد. هل النتيجة مضمونة؟ قد

تنتهي الطريق إلى باب مسدود؟ وحتى في هذه الحال سيكون الفشل فشلي والتجربة تجربتي.

مداعبة بثيسة..

يجري الماء ويترقرق، أطيل النظر فيه ولا أحس بأية لذة. يا للخسارة!

* * *

عبثاً تواسي نفسك. الإخفاق إخفاق حتى لو قابله النجاح في ميدان آخر. يتساهل تشابلين/44 ويتملّق.. قد تتوالى في حياة شخص إخفاقات وانتصارات، لكن هذه لا تخلف تلك إلا بالإرادة والتوهم. يبكي تشابلين ثم يبتسم، ينتحب ثم يفرح، فينشر النفاق والضعف بين الناس أكثر مما يعلّم الصبر والحلم. يقال: كل محبوب جميل.. في الذهن لا في العين وعبثاً يتعامى الإنسان.

لا تجربة، لا ثقافة، بدون صدمة الممتنع. أما التجربة الإيجابية فإنها بنت الاندفاع الأعمى. الحياة يأس، حقيقة ساطعة نتحالف على نفيها. كلنا مثل بطلة تنيسّي وليمز/45، نودّ أن نعيش في الظلمة. لا ينفكّ الضمير يسرّ في آذاننا وبدون تودّد: لا شيء كائن. فنجيبه مثل بلانش: لا تنظر إلى الحال، انظر إلى المحال. المحال حاضر في الوهم وكل موهوم لا بدّ كائن في زمن الدوام. غرفتنا مزينة بمختلف الألوان، بمفعول الحب أو العقيدة أو الحماس الحزبي أو البذخ. للاستيلاب أنواع وأشكال هدفها واحد: كسر مرآة الواقع. ألا نستطيع أن نضيء الغرفة ونمحو الأوهام؟ نعم لو كنّا نزاوج بين الخفّة والمتانة.

* * *

ماذا حصل أمس؟ غشينا الصمت فجأة كضباب العشي قرب الشاطيء ثم استقر فعجزنا عن التخلّص منه. أخطأ من قال باستحالة إنسان غير ناطق. تسكت لسبب عارض ثم تكتشف أن لا لزوم لاستئناف الحوار.

تقول: لا أحد مسؤول سوى الظروف.. اعترف أنك كنت تتحاشى أنظار الغير. كنت تتمنّى أن يفهم الحضور أن الغرابة منها ومنها وحدها. وفي نفس الوقت كنت لا تريد جرح عواطفها. من هنا جاء الضعف والتهاون.

تقول: لا أفهم شخصية دون جوان. تقول: إذا لم يكن دون جوان نمطاً

بشرياً فالحب إذن خاصية فردية، طبع من الطباع. هذا عاشق وهذا مقدام وذاك جبان. الحبّ مجاجة يقطّرها الجسم. . تصوّر يستهويك أن يكون منبع الحبّ في الذات. ثم تتذكّر تأثير الأدب وأن من قرأ أدولف/46 يحوّل أدنى رعشة إلى بادرة عشق وهيام فتحجم عن كل استنتاج. الرواية الغرامية نقشت في الأذهان مثل العاشق المتشائم القلق، فألغت كلمة طبع من قاموس الحياة».

— 26 —

ـ أتعجّب إذ ألاحظ الفرق بين كاتب هذه السطور وإدريس الذي كنا نقابله يومياً في الاجتماعات الطلّابية، خاصة أثناء سنة 1956. ثم أدقّق فأرى بعض الأسباب لهذه الازدواجية.

ـ أسباب الزمن والمكان.

ـ نعم المكان باريس والزمن منتصف القرن العشرين. ولا تنس ثالث الأثافي: الأصل. ماذا يكتشف يا ترى شاب مغربي ذو ثقافة عربية إسلامية؟

ـ غير واضحة فيما كتب.

ـ أتكلّم عن التربية التي تلقّاها إدريس في حظيرة عائلة مكونة من أب وجدّة وأخوة، تربية لا تلعب فيها المرأة أي دور بعد السنة السابعة أو الثامنة. ماذا عساه أن يكتشف سوى الحب؟

ـ أو لم يعرفه من قبل؟ أو لم يقرأ عليه الكثير؟ أو لم يحلم بقريبته الرشيقة البيضاء؟ هل نسيت أننا اخترعنا الحبّ العذري؟ نقول أنه غزا الحجاز ثم انتقل إلى العراق ومنه إلى الأندلس ومن هناك تسرّب إلى جنوب فرنسا وإيطاليا ثم إلى سائر أوروبا.

ـ أقول ومن باب المؤانسة فقط، اننا أحياناً نجد متاعنا عند غيرنا. أقصد أننا أحياناً نغفل عنه ويحافظ عليه غيرنا. نعود إلى النقطة التي تهمّنا والتي تتلخّص في الجو الذي عاش فيه إدريس وهو دون العشرين. ثم سافر إلى باريس فاكتشف أمرين: الأول أن الحياة العمومية مبنية كلها حول العلاقة الغرامية، والثاني أن الفرنسي يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الأوروبي الغربي وحده يفهم معنى الحب وأنه هو، أي الفرنسي، متفوّق في هذا الميدان على سائر الأوروبيين. كان قد صدر في موضوع الحب والغرب كتاب ألّفه أحد قادة اليمين/47 وكانت أصداؤه لا زالت تتردّد أوائل

الخمسينات. لم يقرأه إدريس، لا آنذاك ولا فيا بعد، لكنه تعرف على مضمونه من خلال تعاليق الغير لأن موضوعاته أصبحت من المسلّمات لدى كثير من الكتّاب الفرنسيين.

- أتعني السفور وحرية المرأة؟

- حسب التحليل المذكور هذه نتيجة. تحرّرت المرأة لأن الحب عاد لدى الأوروبيين هدف الحياة. تتساءل لماذا يدفع الناس بعضهم البعض، تظن أن الواعز هو المال أو الجاه أو النفوذ أو الميل إلى المخاطرة أو الذهول عن الذات بوسيلة الخمر أو غيره، ثم تكتشف أن أولئك المتدافعين يعتقدون أنهم يجرون وراء هدف، وراء حلم هو الحب المتبادل. يجاهدون ليحافظوا عليه إن امتلكوه وليعثروا عليه إن افتقدوه. كل شيء حولهم يخاطبهم بلغة الحب: المدرسة، الكنيسة، الكتاب، الصحيفة، المتحف، المسرح، السينما، الأشهار..

- هذا دين إذن؟

- يقولون: ديننا الحب ولا حبّ عند غيرنا.

- ودين المسيح؟

- يقولون ويعيدون: المسيح هو الحبّ. أي حق لك، أنت الدخيل عليهم، أن تردّ: ليس هذا ما جاءت به الصحائف المقدسة. يجيبون: ما يدريك؟ ماذا تعرف عن تطوّر معتقدنا؟ ادخل إلى أية كنيسة صباح يوم الأحد وستسمع الخطيب يقرر أن المسيح هو الحب. افهم الكلمة أنت كما تريد ولكن الملاحظ هو أن المسيحية سلوك وسلوك المسيحيين يدور كله حول علاقة الحب المتبادل.

- أين العطف والودّ والعشق والغرام والهيام..؟

- تلك روافد تصبّ في سحر الحبّ. يذهبون إلى القول أن البغضاء حبّ معكوس.

- الدين حبّ والحبّ دين.

- هذا ما كان يردّده في كل مناسبة نقّاد السينما في الفترة التي نتكلّم عنها. سنصف فيما بعد علاقة إدريس بالفن السابع. لنقول الآن فقط أنه تربّى شعورياً في دائرة قاعات العرض المظلمة. كثر الكلام آنذاك عن «فلسفة الزوج» عبارة جديدة لمفهوم قداسة الزواج. لا يهمّنا أن نعرف هل كانت الحركة وسيلة لجأت إليها الكنيسة

لاستعادة نفوذها على الشباب الفرنسي. المهم أن كل التيارات الفكرية شاركت فيها. كان إدريس يقرأ مقالات الشيوعي جورج سادول واليساري أندري بازن والكاثوليكي هنري أجل فيجد دعوة واحدة/48. تأثّر بها كما تأثّر بها زملاؤه حتى الذين درسوا الهندسة أو القانون. ارتبطوا بفتيات محلّيات ولمسوا فيهن خصوصية العلاقة الغرامية. ومن تزوّج منهم باحداهن واجه فيما بعد صعوبات كبرى في حياته العمومية والعائلية. إلا أن إدريس تأثّر بالدعوة أكثر من غيره..

ـ أفهم الآن كيف يمكن للمرء أن يعيش مدّة في أوروبا دون أن يدرك من أمرها شيئاً.

ـ يدرك الحقائق الظاهرة لا الخفية.

ـ هل من الضروري أن يسبر تلك الخفايا؟

ـ بالطبع لا، ولكن لا حق للجاهل أن يتظاهر بالعلم. يضع أسباب التباعد والتجاهل في غير محلّها. الحقد، الكراهية، الاحتقار، معاداة الإسلام والشرق، كل ما ليس غربياً أي كل ما لم يخضع لـروما سياسياً، دينياً، فنياً أو ثقافيـاً، كل هذه الأمور لا دخل للعقل فيها، لا يفيد فيها إذن النقاش والجدال. نحن نقول كذا وهم يردّون كذا. نقول مثلاً أنهم لا يعرفون الحشمة وهم يردّون أننا لا نعرف الحب. من يحدّد معاني الكلمات؟ من يضمن تطابق المعنى للشعور؟ لا حاجة لتبرير التصرّف، اما تتمثّله واما تشيح عنه . .

ـ فلسفة الزواج هذه أو لم تكن موضة عابرة؟

ـ سبقت حركة تحرير المرأة والدعوة إلى الاعتراف بحق الطلاق. الموضة العابرة تختفي ثم تعود بعد حين. الذوق الرومنسي يموت ثم ينتعش. المهمّ أن نتفهّم ذهنية إدريس. عندما يطرب لجملة مثل هذه (يجب أن ترى باريس عند الغروب، عندما تشعل المصابيح وتفتح أبواب المسارح وقاعات السينما. .) /49 فإنه يعبّر عن حالة شعورية التصقت وأصبحت مفتاحاً عامّاً لكل مخازن الذكرى.

الفصل الخامس

# الضمير

«اتفق أعضاء الأسرة ونصحوني أن أختار مهنة الطب سئموا حياتهم التعسة وظنوا أن الطب يفتح لي ولهم باب النعيم تظاهرت بمسايرتهم مدة رغم قناعتي أن اقتراحهم يعاكس ميولي. منذ صباي وأنا أحلم أن أكون كاتباً. كيف أتهيأ لمهنتين؟ كيف أكسب الثقة اللازمة في حين أملأ ذاكرتي بأسماء الأعضاء والأمراض؟ كيف انقطع للكتابة ولست ثرياً؟ لو كنت في أمريكا لما كان مشكل. . ولكني في المغرب. هناك الفرد قائم بذاته، يفارق أسرته مبكّراً. هنا لا أحد ينفلت من قبضة الجماعة. لم يسمع أبداً بشابّ ركب القطار أو الباخرة ثم انقطعت أخباره كما لو ذاب في الفضاء أو غار في الأرض. حتى في الحكايات، التي تجلب بها المربيّات النوم إلى أجفان الصبيان، الحوادث طوارق فواجع والبطل يعود دائماً في النهاية ليواسي أبويه ويلاعب زوجته. يتظاهر بعض شبابنا بالتأثر بأندريه جيد، يقولون أنه شيخهم وإمامهم. هل تتعدّى أقوالهم ألسنتهم؟ لم يحدث أن سمعنا بواحد منهم ودّع أسرته واختفى. .

بلدنا بلد سياحي، هذا ما نقول. نفخر بتنوّع مناظره وسكانه. الشمال غير الجنوب والداخل غير الساحل. موزايك، تاموزايكت تمزكة، تمزقة. لا أحبّ التنوّع، لا أرتاح إلى كون بلدي ملتقى التناقضات أقول هذا بعد أن أصبحت عاجزاً عن التمييز بين الخصوصي والعمومي في انسياب أفكاري. . الوطن القريب إلى قلبي لا يتعدّى مصبّ النهر حيث ترقد بلدتي. فيه مرتع خيالي: فيه غيضة أتصوّرها في الهند تلال جرداء أخالها في الحجاز، شاطىء أظنه في كاليفورنيا. وطني الصغير مختصر الدنيا بأسرها. أحبّ بلدي لا لطبيعته بل لسكّانه. كنت السنة الماضية أذهب

مع أقراني، عندما تقلّ دراهيمنا ونعجز عن ارتياد المطاعم، إلى شوّاية في باب السويقة فيها غلام أسمر يقطع اللحم ثم يطحنه ويضعه فوق المشواة ونحن قدامه ننتظر جالسين على خشبة. كنت أتابع حركاته، أحدّق في قسمات وجهه فأعطف على شبابه الضايع وأقول: هذا ما فعلت بنا فرنسا!.»

— 28 —

قطعة مؤرخة بيوم الأحد 31 يناير على الساعة التاسعة مساء. كتبها في غرفته بدار المغرب. من السهل أن نتخيّل حالته النفسية بعد أن قضى ثلاثة شهور في باريس يسمع ويقرأ الكثير عن الأزمة المغربية. نلمس فيما كتب عن الوطن الصغير والكبير وعن نتائج السياسة الفرنسية آثار أحداث الصيف المنصرم التي تركت الانطباع لدى الكثير من الملاحظين أن المعمرين قد أحكموا قبضتهم على البلاد. نهمل مؤقتاً كل هذا كما نهمل فكرة العودة والانكفاء، عدم التمادي في استكشاف المجهول، وهي فكرة شغلتني أنا أيضاً ولفترة طويلة. سنعود إليها فيما بعد، نعود إلى العود.

- والمعاودة والتعاويد.

- اقفل «اللسان». /50.

- نعم. نحن الآن بصدد إدريس والمهنة وهاجس الكتابة.

- يقول أنّه منذ أن وعى وهو يحلم أن يكون كاتباً. أراد أن يتهيّأ لمهنته ولذلك رفض أن يكون طبيباً. كنّا نتساءل: هل يمكن للمرء أن يكون في آن طبيباً وكاتباً. مرّة نتشجّع بتجربة روائيين مشهورين امتهنوا الطّب ومرّة نيأس ونقول: هؤلاء عاشوا في بلاد حرّة. خالف إدريس نصيحة الأسرة، تحرّر من قبضتها، ميّز بين مصلحة الأسرة وهدفه الذاتي. يبدو في فعله هذا متأثّراً بأعداء الأسرة (نيتشه، جيد، سارتر) في الحقيقة كان في نفس الوقت ينفلت من سيطرتهم على ذهنه. تطوّر متناقض.. على الأقل في الظاهر.

- كيف؟

- يشير إلى نفسه عندما يصف الشبّان الذين يقولون ما لا يفعلون. لو بقي وفياً لتعاليم أعداء الأسرة لقطع كل العلاقات مع الجماعة. لكنه في الوقت الذي خالف فيه نصيحة عائلته أبدل عشيرة بأخرى أوسع وأشمل. يعطف على الشواي كما لو كان ابن عمّه وطن إدريس ضيّق جغرافياً لكنه واسع بشرياً. الأسرة قوة جاذبة يصعب الانفلات منها...

ـ لكن أعداء الأسرة يدعون إلى التحرّر منهم أيضاً.

ـ بعد التحرّر من الارتباطات الطبيعية. هذا شرطهم. إذا قمت بذلك أقمت الدليل على نضجك فلم تعد مفتقراً إلى أستاذ أو معلّم. أما إدريس فانه فارق عائلته الصغيرة ثم تحرّر من أستاذه ليعود إلى أحضان أسرة أوسع وذلك في قلب باريس. سمع جيد يقول: اني أكرهك يا أسرة! ثم سمعه يأمر: الق بكتابي هذا عرض الحائط. نفذ الأمر. ألقى بتعاليم جيد وراء ظهره وهي تعاليم نيتشه مبسّطة ميسّرة، لكنه عوض أن يصيح: أمقتك يا أسرة قال: أكرهك يا فرنسا فكان ذلك عنوان العود إلى أحضان الأسرة الكبرى.

* * *

وجد إدريس الطلبة المغاربة موزّعين إلى جماعات تختلف أعمارها وانتماءاتها السياسية. منهم من انقطع عن الدراسة النظامية منذ سنين وتفرّغ للعمل السياسي مع الطلبة أو العمال المهاجرين. هؤلاء لم يزوروا المغرب منذ أعوام عديدة. يروّجون أخباراً يستقونها من رسائل تأتيهم من داخل الوطن أو من عواصم أجنبية لجأ إليها بعض الزعماء المنفيين. كانوا يؤكدون أخبار الإذاعات العربية القائلة أن المغرب ثائر من أقصاه إلى أقصاه ويفنّدون بشدّة ما تنشره الصحف الفرنسية من أن الاضطرابات التي شهدتها بعض المدن قد هدأت وأن المغرب يعيش في سلام شامل.

كان إدريس عائداً مرة من المدرسة رفقة أحد زملائه. فاعترضهما أحد هؤلاء الطلبة المسنّين. استدعاهما إلى مقهى وبدأ يحدثهما بإسهاب عن اتّصالاته بمشاهير الصحفيين والمؤلفين ثم التفت إلى إدريس سائلاً: متى جئت من المغرب؟ ـ منذ أسبوع.ـ وكيف تركت الوضع؟ ـ الحالة هادئة تماماً في البيضاء والرباط ونواحيهما.» طلعت على وجه الطالب المخضرم علامات الريبة ثم الاستنكار. لم يعقّب مباشرة على شهادة إدريس. أتمّ كلامه ثم قام معتذراً بأن وراءه مواعيد هامّة.

لم يتخيّل إدريس أن الكلمة البسيطة التي فاه بها دون روية ستسجّل عليه وتتبعه عواقبها سنين وسنين.

ـ لم يكن قد تعلّم بعد أن الأفضل في مثل هذه الحالات أن تردّد ما تسمع لا أن تصف ما ترى.

ـ كان لا يزال تحت صدمة ما لاح له من خنوع واستسلام عقب عملية عشرين غشت. . وجد أغلبية الطلبة متحزّبة والأقلية مشرذمة. وجد كذلك أن جماعة، قبل وصوله بقليل، قد انشقّت عن الحزب وانضمّت إلى الأقليات لخوض معركة الانتخابات الطلابية تحت لواء لائحة سمّيت لائحة الوحدويين.

ـ المنشّق دائماً وحدوي!

ـ أتصوّر أنهم طالبوا قبل أزمة 1953 بوحدة العمل مع القوميين والشيوعيين، وعندما أهمل رأيهم غادروا الحزب.

ـ أتذكّر أن الجامعة العربية قد شرطت، قبل أن تتبنّى قضية المغرب أمام المحافل الدولية، أن تتوحّد الأحزاب.

ـ لم نكن نعلم شيئاً من ذلك. وجدنا العمل الطلابي منحصراً في اجتماعات تثقيفية وفي أنشطة نقابية، تتعلّق بالمنحة والمأوى والوقاية الصحية. عندما يصل الطالب لأول مرة إلى باريس يكون في حاجة إلى من يرشده. توجد بالطبع هيئات متخصّصة توجّه وتعين الطلبة الجدد، تابعة لإدارة الحماية الفرنسية أو جامعة باريس، ولكن الطالب يجهل كل شيء عنها. فيعتمد على الزملاء. والزميل الذي يعينه في البداية يجرّه في نفس الوقت إلى التنظيم السياسي الذي ينتمي إليه. الحاجة، الصداقة، القرابة هي الدوافع العادية للانتماء السياسي، ولذلك يبقى ذلك الانتماء في الغالب سطحياً، لا يعطيه الطالب معنى الارتباط والالتزام. يحضر الاجتماعات السياسية كما يحضر الأحاديث العمومية. هذه هي الملابسات التي أحاطت بانخراط إدريس في نشاط الحزبيين. كان من الممكن أن ينحاز إلى الشيوعيين لأنه كان آنذاك أقرب إليهم. .

ـ لماذا لم ينخرط في الحزب الشيوعي وهو في المغرب إذن؟

ـ في المغرب تبدو الحركة الشيوعية هامشية كالأباضية أو الباطنية لطالب القرويين. أما في باريس فانها تمثّل الاتجاه السائد، وكل المواقف تحدّد بالنسبة إليها. كانت حاضرة حتى في المدرسة التي التحق بها إدريس والتي كانت تعتبر يمينية. يكون الشيوعيون من مختلف البلدان والأجناس والديانات عائلة واحدة في باريس تحت رعاية الحزب الفرنسي. توجد إذن هناك إغراءات كثيرة وملحّة للانضواء تحت راية ماركس ولينين. كانت الظروف مواتية ولو انخرط إدريس آنذاك في الحزب لما غادره طول حياته، ولكنه لم يفعل. تغيرت الأوضاع ولم يرغب أبداً بعد ذلك في

التقرّب من الشيوعيين رغم أنه قاسمهم دائماً الكثير من آلامهم وطموحاتهم. حضر اجتماعات الاستقلاليين فوجد وضعاً شاذّاً خلّفته الأزمات المتتالية التي مرّت بها الحركة الوطنية المغربية منذ الحرب العالمية الثانية. في خريف 1953 أبدلت الهيئة المسيّرة. ابتعد بعض المسؤولين عن باريس، إمّا بمحض إرادتهم واما بإيعاز من السلطات، وخلفهم آخرون كانوا يتصرّفون بكامل الاستقلال..

ـ انتهت إليهم الرئاسة؟

ـ كانت الأمور غامضة في أعقاب عملية عشرين غشت. وزادت غموضاً لمّا انفجرت المقاومة المسلحة في كبريات المدن المغربية وفي منطقة الريف. جاء أشخاص إلى باريس يقولون ان العمل المذكور مستقل عن القيادات التقليدية التي لم ترض عنه رغم فشل خطتها. ثم تسرّبت أخبار من القاهرة تؤكد هذا القول..

ـ منذ البداية اكتشف إبهام العمل السياسي.

ـ اضطرّ إلى التمييز بين السياسة كحرفة والسياسة كمعاناة وسلوك. انضمّ إلى جماعة تحمل اسم الاستقلال لكنها لا ترتبط بأي مسؤول ولا تخضع لأي تنظيم.. أشبه ما تكون بجمعية ثقافية مستقلّة. أقول الآن لنفسي: لو كان تنظيمها محكماً واتصالها بالمسؤولين في الداخل منتظماً، لو كانت خاضعة لتوجيه فكري صارم، لربّما ابتعد عنها إدريس بعد تجربة قصيرة. لا تتصوّر أن الجو السياسي في باريس كان خانقاً مثل جو المغرب. لم تحظَ سياسة الإقامة العامّة في الرباط برضى المسؤولين ولا بعطف الرأي العام. كانت لفرنسا آنذاك مشاغل أخرى خاصة في الهند الصينية حيث كانت مشرفة على هزيمة نكراء. كانت إذن في غنى عن اختلاق أزمة في المغرب تخشى أن تسري عدواها إلى سائر الشمال الإفريقي، خاصة والجميع كان يعلم أن الاتفاق مع الملك محمد الخامس كان ممكناً. بعد أن وقعت الواقعة ووضع المعمرون الحكومة الفرنسية في موقف حرج أضحى شغل المسؤولين في باريس هو استدراك الخطأ مع الحفاظ على سمعة وهيبة فرنسا. فبدأوا يبحثون عن بدائل ويكثرون الاتصال مع أي كان، حتى مع الشبان. نظمت ندوات شارك فيها صحفيون ورجال أعمال وبرلمانيون بحضور الطلبة الذين لم يشعروا أبداً بأي نوع من العزلة أو الاضطهاد. يمكن القول أن إدريس عاش تجربة سياسية ولكن على مستوى الذهن فقط. فمال إلى وطنية عالية التجريد بالغة التطرف نلمسها في الحوار التالي.

— 29 —

« ـ تقول إنك تكره الغربيين. ألا تفرّق بين السياسة والفكر والفن؟

ـ فكري واحد موّحد لا يقبل التجزئة بحال. أكره بالجملة لا بالتقسيط. بالتمييز والتدقيق والتخصيص تذوب الكراهية وتضعف الذات.

ـ لا تستقيم إذن إلا بالعداء والكره؟

ـ الكراهية وحدها تملأ الفؤاد.

ـ أتعادي العامل في المترو؟

ـ لا فائدة في عداوة مخصّصة. لكي تكون عامل قوة وتوازن لا بد أن تبقى فكرة عامّة.

ـ هذا عين اللّامعقول. أنا وطني مثلك ولا أرى وجه اللزوم فيما تقول. لماذا يستلزم الاعتزاز بالنفس كراهية الغير؟

ـ الوطنية محنة ونقمة. تستطيع أنت أن تتصوّر نفسك في زيّ آخر لأنك مغربي بالصدفة.

ـ وضعت نفسك في قفص من صنع يديك. لنفرض أننا اتفقنا مع فرنسا وستتّفق معها لا محالة، كيف تكون حياتك؟

ـ لا أتصوّر مغرباً سعيداً.

ـ لو سمع الناس ما تقول!

ـ ليست القضية قضية مأكل وملبس، شغل وراحة، نشاط ومتعة. أريد أن يدرك الشعب بؤس حياته، بؤساً من وراء آلام الجوع والعطش والمرض فيغضب ويثور ويترك خدشة في وجه الزمن. /51 رجل السياسة يتفاءل بوعد كاذب، رجل الدولة يستقطب النشاط من اليأس. (4 .2 .1955)».

— 30 —

ـ هذه العاطفة المتأجّجة ناتجة بدون شك عن الغربة، الحنين إلى الوطن وعدم الاحتكاك بالمواطنين العاديين.

ـ الوطن عنده فكرة مجرّدة لا منطقة جغرافية يسكنها شعب له خصائص معيّنة، عملت في هذا التطور الوجداني مؤثرات قد تتعجّب من بعضها.

ـ يقال حب الوطن من الإيمان. في هذه القولة ما يكفي من الإبهام. لو لم تكن الوطنية فكرة لما كان الوطنيون قلّة. . كالمؤمنين.

ـ تكونّت حكومة منديس ـ فرانس فبعثت الأمل في النفوس. أبرمت هدنة مع الثوار في الهند الصينية بعد هزيمة الجيش الفرنسي في معركة دين ـ بين ـ فو/ 52، ثم شرعت في مفاوضات جدّية مع حزب بورقيبة في تونس. لكنها لم تجرؤ على فتح ملفّ المغرب. استمع إدريس إلى النقاش الذي دار في مجلس النواب الفرنسي فكتب:

«بكيت لأني لم أشعر أبداً كما شعرت اليوم بتبعيتنا للغير، بانتظارنا الخير والشر منه، باعتمادنا الكلّي على قراراته».

وزاد من تأجج شعوره الوطني ما كان يراه عند الطلبة الفرنسيين أنفسهم. لم ينظروا إليه كعدو ولم ينظر إليهم كأعداء. كان بينه وبينهم تفاهم ضمني. كانوا يشعرون بأن فرنسا، رغم تاريخها العريق ودورها الثقافي المتميّز وأمجادها العسكرية وأمبراطوريتها الواسعة، مهدّدة بالاندثار. نجت من خلال الاحتلال الألماني لتسقط في شبه احتلال أمريكي وفي خشية دائمة أن تسقط تحت النير الروسي إذا ما اندلعت حرب عالمية ثالثة حتى ولو أرادت أن تبقى في حياد. بعد تردد ملحوظ انضمّ عدد منهم إلى الحزب الشيوعي باعتباره الأكثر وفاء للقومية الفرنسية.

ـ قد يكون هذا أحد أسباب عدم انحيازه هو إلى الشيوعية؟

ـ رأى الهمّ الوطني يطغى على الهمّ الاجتماعي عند الشعب المستعمر نفسه. راقب باهتمام طول سنة 1954 ذلك التقارب العجيب بين الديغوليين والشيوعيين الذي أدّى إلى إفشال مشروع إنشاء جيش أوروبي موّحد. كان أحد زملائه يقول: الحزب الشيوعي وحده وفي لمآثر جان دارك/ 53. رأى هذه الحمية عند الطلبة الفرنسيين ولم ير مثلها عند الطلبة المغاربة، حتى عند أولئك الذين كانوا يتلاغون طول النهار بأحداث المغرب الصحيحة والخيالية، وكأنهم يعقّبون على مسلسل تلفزيوني.

ـ ماذا كان ينتظر من طلبة مهاجرين؟

ـ شيئاً من الجد والصدق. جاءوا لباريس أولاً وقبل كل شيء للدراسة. لماذا لا يدرسون؟ وإذا طغى عليهم هوس ما يجري في الوطن لماذا تلك اللهجة السّطحية؟

شبان وكل شيء في أقوالهم وأفعالهم يشي بالعجز والترهّل باستمرار أن ما يغلب عليهم هو تريّث وتردّد الشيوخ. يرون في كل حادث جانب الخطر وجانب الفرصة فيتساءلون تلقائياً كيف يتجنّبون الأول ويستفيدون من الثاني، لا يقتربون كثيراً لكي لا تحرقهم النار ولا يبتعدون ليكونوا حاضرين وقت الجزاء. تسمعهم يقولون أشياء معقولة محبّبة إلى النفس ومع ذلك تودّ لو تصرخ في الفضاء. تأذّى إدريس كثيراً من جوار هؤلاء. خاف على نفسه من ميوعيتهم..

ـ ممّا اشتكى بالضبط؟

ـ سمّيه الصلف أو الريب أو النفاق أو الواقعية..

ـ أليست هذه أقنعة نيتشه؟

ـ هيهات! التقنيع عند نيتشه عمل جدّي. كل ما تعلّم إدريس من معاشرة الجماعة المذكورة هو ضرورة التمييز بين الأسباب والدوافع. كانوا عاطلين كسالى ومع ذلك لا ينفكّون يتكلّمون عن الطبقة العاملة ودورها في التحرير القومي. ينتقدون مرّة مرونة السيّاسة ومرة تهوّر المقاومين. ينطقون بأحكام توافق ميول إدريس ومع ذلك لا تنفذ إلى فؤاده لخـلوها من ظواهر الصدق والصراحة. لذلك ثار بعنف ضد من أسماهم بالفوضويين.

ـ في فترة لاحقة؟

ـ قبيل وبعد الاستقلال. هؤلاء أخطأوا في حساباتهم. ظنّوا أن فرنسا لن تتراجع عن سياستها على المدى القريب وأن الاستقلال بات بعيداً إن لم يكن مستحيلاً. توقعوا أن النشاط السياسي سيعطل لا محالة ولفترة طويلة وسيخلفه بالضرورة العمل النقابي الخالص. فاستعدوا للوضع الجديد. كنت تستمع إليهم فتخالهم أبطال قصة روسية. ثم تطوّرت الأمور وبأسرع مما كانوا يتصوّرون. تراجعت الحكومة الفرنسية، قبلت التفاوض مع الملك الشرعي، أطلقت سراح المسجونين وسمحت للمنفيين بالعودة إلى الوطن. تكوّنت حكومة انتقالية وجاء الوزراء الجدد إلى باريس يتفاوضون في مستقبل البلاد وفي نفس الوقت يبحثون عن مساعدين لهم. فقربّوا إليهم كل من له مسحة من تجربة. كانوا يجهلون ما جرى أثناء الأزمة وحتى لو اطّلعوا على تفاصيل الأحداث لما أعاروها أهمية خضـوعاً للضـرورة وللروابط الشخصية والعائلية. وهكذا بين عشية وضحاها تحوّل إلى مقاوم صامد من كان لا ينفكّ يصرّح أن الفكر الوطني متخلّف عن التطورات الدولية وأن المستقبل كله للفكر

الطبقي. نسيت في الحين الهموم الاجتماعية وحتمية التاريخ وعاد التركيز على ضرورة بناء الاقتصاد القومي في جوّ من التضحية والتآخي والوئام. أمحى كل شيء إلا من ذاكرة إدريس.

ـ أليست هذه سذاجة؟

ـ كان يتساءل: من أين اكتسبوا غريزة المصلحة؟ لم يكن يعرف بعد أن التجربة قل ما تكون فردية وأنها جماعية، عائلية، تورث عن أب وجدّ كأسرار الحرفة. اصطناع الأحياء كصناعة الأشياء، لا فرق. نعم يحقّ لنا، مع حبّنا له، أن نقول: مات إدريس بسذاجته. لكن، يا شعيب، لو لم تكن السذاجة، لو عمّ النفاق..

ـ لحقّ الأمر على من فيهما جميعاً!

* * *

خلال ربيع 1955 وصل طالب من الشرق يحمل معه نسخة من كتاب **النقد الذاتي** لعلال الفاسي. تعلّق اهتمام الطلبة بالعنوان لأنه كان يوحي بأن المؤلف يعترف بفشل الخطة المتّبعة إلى غاية ذلك التاريخ. كلّف إدريس بتقديم عرض حول الكتاب. قرأه واستوعبه إلى حدّ أنه فكّر في مراسلة الزعيم المبعد في شأن القضية المطروحة آنذاك: علاقة الحزب بالمقاومة المسلّحة.

«لم تبدأ المقاومة إلا بعد أن اعتقلت القيادة السياسية كما لو كانت هذه تمنع قيام تلك. والآن بعد أن قامت الحركة المسلحة لا يستبعد أن تطالب الحكومة الفرنسية الزعماء المعتقلين أن يتبرأوا منها قبل أن تأمر باطلاق سراحهم والدخول معهم في مفاوضات حول الإصلاحات، كما تفعل الآن مع التونسيين. وبالفعل بدأنا نسمع ما يشبه هذا الكلام من صحفيين وجامعيين متعاطفين مع قضيتنا. ان مستقبل الحزب في الميزان. إذا تبرّأ من المقاومين فقد شرعيته كيف يستطيع أن يقول أحد: العمل المسلح غير نافع، الأفضل أن ننتهز فرصة التفاوض؟ صحيح أن هدف كل حزب سياسي هو إرغام الخصم على التفاوض، ولكن فرنسا لا تريد أن تفاوض، تريد أن تفرض سياسة الأمر الواقع بدليل أنها تتعنّت وتنفي أن يكون هناك مشكل يتعلّق بالعرش. تريد أن يتبرّأ الحزب من المقاومة أولاً ثم ينتظر ما تقرّره هي حسب مصلحتها وفي الوقت المناسب لها. في نفس الوقت عبّر الشعب المغربي بكل وضوح عن مطلبه الأساسي، وهو عدم التفاوض في أي شيء غير مسألة العرش. هل يمكن للحزب، الذي يقول أنه لسان الشعب، أن يسير في طريق آخر؟ إذا فعل صار حزباً

سياسياً بالمعنى السيىء، يستغلّ الشعب ولا يخدمه. ما هو موقف الحزب في الحقيقة؟ هذا ما لا نعرفه بالضبط. لذا نتوجّه إلى سيادتكم لأننا نعلم علم اليقين أنكم لا تميّزون أبداً بين المصلحة الوطنية والمصلحة الحزبية. إننا واثقون بحصافة رأيكم وعمق إيمانكم بمستقبل الشعب المغربي فنلتمس منكم جواباً مفصّلاً يعيد الاطمئنان إلى النفوس وينقذ الكثيرين من متاهات الريبة والتردّد».

ـ هل كتب باسم الطلبة؟

ـ لا أدري. ما أعلم هو أن الرسالة لم تبعث.

لم نكن ندري أنه سهل على علال الاعتراف بالخطأ لأنه لم يكن يتحمّل مسؤولية التسيير اليومي لشؤون الحزب بعد أن عاد من المنفى. لم نعلم أنه استغلّ أزمة 1951، التي كانت في آن أزمة وطنية وأزمة حزبية، لاسترجاع نفوذه.

ـ كما فعل سنة 1958 .

ـ في ظروف مختلفة. في المرّة الأولى كان يخاطب الجيل الجديد الذي لم يعرف سنوات الحرب وما قبلها. مكث علال مدّة طويلة في طنجة ثم التحق بالقاهرة. كان بعيداً عن السياسة اليومية فوجد الوقت للاستماع إلى الانتقادات الموجّهة إلى الحزب والإجابة عنها. كان الشبان يقولون: لا تنظيم ولا برنامج للحزب، يتكلّم الزعماء عن الاستقلال دون أن يعرّفوا أبداً مضمونه أو يهيئوا الناس لتحمّل أعبائه. لنفرض أن الفرنسيين طردوا من البلاد هل الشعب المغربي الفقير الجاهل الممزق قادر على تسيير شؤونه؟ هذا السؤال لا يطرحه أبداً مسيرو الحزب. لا يتّخذون أبداً أي قرار في أية مسألة في انتظار بزوغ فجر الحرية والانعتاق. هل هذه خطّة مدروسة أم هو توكّل موروث؟ الحزب حركة تتساكن فيها جماعات غير متجانسة، تسيّرها لجنة دعائية مغلقة تنتقد أعمال الإدارة الفرنسية، تذكّر الشعب بأمجاد الماضي، تعده بمستقبل زاهر، ولكنها لا تفكّر أبداً في تحليل المجتمع ورصد تطوّراته. لم يستبدل أعضاؤها منذ عقود كأنهم ضمنوا لأنفسهم حق القيادة مدى الحياة بمجرّد التحاقهم بالحركة في وقت مبكّراً. لا أحد منهم يدرك أن طبقة جديدة من العمّال الصناعيين قد تكونّت في الدار البيضاء بخاصّة، منذ الحرب العالمية الثانية. لا أحد يرى مدى عناية الفرنسيين بها، منهم من يهدف إلى ضمّها إلى النقابات الأوروبية ومنهم من يخطّط لحبسها في إطار الانقسامات التقليدية. لا يهمّ الاستعمار أن يقول العامل المغربي: أنا عضو البروليتاريا العالمية أو أنا ابن القبيلة الفلانية ما دام لا يقول: أنا وطني

مغربي. أحداث خطيرة تجري تحت أعين هؤلاء الزعماء ولا يدركون مغزاها القريب أو البعيد. وإذا كلّموا فيها أجابوا بأمثلة الماضي السحيق. لا يزالون يعيشون في جوّ انطلاق الحركة عندما كانت الطبقة التجارية الغنية تموّلهم وطبقة البقالين والحرفيين، الفقيرة المتضرّرة من الأزمة العالمية، تستجيب لنداءاتهم..

ـ هذه هي الانتقادات الموجهة إلى الحزب ابتداء من 1951؟.

ـ سمعها علال ووعاها وبدأ يفكّر في كيفية الإجابة عنها والاستفادة منها. استقرّ بالقاهرة، احتكّ بزعماء الإخوان المسلمين، وجد عندهم أفكاراً محبّبة إلى نفسه، إسلامية ثورية اجتماعية. فقرّر أن يقدّم إلى الحزب، ومن خلاله إلى الشعب عامّة، برنامجاً شاملاً متوازناً يهدف إلى إعادة بناء المجتمع المغربي. قرّر أن إصلاحات كثيرة، تهم الفرد والأسرة والسلوك الاجتماعي، يمكن للمواطنين أن يحقّقوها في ظلّ نظام الحماية، تحسّن من حالهم وتعجل بيوم تحريرهم. انتقل من وطنية قطرية، مستمدّة من التجربة الأوروبية، إلى وطنية ثقافية متأثرة بأفكار الحركات الشرقية. عاد يفهم الإسلام كنظام شامل، فكري خلقي سياسي اجتماعي، بديل للرأسمالية الليبرالية والشيوعية الجبروتية.

كان الرأي السائد قبل 1953 هو أن علال الفاسي رجل زعامة ودعاية لا رجل سياسة وتدبير. لكن بعد أن أبعد ملك البلاد وسجن الزعماء لم يعد معنى للسياسة بمعنى المناظرة والمراوغة. دقّت ساعة الإيديولوجيا. فظهر علال في حلّة جديدة. كان الطلبة يبحثون عن أفكار واجتهادات ولم يجدوها عند سواه. بدأوا يقولون: علال وحده يملك برنامجاً، وحده يستطيع أن يستقطب العناصر القديمة من علماء وتجّار وحرفيين والعناصر الجديدة من نقابيين ومقاومين ومثقفين. بدا لهم وكأنه أسّس الحزب من جديد.

ـ كل ذلك بسبب النقد الذاتي؟.

ـ هل كان يعرف اسم لينين لو لم يؤلف ما العمل؟ لم يكن علال أول من اندفع في النشاط السياسي الوطني، لم يكن أكثر الزعماء ثقافة أو تجربة أو اطلاعاً على الأفكار الحديثة، ولكنه وحده شعر بضرورة تأليف كتاب يصف مراحل الحركة الوطنية، يعدد إنجازاتها وفي نفس الوقت يتعقّب أخطاءها بهدف استشراف آفاق المستقبل. بتأليفه النقد الذاتي ودّع علال جيلاً من الوطنيين ورحّب بجيل آخر وبذلك ضمن لنفسه مقعداً بين الشبّان.

ـ قد يقول البعض أنه ألف الكتاب لأنه كان خارج السجن.

ـ التاريخ كلّه اقتناص فرص. نفي علال إلى قلب أفريقيا ثم أطلق سراحه وألّف. غيره كان حرّاً ولم يخطّ حرفاً واحداً، غيره اعتقل ثم سرح ولم يكتب شيئاً. . قلت أن الخلية الطلابية الاستقلالية في باريس كانت أشبه بجمعية ثقافية منها بتنظيم ثوري وجدت في الكتاب ما يغذّي نشاطها. لا أشكّ أنه لولا صدور النقد الذاتي لانفصل عنها أعضاء كثيرون، إما ليلتحقوا بتنظيمات أخرى وإما لاعتزال كل نشاط اجتماعي. والدليل هو ما أقرأ في قطعة كتبها إدريس تحت عنوان نداء إلى الوحدويين.

«توجد بينكم جماعة نظّمت نفسها تنظيماً محكماً ودرست خطتها دراسة دقيقة مفصّلة. تعتقد أن كفاحنا يجب أن يتوخّى في نفس الوقت التحرير الوطني والانعتاق الاجتماعي. تقول أنّه يوجد الآن في المغرب طبقتان متميّزتان، لكل واحدة مصالح وأهداف وتصورات خاصة بها فيجب أن يكون لكل واحدة تنظيم سياسي مستقل. ترى أن التحالف بينهما ممكن، أن التنسيق بين أنشطتها ضروري ولكن بشرط أن يعترف الجميع بحقيقة التمييز الطبقي، باستمرار الصراع حتى في ظروف التحالف السياسي لأن الاستغلال الطبقي لا يتوقف أبداً. وبالتالي لا يمكن للطبقة العاملة أن تفرط في استقلالها التنظيمي والإيديولوجي لتندمج في تنظيم غير خاص بها وحدها.

نقول لهؤلاء: انكم تسبقوننا بمرحلة. من بيننا من يفكّر مثلكم وأنتم تعلمون ذلك. إلا أننا نقول ونؤكد: وقت الفصل في المسألة الطبقية لم يحن بعد. هذه نقطة يستغلّها العدو ويتقوّى بها على حساب الكفاح الوطني. هل تريدون أن تكونوا حلفاءه الموضوعيين؟ نطالبكم بشيء واحد: أن تتقيّدوا بالأسبقيات. هل مكافحة المستعمر الأجنبي أكثر استعجالاً من مواجهة المستغلّ الوطني أم لا؟ قارنوا بين الخطرين، كما وكيفا، وأعطونا الجواب. سيأتي وقت تتحقّق فيه تنبّؤاتكم، عندما يقتنع المستعمر أن أكبر ضمان له هو التحالف مع شرذمة المنافقين في إطار استغلال مشترك للشعب المغربي وقد يكون هذا الوقت أقرب مما نتخيّل. لكن اليوم، هذه الساعة، الوضع مختلف».

* * *

صدرت خلال سنة 1955 عدّة مقالات تتضمّن اقتراحات لحلّ المشكل المغربي إذ اقتنع الجميع أن عملية عشرين غشت كانت غلطة كبيرة. وكما هي العادة تبلورت سياستان متعارضتان. الأولى تدعو إلى التفاوض مع الوطنيين وفي فترة لاحقة مع الملك المنفي، مما يتطلّب أن تستعدّ فرنسا لتقديم تنازلات مهمة للخروج من الورطة التي سقطت فيها الحكومة المركزية بسبب ضعفها ورضوخها لمطالب المتطرّفين من الجالية الفرنسية القاطنة بالمغرب. أما الثانية فكانت تطالب بإدخال إصلاحات جذرية بمبادرة من فرنسا ودون مفاوضة أي أحد. كان الرأي الثاني يمثل تطوّراً في الاتّجاه الاستعماري. في البداية قال المحافظون أن الحكومة الفرنسية واجهت ثورة حقيقية قام بها قوّاد القبائل وشيوخ الزوايا للتخلّص من ملك أصبح يتكلّم باسم أقلية صغيرة من سكّان المدن، أصحاب المنافع التجارية الاستغلالية، وحفنة من المثقفين المتنكّرين للتقاليد المغربية الصحيحة. إلا أن هذه الدعوى تبخّرت بعد أن نشرت صحف عديدة استطلاعات حول المهزلة تطوّع بتفاصيلها بعض المشاركين فيها بسبب غرورهم وقناعتهم أنهم حققوا فوزاً ساحقاً. عندئذ قال البعض: الآن وقع ما وقع وظهرت سلبيات العملية فلم يعد مجال للتراجع. لا داعي للتفاوض مع الوطنيين، يجب تجاوزهم والإقدام على حلّ المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والإدارية التي تواجه المغرب ويشتكي منها المغاربة. تنشأ بذلك وضعية جديدة تفقد كل المطالب الوطنية ثقلها الواقعي، بل قد يميل بعض الوطنيين إلى اللحاق بالقطار في بداية تحرّكه.

- من أوحى بهذه السياسة الذكية؟

- ظهرت في أوساط مختلفة، يمينية ويسارية، وحبّذها حتى بعض المتعاطفين مع قضيتنا تحاشياً لخزي التراجع عن الأمر الواقع وحفظاً لسمعة فرنسا. إلا أن أقوى من ساندها أرباب المعامل العصرية الذين كانوا وراء الحركة التصنيعية في المغرب منذ 1946. كانوا يحتقرون الحكّام التقليديين، يتخوّفون من الزعماء ذوي الاتجاه الإسلامي الحاقدين في نظرهم على فرنسا والغرب، فيودّون لو توجد طبقة وطنية معتدلة تتعاون معهم لإصلاح أحوال البلاد دون المسّ بمصالحهم. كان المتكلم باسم هذه الجماعة القوية النفوذ في احدى أجنحة الحزب الراديكالي، هو أميل روش الذي نشر كتاباً بعنوان **استطلاعات فرنسية مغربية/54**. لا أتذكّر هل حرّر في نفس الوقت مقالات في الصحف لترويج أفكاره. ولكن إدريس اطّلع على مقال ينتمي صاحبه إلى نفس الاتجاه وعلّق عليه بإسهاب.

«سيدي، من الواضح أنكم تجهلون أو تتجاهلون أن للمغرب تاريخاً وحضارة وعلاقات عريقة مع بلدان أخرى غير فرنسا. تظنّون أن المشكل القائم الآن في المغرب يهمّ الحكومة الفرنسية وحدها وأنه في العمق سياسي قانوني إداري وكل المقترحات التي تقدّمتـم بها تدخل في هذا السياق. أعلم أن تدويل القضية المغربية غير مجد لأن الحل الحقيقي لا يكون إلا عبر مفاوضات فرنسية مغربية، لكن قبل البحث عن الدواء لا بدّ من تشخيص الداء.

كل بلد سجين ماضيه. لا يمكن إذن فصل المغرب عن محيطه العربي الإسلامي. المشكلة فيه كما هي اليوم في مصر أو باكستان، وكما كانت في تركيا قبل نصف قرن، حضارية في عمقها. لا مناص للمجتمعات الإسلامية من أن تتغيّر لكي تضمن لنفسها البقاء في عالم سيطرت عليه الحضارة الأوروبية. هذا مشكل عام، لا يواجهه المسلمون وحدهم، إلا أنّهم عجزوا حتى اليوم عن حلّه لأنهم يكرهون دائماً وأبداً الحلول الجذرية. لم يتّخذوا، مثل روسيا أو اليابان، الإجراءات اللاّزمة في الوقت المناسب ولم يثوروا مثل الصينيين على كل التقاليد العتيقة. فتعمّقت لديهم الأزمة وتضاعفت المشكلات على مرّ السنين. وممّا زاد في الطين بلّة في المغرب أن شريكاً يسكن الدار ويدّعي أنه وحده قادر على تحديد الإصلاحات الضرورية وتعيين الوقت المناسب لتطبيقها. نشأت الأزمة المغربية الحقيقية عندما اقتنع المغاربة أن فرنسا لن تقبل أي إصلاح من شأنه أن يبعث في الجسم المغربي الحيوية من جديد. ليس الاستقلال، تحرير الإرادة الوطنية من الحجر، هدفاً بذاته، إنما هو وسيلة، الوسيلة الوحيدة لدفع المغرب بكل فئاتـه في العصر الحديث. داخل هذا المنظور تبدو تحليلاتكم واقتراحاتكم في أحسن الأحوال ناقصة.

أطنبتم في موضوع الاتفاقيات الدولية الخاصة بالمغرب. لا شيء فيها يشير إلى نصف مليون مستوطن فرنسي مع أن هؤلاء يمثّلون اليوم أكبر عقبة تعرقل تصفية المشكل. طالبوا باقتسام السلطة والسيادة وعندما أجاب الملك أن قبوله المبدأ يسلب عن السلطة كل شرعية عملوا على نفيه وإبداله بمن توسّموا فيه الطاعة العمياء أبد الآبدين. تقولون أنهم اكتسبوا حقوقاً ثابتة لأنّهم أمّنوا البلاد بدمائهم وجهزوها بأموالهم ولكن تلك التضحيات كانت لصالح التوسع القومي الفرنسي فإن كانت تكسبهم حقوقاً فهي تجاه الحكومة الفرنسية لا تجاه وعلى حساب الشعب المغربي. استقلّت

أندونيسيا ولم نسمع شيئاً عن حقوق الجالية الهولندية، تحرّرت ليبيا ولم نسمع شيئاً عن حقوق الجالية الإيطالية. صحيح أن هولندا وإيطاليا هزمتا أثناء الحرب العالمية ولم يبق لهما وجود عسكري في مستعمرتيهما. أما الجيش الفرنسي فإنه يصول ويجول في المغرب ويحمي بالقوة مصالح جالية كبيرة غنية نشيطة غير راغبة في مغادرة البلاد. لنتكلّم إذن عن هذا الواقع. إننا نعطيه ما يستحق من اعتبار، ننطلق منه بدون حاجة إلى أي تبرير قانوني أو خلقي. إن حقوق الجالية الفرنسية في المغرب لا تنفصل بحال عن السيطرة العسكرية الفرنسية.

هل تتطلّب بالضرورة المشاركة في تأسيس التنظيمات السياسية المركزية؟ ألا يكفي أن يشارك المستوطنون في المؤسسات المحلية والجمعيات المهنية؟ هذا هو لبّ المشكل. تقرّرون، اعتماداً على تجارب الماضي الأوروبي، أن الوطنية تتحوّل دائماً إلى حركة توسعية استبدادية معادية للأجانب وتستنتجون أن التمثيل السياسي ضروري. نقول أن التطور المذكور غير محتوم، إذ الاستقلال هو بمثابة إشارة الشروع في إعادة بناء المجتمع المغربي. ان ضخامة المشروع تفرض على الوطنيين التركيز عليه وعليه وحده وكذلك الترحيب بأية مساعدة مهما كان مصدرها. الوطنية الإيجابية في نظرنا تميل بالضرورة إلى الاعتدال والتسامح، لا إلى التطرّف والعداء. والأمثلة التاريخية التي سقتموها محاطة بظروف خاصة لا توجد في المغرب.

تقترحون تأسيس مجلس دستوري من مائة وعشرين عضواً يشارك فيه ممثلون عن المستوطنين الفرنسيين. قلنا سابقاً ان مهمة مثل هذا المجلس هو إصلاح المجتمع المغربي الذي هو مجتمع إسلامي. ماذا يعرف المستوطنون عن مشكلات الإسلام؟ هل لهم مصلحة في الاشتراك؟ هل يمكن أن يساهموا مساهمة مفيدة في المداولات؟ تظنّون أنهم يملكون تجربة تمثيلية تؤهلهم ليكونوا مرشدي الديمقراطية المغربية الناشئة، هل حضورهم وحده كفيل بتلقين المغاربة خفايا النظام البرلماني؟ لنفرض أن المجلس المذكور تكوّن وأنه صادق على دستور مستنبط بالضرورة من الدساتير الغربية، من يضمن أنه عند التطبيق سيؤول إلى غير ما آل إليه في مصر دستور 1924 المستوحى من دستور المملكة البلجيكية؟ لم يستقم النظام البرلماني في ألمانيا وإيطاليا إلا بصعوبة كبيرة، فمن الطبيعي أن تكون الصعوبة أكبر في المغرب، هل وجود ممثلين فرنسيين داخل المجلس يغير شيئاً من هذا الواقع؟ واضح إذن أن التمثيل السياسي للجالية الفرنسية غير ضروري ولا مفيد، لا يضمن لها أي نوع من أنواع

الحقوق ولا يرسّخ الديمقراطية في أذهان وسلوك المغاربة. الوسيلة الناجعة لكي يحافظ المستوطنون على الامتيازات التي يتمتعون بها حالياً، والتي نشأت عن ظروف شاذّة لا حاجة لنا لفحصها من جديد، هي أن يعطوا الدليل في الحياة اليومية على أن المغرب محتاج إلى مساهمتهم المهنية والمالية لضمان تقدّمه وازدهاره. ومن السهل أن يقيموا الدليل المذكور عبر نشاطهم داخل المؤسسات المحلية والمهنية. بعبارة وجيزة، إذا أرادوا أن يعاملهم المغرب كمغاربة فما عليهم إلا أن يكفّوا عن النظر إلى أنفسهم كفرنسيين مهاجرين.

تقولون ان أول الأسبقيات أن يتعلّم الفلاّح المغربي الديمقراطية. هل سيتعلمها حقاً بمجرّد أنه يضع من حين لآخر في صندوق الاقتراع ورقة يعجز عن قراءتها ولا يختارها إلا بمساعدة لون معين؟ صوّت الفرنسيون مراراً منذ 1791 ومع ذلك يجمع الباحثون على أنهم لم يكتسبوا تجربة سياسية فعلية إلا في أوائل هذا القرن، بعد مرور جيل على تعميم التعليم الابتدائي. هذا دليل على أن الديمقراطية لا تتعلّم بالممارسة وحدها في غياب برنامج تعليمي طموح. ونعود هكذا إلى نقطة البداية، أي إلى ضرورة تطبيق مشروع ضخم هادف إلى دفع المغاربة في أحضان العالم العصري.

ومن يستطيع التخطيط له سوى حكومة مغربية تمثّل جميع فئات الشعب؟ إذا كانت فرنسا تريد بالفعل أن تحلّ نهائياً المشكل المغربي فما عليها إلا أن تقبل بفكرة تأسيس حكومة وطنية.

تقولون ان أكثرية السكان ممثلة في المؤسسات التقليدية التي تتعاون مع إدارة الحماية. تعلمون قبل غيركم أن اتباع الطرق الصوفية وأعضاء الغرف الفلاحية والتجارية والقوّاد والشيوخ والمقدّمون لا يمثّلون سوى أنفسهم وأن جميع من لهم وزن في المجتمع وتتعلّق بهم آمال الجماهير معتقلون أو منفيون. تقولون أنهم يكرهون فرنسا، الواقع أنهم مشبعون بثقافة فرنسا وقيمها العليا ولكن تراجع الحكومات المتعاقبة منذ 1936 عن الوعود التي قطعتها على نفسها هي التي ملأت قلوبهم بالخيبة والمرارة وجعلتهم ينظرون إلى جهات أخرى. إن فرنسا تحاور اليوم دمية منصبة في الرباط كما أن الولايات المتحدة تتعامل مع دمية في فرموزة تلحّ وحدها على أنها تمثل الشعب الصيني.

تكثرون من الاقتراحات حول الجيش والسياسة الخارجية، تطالبون بإبدال معاهدة الحماية باتفاقيات جديدة. أكتفي في هذا الصدد بكلمة واحدة. لن تحافظ فرنسا على علاقات طيّبة مع حكومات وشعوب الأقطار التي تتولّى الآن إدارتها إلا إذا سارت على آثار السياسة الإنجليزية المطبوعة بطابع الموضوعية والواقعية والمرونة. إن أي اتفاق جديد بين فرنسا والمغرب لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا بشرطين اثنين: أولاً عدم مطالبة المستحيل، أي فصل المغرب عن الشرق العربي الذي ارتبط به منذ فجر التاريخ، وثانياً عدم تحديد صلاحيات الحكومة المغربية الجديدة لمنعها من ادخال إصلاحات اجتماعية جذرية.

يجب أن تكون الحكومة الجديدة حرّة التصرف في الداخل والخارج لأن الاستقلال، كما قلت في البداية، هو بداية محنة كبرى أعني محاولة حلّ مشكلات المجتمع الإسلامي» (1955).

— 32 —

صدرت لكاتب مغربي/55 في باريس رواية اهتمّ بها المعلّقون فاستغلّتها الإدارة الفرنسية لتبرير سياستها الرجعية. اعتمدت على محتوى الرواية لتقول أن الوطنية حركة تمثل مطامع ومصالح الطبقة البورجوازية المغربية، الطفيلية المنحلة أخلاقاً والمتخلّفة فكرياً، وأن الملك محمد بن يوسف، عندما تحالف معها، فقد حبّ وولاء الغالبية العظمى من الشعب في البوادي والقرى. لا شك أن المؤلف كان ضحية حملة دعائية ذكية ولكن الطلبة المغاربة في باريس، خاصة المتحزبين، لم يلتفتوا إلى هذا الجانب بل عبّروا عن سخطهم بشتى الوسائل وألقوا كامل المسؤولية على كتف الكاتب إذ كان في استطاعته تأجيل نشر الكتاب إلى أن تنفرج الأزمة. كتب إدريس مخاطباً المؤلف:

«تقول أنك مغربي ولكنك مغربي من نوع خاص، منخدع متهافت منحط. انك لا تمثلنا في شيء. اسرد، حلّل، اشرح، صوّر، مهما تفعل أنك لن تصور إلا ذاتك. بئيس أنت، لا فائدة في عملك ولا نفع. تتزيّن ليحبّك الأجنبي الذي لا يهوى سوى الأمور الغريبة الشاذّة الخلّابة التي تكرس أوهامه عنّا. كنت تفرح لو استطعت إلحاق الضرر بنا، نشر الخوف والشك بيننا! هيهات كيف يشك الفلاح أن الأرض تحت قدميه والسماء فوق رأسه؟ تقول أنك تتحاشى السياسة لأنها لا تمسّ سوى القشور. وأنت؟ هل تدرك غير قشور الأشياء؟ لم تفهم أن الحيرة والخوف والتقزّز،

كل ما حلا لك أن تسمه وتصمه يخص جماعة فقط من المغاربة، جماعة لم ترتبط أبداً بالحضارة التي تتباهى بانسلاخك عنها. مثل أقرانك الذين درسوا عند الأجانب تجهل كل شيء عن ماضي المغرب. لا تدري أن العقائد والطقوس التي أثارت حفيظتك، كانت دائمـاً وأبداً مجرّد سلاح في أيدي أناس مثل أبيك. حيّرك الأجنبي لأنك كنت حائراً تائهاً قبل أن يتقدّم نحو شواطئنا. .» (1955).

بعد سنة أي بعد أن عاد محمد الخامس من المنفى وألغى عقد الحماية أعاد الكاتب الكرّة ونشر مقالاً في مجلّة كانت لسان حال الفيديراليين الأوروبيين، وهي حركة ثقافية أكثر منها سياسية جمعت بين عدد من المفكّرين والأدباء المعروفين بعدائهم للشيوعية رغم أنهم احتكّوا في شبابهم بالماركسية/56. أثار المقال غضب الطلبة الوطنيين لأنه أكّد ما كانوا يرمون به المؤلف من استخفاف بمقدّسات البلاد. فكّر إدريس أن يكتب بحثاً مطولاً عن الفكر الفوضوي الذي يميّز (في نظره آنذاك) كل المنافقين الذين عارضوا أعمال الزعماء والمصلحين. .

— 33 —

«تأتي دائماً، آجلاً أو عاجلاً، في حياة كل شعب لحظة الاختيار لتفرز العامل عن الخامل، الصادق عن المنافق. ودائماً كذلك، عندما يتعيّن الحسم، تقوم جماعة تدّعي أنها تعرف مسبقاً مآل مزاولة العنف وأنها، باسم مثل أعلى من الأهداف السياسية، ترفض أن تنصاع لأوامر الأغلبية. واليوم نرى كثيراً ممّن صفّقوا في السابق للثورة (كوستلر، ريشرد رايت، اغنازيو سيلونه، آرون، كامو، ميرلو- بونتي) نادمين على ما فعلوا، ناعين على الثورة سحقها للحرية الفردية. ويل لحركة سياسية تضمّ إليها أدباء وصحفيين لأنهم يقحمون الأخلاق في مضمار لا يتّسع لها، يلحون على تبرير أخلاقي لقرارات فرضها الواقع فرضاً، يقومون ببهلوانيات ذهنية تمهّد الطريق لتلوّنات وتقلّبات لا حدّ لها. يبدأ رجل الأدب بالركوع لرجل السياسة لأنه يجد فيه من الإقدام والجرأة والحزم ما لا يجده في نفسه ثم تغلبه الحمية فيقتنع أن رجل السياسة لا يعمل إلا بدافع الغريزة. يحتقره عندئذ، يهجره ويعود إلى برجه العاجي بعد أن يكون قد نشر في صفوف الأتباع الشكّ والتردّد وزرع في الحركة بذور الفساد والانحلال.

نشر صاحبنا قصّتين طرب لهما البعض وتضايق منهما البعض الآخر. لكنه لم يقبل أن يحصر نشاطه في الصناعة التي يتقنها فأراد أن يعطي رأيه في الحالة التي

يعيشها المغرب. نعترف له بالوفاء لنفسه، إن لم يكن للواقع، إذ أن الأفكار التي كانت مبطّنة في عمله الأدبي بدت واضحة في مقاله الصحفي. نعترف له أيضاً لما يشبه الشجاعة إذ يعلن عما يضمره عدد من المثقفين المغاربة الذين يكتفون بالتعبير السلبي عن ميلهم الحقيقي وذلك باجتناب الانضمام لأي حزب من الأحزاب العاملة في الساحة المغربية.

لن نتعقّب الجزئيات في مقال صاحبنا لكي لا نعطيه الفرصة للدخول في سجال لا ينقطع. الأخطاء التي ارتكبها في تحليله الأوضاع المغربية ناتجة عن موقف ذهني وهذا هو ما يجب أن نعيه بكامل الوضوح.

يعادي صاحبنا الفكر الانتظامي وله الحق في ذلك. لكن لنا الحق أيضاً أن نتمسّك بشيء من المنطق وأن نقول أن أي مرحلة من مراحل تطور شعب من الشعوب تمثل وحدة متجانسة، فالحكم عليها، سلباً أو إيجاباً، يجب أن يكون شمولياً، إما أنها في مستوى مطامح المرء وإما أنها فوق (أو دون) تلك المطامح. أين يقف صاحبنا من المرحلة التي يمرّ بها الآن المغرب؟

يرى أن الحماية السياسية قد أبدلت بحماية اقتصادية، أن الثورة الشعبية قد خنقت، أن أعضاء الهلال الأسود قد خدعوا، أن الأحزاب السياسية عوضت الإقطاعية المهزومة، وأن «الهيئة الثالثة» المكوّنة من الأقنان الذين لا يتقاضون أكثر من مائتي فرنك يومياً لم تحرر ولم تشارك في تخطيط مستقبلها..

نقول هذا كلام رجل ثوري حقيقي لم تخدعه التغيرات السطحية التي حصلت في بداية 1956 والتي حلّت بموجبها طبقة حاكمة مستغلة محلّ طبقة أخرى دون المسّ بالنظام الاستغلالي نفسه. كلام سمعناه مراراً في السنوات الأخيرة من الشيوعيين، يقبل أو يرفض، ولكنه على كل حال متماسك. إلا أن صاحبنا لا يقف عنده.

يرى أن التنظيم الحزبي الديمقراطي البرلماني الدستوري، المنقول عن الغرب، لا ينفذ إلى عمق الكيان المغربي، لا يؤثر في العلاقات الاجتماعية أو في الذهنية العامة أو في الأسرة، فالدستور الذي يعدنا به الجميع لن يكون أبداً نتيجة طبيعية لتطور عضوي. نقول: هذا كلام رجل محافظ يرى أننا تسرّعنا ولم نأخذ الوقت الكافي لندرس واقعنا التاريخي والاجتماعي، وأن الفجوة الحاصلة بين أقوال الأقلية المثقّفة وتصرّفات الشعب الأميّ ستؤول حتماً إلى فشل كل الإصلاحات المقترحة.

يفضّل أن نبدأ الإصلاح من القاعدة، أي من الأسرة لنرتقي منها إلى تغيير الذهنيات وأنماط السلوك قبل التفكير في الإصلاحات الدستورية. لكن الرجل المحافظ، الذي يرفض الطفرات الثورية ويحبّذ تحسين الأوضاع القائمة بالتدريج، عادة يكنّ التقدير للتقاليد، خاصة الطقوس الدينية، لأنه يرى فيها سرّ التماسك الاجتماعي.

غير أن صاحبنا لا يتحكّم في أعصابه عندما يسمع كلمة دين. يقرر «أن الشعب المغربي يعيش منذ قرون تحت حكم القرآن في نظام ثيوقراطي جامد.. فلا بد من تلقيح الإسلام، الذي لم يساير التقدم العلمي ولم يعد يلبّي حاجات الإنسانية المتقدمة، بشيء من البروتستانية».

نقول هذا كلام رجل متحرر معجب بإصلاحات مصطفى كمال..

لكن ماذا ينفع البحث عن تعريف اتجاه صاحبنا الفكري ما دامت كل فقرة من مقاله تشير إلى فلسفة تناقض الفلسفة التي ترتكز عليها الفقرة اللاحقة؟ لنعد إذن إلى السؤال الذي بدأنا به ما هو موقف صاحبنا من وضعية المغرب الحالية؟ هل هي فوق أو دون ما يتوخّى؟ هل يتمنى أن نتمادى في نفس الطريق أم أن نعود على أعقابنا قبل أن نتيه؟ هل هو تقدّمي متطرّف أم محافظ معتدل؟ معجب بالغرب أم غيور على تقاليدنا العريقة؟ أسئلة نتردّد في الإجابة عنها عندما نقرأ في الخاتمة: «لا بدّ أن يتعمّق التناقض بين الأجيال، بين أنماط العيش، بين الماضي والمستقبل» جملة يختلط فيها التمنّي بالتنبّؤ، وتتداخل فيها الاعتبارات النفسانية والاقتصادية والتاريخية، تداخلاً ينفع في الأدب لكنه يضرّ في السياسة. النقد دائماً مفيد ولكن إذا اتّجه إلى ميدان ما يجب أن يلازم المنطق السائد فيه. كتب صاحبنا مقالاً سياسياً يعلّق فيه عمّا يجري في وطننا فالمطلوب منه أن يوضّح لنا رأيه في قرارات الحكومة الحالية التي يشارك فيها ممثلون عن الأحزاب وشخصيات مستقلّة. هل تنمّ تلك القرارات عن رجعية متزمّتة أم عن افتتان متهوّر بالغرب؟ هل يفضّل صاحبنا أن نقلّد الأنظمة الغربية أم أن نحيي الأنظمة الإسلامية أم نبدع مؤسسات جديدة؟ السياسة تفرض دائماً الاختيار بين ممكنات. لا يستقيم أن نفرض في نفس الوقت الغرب والشرق، أن نكون معاً ثوريين ومعتدلين؟

هذا التناثر، أو التشتّت، هو القاسم المشترك لدى جميع الذين يرفضون الانضباط تحت راية سياسية معيّنة. تسأل أحدهم عن سبب انعزاله ورفضه لأي عمل

حزبي فيشرحها لك. إذا أخذت كل سبب على حدة وجدته معقولاً مقبولاً، لكن إذا نظرت إلى المجموع بدا لك التناقض لأن الارتياب في أهداف الأحزاب ليس هو الدافع الرئيسي إلى الانعزال، بل إرادة الانعزال هي التي تكون الدافع إلى البحث عن مبرّرات وبالتالي تختلف المبررات باختلاف الظروف والمخاطب فلا غرابة أن تتعدّد وتتناقض في النهاية.

إن النقاش مع هؤلاء السادة يطول بدون فائدة. يقفزون من مستوى إلى آخر، من ميدان إلى آخر. فلا سبيل إلى تحديد لبّ أي مسألة. ينفد معهم الصبر ويودّ المرء لو يصرخ في وجوههم: كونوا يا سادة شيوعيين أو رجعيين ولكن اختاروا أو اسكتوا. ولكنهم لا يختارون أبداً ولا يسكتون. يعارضون كل مقترح، ينقدون كل إجراء، يفنّدون كل تصريح. على شاكلة التروتسكيين لا يكفون أبداً عن المعارضة والرفض.

هذه إذن حالة نفسانية لا ينفع فيها النقاش ومحاولة الإقناع. لا بد من البحث عن جذورها الاجتماعية والتاريخية. إن ظهور الذهنية الفوضوية مرتبط في الأرجح، بالاحتلال الاستعماري. من الملاحظ أن غالبية هذه الجماعة من أصل بورجوازي. فيحقّ لنا أن نقول أنهم يعيشون موضوعياً حالة انشطار وانفصام. يعارضون النظام الاستعماري ويستفيدون منه في نفس الوقت. يثورون ضد آبائهم المتعاونين مع المستعمر وفي نفس الوقت يوظّفون، سرّاً أو علانياً، ذلك التعاون لمصلحتهم. يلمسون في تصرّف أقاربهم أن الدين وسيلة من وسائل استغلال الجماهير فيرونه عقبة في طريق التطور، لكنهم في الوقت ذاته يرفضون التنظيمات الغربية التي قد تحرّر الفلاح من عقده النفسانية. يتشدّقون باسم الشعب ولكنهم يسمونه في نفس اللحظة بجمود لا سبيل إلى كسره. يظهرون التعلّق بالتقاليد المغربية في الملبس والمسكن والمأكل ومع ذلك أفئدتهم مملوءة بما تعلّموه من أساتذتهم الأجانب إذ تخرجوا جميعاً من الثانويات الفرنسية..» (1956).

— 34 —

ـ التحليل ناقص؟

ـ محكوم عليه أن يبقى ناقصاً. لا أستطيع أن أميّز بين أفكار إدريس وشعارات الحزب.

ـ تظن أنه كتب بإيعاز؟

ـ لا أدري.
ـ إذا لم تعرف أنت الواقع من يعرف؟
ـ أكون قد عرفت في حينها ظروف تأليف القطعة، لكن لا أستحضر اليوم شيئاً من ذلك. نلمس هكذا صعوبة فهم ما ينحدر إلينا من مخلّفات الماضي، حتى المكتوبة بأسلوب سهل واضح بيد أقرب الناس إلينا. فما بالك بمن تفرّق بيننا وإياه الأزمان والأوطان. هذه قطعة لا تنسجم تمام الانسجام مع مسار إدريس الفكري. على الأقل في الظاهر. لنحاول فحصها نحن الاثنين، قد نجد لها معاً مبرّرات. أشعر في مواضيع كثيرة من هذه القطعة أنه يتكلّم باسم الحزب أكثر مما يتكلم باسمه. .

ـ تقول إنه تحزّب بعد إعلان الاستقلال؟
ـ أقول ان الوضعية الجديدة ضخّمت كل ما هو عمومي في فكره على حساب ما هو خصوصي فردي.

ـ وضعية لم تدم في تقديرك؟
ـ أعلم أنها كانت وراء ردّة عنيفة فيما بعد.

حشد إدريس ضمن الفوضويين كتّاباً لا يستحقون هذه التسمية بأي حال من الأحوال. قرأ لريشرد رايت قصته الشهيرة **الطفل الأسود** في صيف 1951 وأعجب بها ثم استمع له مرّة فيما بعد يحاضر في الحي الجامعي حول موضوع مستقبل أفريقيا. قرأ لكوستلر **الصفر واللامنتهي** وكذلك **برج عزرا** الذي كان عبارة على استطلاع حول الحركة الصهيونية في فلسطين مفروغ في قالب قصة. من هذا الكتاب بدأ إدريس يتحمّس للقضية الفلسطينية لشعوره العميق بالضيم الذي لحق السكان العرب الأبرياء. عرف أدريس ريمون آرون في مدرسة العلوم السياسية. كان، مثل لوزينكي، رجلاً يمينياً ولكنه كان يعرف معرفة دقيقة كتابات ماركس، الاقتصادية منها بخاصة. تعلّم منه إدريس أن يعود إلى النصوص دون الاكتفاء بالاستشهادات المبسّطة المأخوذة من أعمال ستالين والمنشورة في المجلات الروسية كما كان يفعل معظم الطلبة الشيوعيين، المغاربة والفرنسيين. قرأ لموريس ميرلو ـ بونتي مؤلف **مغامرات المنطق الجدلي** الصادر سنة 1955 والذي يكشف عن مغالطات سارتر الفلسفية، عن التناقض المستمر بين عقيدته الوجودية واختياراته السياسية الموالية للحزب الشيوعي.

لا شيء يجمع بين هؤلاء الكتّاب في عمق الأشياء، حتى ولو كان كل واحد

منهم قد تأثر في وقت من الأوقات بالماركسية السوفياتية قبل أن يبتعد عنها وينتقدها. فلا أرى كيف استطاع إدريس أن يحشرهم جميعاً في خانة واحدة أطلق عليها اسم جماعة الفوضويين ويجعلهم كلهم في مستوى الكاتب المغربي، لسبب واحد هو أنهم كتبوا كلهم في مجلّة واحدة. أرى هنا غلبة المنطق الحزبي على التحليل الموضوعي الرصين. يبدو أن إدريس كان يطالب آنذاك من كلّ مثقّف أن يختار، أن يلتزم بموقف سياسي محدّد وأن يبقى وفياً باستمرار لذلك الالتزام مهما تغيّرت الظروف والأحوال. ينتصر للانضباط بصفة عامة مهما كانت الحركة التي ينتمي إليها المرء. هذا مع أنه هو قد انتقد الحزب قبل وبعد أن ينضمّ إليه، وعند إبعاد الملك محمد الخامس عبّر عن أفكار لا تختلف عن ملاحظات الكاتب المغربي.

ـ كما لو أراد أن يفرض انضباط الشيوعيين على الطلبة الوطنيين!

ـ بالفعل كانت مسألة الانضباط تشغل بال المغاربة والفرنسيين، الوطنيين والشيوعيين. في المغرب انهار النظام الاستعماري ولم يستقر بعد النظام الوطني الجديد، في الشرق توالت الانتفاضات العسكرية في ظل حرب إسرائيلية عربية مرتقبة، في الكتلة الشرقية ثار العمّال في برلين ثم في هنغاريا وتسرّبت من الاتحاد السوفياتي أخبار حول تقرير خروتشوف الذي رفع القناع عن جرائم ستالين، مما دفع الكثيرين، الذين كانوا ينفونها بشدّة عندما كانت تفضحها الصحف اليمينية، إلى مغادرة الحزب الشيوعي لما اقتنعوا بصحّتها.. فعلاً كثر الكلام عن الانضباط في تلك الفترة.. ومع ذلك أتعجّب أن يكون أدريس قد انتصر له بهذا الحماس!

ـ قلت انه كان لا يحكم على صحة الفكرة بقدر ما كان يحكم على صدق قائلها..

ـ هذا هو التفسير الصحيح بدون شك. لم يدافع عن الانضباط تحت لواء حزب معيّن بل كان يطالب بالصدق في الفكر مهما كان. ينتقد هو نفسه الدين كممارسة سياسية، لكن عندما يقرأ نفس النقد بقلم الكاتب المغربي يتضايق منه لأنه لا يطمئن لحسن نيّة قائله كما يطمئن إلى حسن نيته هو.. يهاجم بهذه الحدّة الخلاعة الفكرية لأنه لم ينفكّ يشمئزّ من تلك الجماعة التي نبذت الاستقلال عندما ظنّت أنه استبعد في مستقبل محجوب ثم، عندما رأيته يتحقّق بعد سنين فقط من المحنة والانتظار، هرعت إلى الدار البيضاء لتستقر في مقاعد الأجانب وتجمع أموالاً طائلة باسم التقدميّة ومحاربة الأحزاب ذات القيادات البورجوازية الصغيرة.

- هؤلاء انتهازيون لا فوضويون.

- كلمة فوضوي في غير محلها بدون شكّ. المهمّ أن التيار الذي نقده إدريس بشدّة لم يختف مع الاستقلال بل عاد إلى الظهور وبقوة في فترة لاحقة.

- متجاوزاً أبناء الطبقة البورجوازية.

- صحيح. ولكن القيادة بقيت في معظمها من نفس الأصل. ومن دلائل الاستمرار التاريخي أن التيار اللّاحق ردّ الاعتبار للكاتب المذكور ولم يعد أحد يتذّكر المقال الذي أغضب إدريس.

- السياسة همّ يومي.

- تعني أن لكل يوم همومه!

***

مرت سنة على عودة الملك من المنفى. ألغيت معاهدة الحماية وألّفت حكومة مؤقتة للتفاوض مع فرنسا في مسألة نقل السلطة من الفرنسيين إلى المغاربة. استعاد المغرب شخصيته الدولية فأسّس وزارة للشؤون الخارجية ونظّم جيشاً عصرياً أدمجت فيه فرق المقاومة المسلّحة. توالت الأحداث العنيفة الغامضة. حاول الفرنسيون أن يحافظوا على أكبر قدر من الامتيازات في حين صمّم المغاربة على أن ينتزعوا أكبر قدر من الصلاحيات، فكانت العلاقات الفرنسية المغربية لا تجتاز أزمة إلا لتسقط في أخرى، في نفس الوقت احتد الصراع بين الأحزاب المغربية. طالبت الأغلبية بتكوين حكومة منسجمة قوية قادرة على مواجهة الضغوط الفرنسية المتوالية وتطبيق برنامج إصلاحات جذرية فصاحت الأقلية أن البلاد على وشك الانزلاق إلى هاوية استبداد الحزب الواحد.

عاد إدريس في هذا الجو المكهرب. فهم في حين أن الاستقلال المعلن لن يكون، كما توهّم هو وزملاؤه، إشارة الشروع في تطبيق إصلاحات شاملة تخرج المغرب من أوضاعه المتردّية. أدرك أن هدف الحكومة، أية حكومة، لا يتعدّى التمرس على تسيير الجهاز الموروث عن الحماية وهو تدريب لا يعلم أحد كم يتطلّب من شهور وربما من السنوات. لم يكن الصبر من طباع إدريس، ومع ذلك لم يترك نفسه تنساق في البداية إلى اليأس. لم يقل مع القائلين المتسرّعين: الاستقلال كلمة جوفاء، شعر في عمق أعماقه أن الشعب المغربي حقّق نصراً عظيماً عندما فرض على

الخصم عودة الملك الشرعي إلى عرشه. حضر حفلات ذكرى 18 نوفمبر وكتب بالمناسبة:

— 35 —

«عيد العرش عيد انتصار الحق على الباطل. قال المستعمرون أن المغاربة، كباقي العرب والمسلمين، يخضعون دائماً للقوة. إذا أظهرنا العزم وقطعنا رؤوس الفتنة رأينا المغاربة قاطبة لنا راكعين وحكمنا البلد كما نريد. نفوا الملك الشرعي، سجنوا الوطنيين، فما لان المغاربة ولا خضعوا، بل ثاروا ثورة عزّة وإباء وأقاموا الدليل القاطع على أن الإسلام ليس دين استسلام.

عيد العرش عيد انتصار الصدق على الكذب. قال الخبراء في الشؤون الأهلية ان العرب والمسلمين لا يفهمون معنى للوطن. يعيشون بأجسامهم في دائرة الحومة أو القبيلة وبأذهانهم في نطاق الأمة الإسلامية. أما الوطنية المغربية المزعومة فإنما تخيّلها طلبة درسوا في فرنسا وتأثّروا بأنظمتها وعادوا إلى بلدهم وهم غرباء عن شعبهم. تشوشّت عقولهم فبدأوا يشوّشون على غيرهم وما داموا قد انعزلوا فلنزدهم عزلة على عزلتهم، لنودعهم السجن حتى لا يشيع ضررهم. والملك، عوض أن يتبرّأ منهم أو يعمل على ردّهم إلى رشدهم، قرّبهم ورعاهم وبذلك ابتعد عن عامّة شعبه. فليبعد إذن من العرش ومن المغرب. نفوا الملك وسجنوا الوطنيين ثم ماذا حدث؟ ظهر للجميع أن المغاربة يدركون أن ما قيل عن تناقض مزعوم بين الدار والإيمان/57 ليس إلا محاولة لتفتيت مقوّمات الأمة وحلّها إلى أفراد مبعثرين يسهل بعدئذٍ دمجهم في كيان آخر.

عيد العرش عيد انتصار الإنسانية على الوحشية. أي وحشية أكبر من أن يحصر المرء الإنسانية في نفسه وينفيها عن غيره كما يفعل الأوروبيون عندما يدعون أنهم وحدهم أصحاب عقل وإنجاز وأن غيرهم نائم حالم لا يكاد يصحو من سيطرة الأوهام والأساطير؟

انتصرنا على خصومنا دعاة الباطل وأنصار العنصرية المقيتة. وترجمنا انتصارنا إلى إصلاحات حقّقنا منها في بحر سنة واحدة ما عجزت عن تحقيقه فرنسا طيلة أربعين سنة مع أن السلطة لم تفوّض لها إلا بهدف إصلاح جهاز المخزن. هل وصلنا إلى الغاية؟ لا طبعاً. ما زلنا في الحقيقة في بداية المسيرة. سيمرّ وقت طويل قبل أن نكون قد قضينا على جميع مخلّفات نظام عتيق لم يدم إلا لأن فرنسا أرادت له

البقاء خدمة لمصالحها الاستعمارية. ان الانتقال من عهد الإقطاع إلى العصر الحديث تطلب قرنين كاملين في أوروبا الغربية ونرى اليوم روسيا بعد أربعين سنة من حدوث ثورة عارمة عنيفة لا تزال تكدّ وتجهد لتنزع آثار الاستغلال والاستقنان من السلوك والأذهان. اننا إذ نحدّد أهدافنا الإصلاحية نذكّر بعامل الزمن وأن الشعوب لا تتطوّر بوتيرة تحوّلات الحياة الفردية. سنحقّق كل ما نصبو إليه، مهما طالت الأعوام، بفضل عزيمة شعبنا وإجماع زعمائنا وتفتّح ملكنا..».

— 36 —

- يتكلم هنا أيضاً بلغة الجماعة.

- أو تحت تأثير الجو العام. أتصوّر أنه كتب القطعة وهو في المغرب تحت أنظار المواطنين والزعماء. يفنّد أقوال المعارضين خارج وربما حتى داخل الحزب، محاولاً إقناعهم أن الظروف لا تسمح بإنجاز أكثر مما أنجز فعلاً. هذه لغة الجماعة، لغة القيادة، ومع ذلك نلتقط من خلالها شيئاً من لهجة إدريس. عندما يشرح مغزى انتصار الشعب المغربي لا أظن أن تحليله كان شائعاً بين الوطنيين. يفرح لا بسبب الإنجازات، إذ لا يتعرض لها بتفصيل، بل لأن الشعب المغربي أفلت من خطر الانحلال والتفسّخ.

- كان أول قرار مهمّ اتّخذته الحكومة بعد إعلان الاستقلال إلغاء الظهير البربري.

- لا أظن أن أدريس يعني هذا الإجراء بالضبط. يعتقد أن الوجود الاستعماري. لو كتب له أن يطول، لانتهى بمجرّد استمراره إلى فسخ الكيان المغربي. الاستعمار مسألة استغلال وتمييز طبقي في عين الكثيرين، والشيوعيين بخاصّة، لكنه في عين إدريس، أثناء الفترة التي نتكلّم عنها، مسألة حياة أو موت. اعتقد إدريس أن الشعب المغربي أفلت بأعجوبة، فكان كمن أنقذ بعد يأس، غمرته الفرحة أولاً ثم عاد إلى نفسه فرأى الواقع -

- ماذا رأى بالتحديد؟

- رأى الشعب فقيراً جاهلاً مريضاً. رأى تلك الآفات والعاهات لأنه لم ينغمس كغيره في العمل الإداري اليومي. وبالمناسبة أذكر أننا نحن الذاهبين إلى فرنسا والعائدين منها كنا ضحية سراب. ظننا أيام الحماية أن كل ما يوجد على أرض

الوطن ملك لنا فتخيّلنا المغرب أكثر تقدّماً مما كان في الحقيقة. وعند الاستقلال أدركنا بغتة أن كل ما كنّا نشاهد هو ملك لفرنسا وللفرنسيين وأننا حتى لو أردنا اقتناءه لما استطعنا ذلك إلا بعد زمن طويل. بدت لنا الهوّة السحيقة بين الواقع والأماني. فهمنا أن الانطلاقة ستكون من نقطة وطيئة جدّاً جدّاً.

ـ فعمّت إذن الخيبة وبدأت الردّة.

ـ لجأ البعض إلى التطرف كوسيلة للهروب من مواجهة الواقع. أما إدريس فإن القسم العمومي من فكره قد تقلّص وتضخّم القسم الخصوصي. تحوّل متعلّق عواطفه من هيئة توهّمية تدعي الوطن إلى شخص ملموس.

ـ كانت وطنيته دائماً شكلاً من أشكال الافتتان.

ـ ومن هذه الوجهة، التي لم يدركها الخبراء في الشؤون الأهلية، قد نفهم دعواهم أن فؤاد المسلم دائماً مقسّم بين الدار والإيمان، نفهم ذلك الآن لا آنذاك.

ـ نعم «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه»/58.

الفصل السادس

# الهوية

— 37 —

أتصور أن الألماني أو الهولاندي أو الإنجليزي عندما يضع قدمه على أرض باريس يقول: الآن قد تجاوزت خط الليمس. /59 الآن أستنشق هـواء لاتينيا كاثوليكياً.

جاء إدريس إلى باريس فزاد وعيه بوطنيته المغربية، وزاد أيضاً وعيه بخصوصيته الحضارية. بدأ يفهم معنى قوله: أنا مسلم. صدرت في ذلك التاريخ كتب كثيرة حول ما يسمى بنهضة الإسلام ونوقشت في عدة مناسبات. استمع إدريس إلى النقاش وشارك فيه بكيفية مباشرة وغير مباشرة. أخذ الكلمة في التجمّعات وسجّل ملاحظات لنفسه. كان ذلك جانباً من تكوينه الفكري والوطني.

في صيف 1951، بعد إحرازه على القسم الأول من الباكالوريا، قرأ أدريس قصة تحت عنوان «الساعة الخامسة والعشرون لكاتب روماني يدعى فيرجيل جيورجيو وأعجب بها كثيراً. عندما استقرّ في باريس اكتشف أن شخصية المؤلف تثير نقاشاً عنيفاً. بينما يقول المعجبون بالقصة أن مؤلفها مسيحي صادق الإيمان غادر بلده بعد أن سقط في أيدي الشيوعيين الملحدين يزعم آخرون أنه متابع في رومانيا لأنه تعاون مدة طويلة مع السلطات النازية. قبل أن يكتشف إدريس هذا الجانب من شخصية جيورجيو كان قد عزم على ترجمة قصته وأن يصدّرها بمقدمة يقول فيها:

— 38 —

«هذا كتاب يتعرض لمشكلة حضارية تهمّ الشباب المغربي الحائر بين اتجاهين وبين حضارتين. ينبهنا جورجيو أن الغرب قد دخل بالفعل المنعرج الخطير

الذي كان يخشاه أورّل في كتابه 1984.

لم يعد الغرب ينظر إلى الإنسان إلا من الوجهة الاجتماعية. جعل منه كياناً مسطّحاً، ذا بعد واحد أقل تعقيداً من الآلة التي يبدعها ويتفنّن في اتقانها. كتاب جورجيو متشائم، كلّه بكاء ونحيب على ما ضاع من الإنسان الغربي إلى الأبد. يقول أحد أبطال القصة وهو أميركي: هذه حرب بين الغرب والشرق، بين الحضارة والهمجية. فتجيبه يهودية: ما تسمّيه الشرق إنما هو القسم المتطرّف من الغرب.

إذا كان جورجيو يعتقد أن لا فرق اليوم بين المعسكرين، الشرقي أي الشيوعي والغربي أي الرأسمالي، لأن الاثنين نسيا الأهداف الحقيقية للإنسان، فلماذا لا نعتقد نحن أن الخلاص قد يأتي من الشرق الفعلي، الشرق الشرقي جغرافياً وثقافياً وتاريخياً.

لكن الشرق يمرّ اليوم بأزمة فكرية وروحية. خدعه الغرب باختراعاته المغرية. والمغرب يوجد بين عالمين. عليه أن يختار بين ولا شيء أثقل على النفس من الاختيار.

إذا كان بيننا من يظن أن أيسر سبيل نحو التقدّم هو تقليد الغرب فما عليه إلّا أن يراجع ما تقوله الفتاة اليهودية. كانت روسيا شرقية إلى غاية 1917 ثم عندما غلب البلاشفة وأسكتوا كل من يردّد دعوة السلافيين اندفعت بكل قواها وبدون تردّد فقلّدت الغرب كما يقلّد الأجلف المتحضر. فأصبح الروس أكثر قساوة من أساتذتهم، قضوا على الحرية وعلى كل شعور إنساني باسم العلم والإنتاج. ان البشرية في غنى عن مثل هذه التجربة. سيحاسب التاريخ روسيا لأنها أخذت كل شيء من غيرها ونسيت كل شيء عن نفسها».

لا أسوق كلام جورجيو لأدلّل على إفلاس الحضارة الغربية، بقدر ما أريد أن أثبت للشباب المغربي الذي يشعر اليوم بمركّب نقص: لا موجب لليأس، أمامنا مستقبل، أمامنا دور احتفظ التاريخ لنا به، إذا لم نتنكّر لنفسنا. إذا جاهدنا وحافظنا على هويتنا الإسلامية الشرقية.

لنا المشرق ولهم المغيب..».

— 39 —

ـ هل تظن أن إدريس كتب هذه السطور في باريس؟

ـ لا أدري. يحمل هذه الأفكار من لم ير الغرب بعينه، ويقول بها أيضاً من عاش في الغرب منعزلاً مهجوراً. على كل حال لا يمثّل هذا الموقف إلا نقطة انطلاق في مسيرة إدريس الفكرية، مسيرة عادت على أعقابها وانعكست على نفسها.

يلوذ إلى طريقة (وشاهد شاهد من أهلها)/60. يأخذ حكم أحد الغربيين على أنه حقيقة الغرب. من ضمن له جورجيو صادق وأنه مؤهل لسبر أعماق الحضارة الغربية؟

نحن لا نحكم على الإسلام بأقوال أحد المسلمين مهما يكن.

ـ كان إدريس لا يزال جاهلاً بأمور كثيرة. لذلك وافق على أن روسيا تغربت سنة 1917.

ـ وافق على قول جورجيو أن البلاشفة فرضوا تقليد أوروبا تقليداً شاملاً.

ـ البلشفية في الواقع نتيجة حتمية لسلسلة طويلة من الاختيارات، منذ أن اعتنقت روسيا المسيحية لتتحرر من التتر المسلمين لم يكن إدريس قد قرأ كتاب أورّل، وإلا اكتفى به عن قصّة جورجيو السطحية.

ـ أليس المهمّ الاعتراف بالمواجهة بين الشرق والغرب؟

ـ الانطلاق من المواجهة يكيف دائماً الاختيارات اللاحقة مهما كانت. كيف ما كان الطرف المختار فإنه يحتفظ بشيء من الطرف الملغى. تغربت روسيا ولكنها لا تزال شرقية في عين الغرب.. تنصرت ألمانيا ومع ذلك لا تزال وثنية في عين الفرنسيين والإيطاليين..

* * *

يحتلّ مشكل العلمانية أو فصل الدين عن الدولة حيزاً كبيراً من كتاب علال الفاسي النقد الذاتي: كان أعضاء الأقلية اليهودية، وبعض الفرنسيين المتعاطفين مع المطالب الوطنية، والشيوعيون وكذلك العناصر الإصلاحية داخل الأحزاب الوطنية يطرحون بإلحاح السؤال التالي: على أي أساس سينظّم المغرب المستقل؟ هل يلغي كل الإجراءات التي اتّخذتها إدارة الحماية في مجالات التعليم والقضاء والاقتصاد أم يحتفظ بها وربما يوسع تطبيقها إلى مجالات وقف عندها المشرّع الفرنسي؟ في الحالة الأولى سيعود المغرب إلى وضعية دولة ثيوقراطية يصعب على غير المسلم أن يعيش

فيها، في الحالة الثانية سيكون دولة عصرية ديمقراطية مفتوحة للجميع.

في المقابل كانت توجد جماعة، ممثّلة في جميع الأحزاب الوطنية، ترى إلى الأمور من زاوية أخرى. تقول ان الإدارة الفرنسية حاولت بكل قواها أن تهمّش الشريعة الإسلامية. نظّمت المعاملات على ضوء القانون الغربي اللاّتيني بدون اعتبار للحالات التي تكون فيها الاجتهادات الشرعية أقرب إلى العقل والعدل. اضطرّت إلى الوقوف عند العبادات والأحوال الشخصية لكي لا تثير مشاعر المسلمين ولكن سياستها البربرية كشفت على أنها عندما تعجز عن إزالة الشرع من حياة المغاربة فإنها تحاول أن تنزع المغاربة من إطار الشرع حتى تعود المحاكم الشرعية بنايات أثرية فارغة. ماذا يعني الإسلام سوى الاعتراف بدوام صلاحية القواعد المنزّلة؟ إذا اقترن الاحتلال بنفي الشرع فلا يمكن أن يعني الاستقلال إلا عودته إلى الصدارة. يجب إذن على المشرّع بعد تحرير البلاد أن ينظر في إجراءات الإدارة الفرنسية، يجيز منها ما وافق روح الشريعة ويلغي ما ناقضه.

في هذا المنظور السيادة الحقيقية في البلاد هي للشرع وله وحده.

ـ لم يتّضح هذا الرأي إلا بعد الاستقلال عندما ألّف علال مقاصد الشريعة. /61.

ـ نعم ولكن المقدمات كانت موجودة في النقد الذاتي. وهذا ما أدّى إلى انشقاق داخل حزب الشورى والاستقلال.

كان اختيار علال واضحاً، ثيوقراطياً في تعريف معارضيه. لكنه كان يرفض بشدّة التعريف باعتبار أنه يحيل على تجربة مسيحية غربية بعيدة كل البعد عن الإسلام. وهذا الجانب المنهجي هو الذي لفت انتباه إدريس.

كتب حوله هذا التعليق سنة 1955:

— 40 —

«إن العلمانية من المسائل التي يجب أن نفكّر فيها باستمرار وبجدّ لأن الفصل فيها صعب للغاية. ليست القضية أن نكون مع أو ضد الدولة العلمانية ولكن هل السؤال نفسه ذو موضوع في نطاق مجتمع إسلامي. ألا يجب أن نبدأ بتحليل تاريخي للمفهوم؟ تقترن اليوم العلمانية بالديمقراطية حتى لنتخيّل أن المفهومين يدلاّن على حقيقة واحدة، ألا يمكن أن يكون ارتباطهما من نتائج الصدفة والاتّفاق؟

لم تكن المسيحية في بداية أمرها مرتبطة بنظام اجتماعي معيّن. كان القس يعمل للتأثير في ضمير الفرد ولا يتطلّع إلى تسيير شؤون الدولة تبعاً لقولة المسيح: أعطوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله. كانت المسيحية آنذاك أقلية مضطهدة تتمنّى فقط أن يسمح لها أن تقيم شعائر دينها وألا ترغم على عبادة الأوثان.

لكن عندما أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية الـرسمي، اندمجت الكنيسة في هياكل الدولة واستحوذ القس على جميع مظاهر الحياة الخاصة والعامة. نسي مبدأ فصل الدين عن الدولة مدة قرون حتى بعد أن انتعشت السلطة المدنية في إطار امبراطورية رومانية غربية جديدة غلب عليها العنصر الجرماني. فنشب في الحال صراع عنيف بين الامبراطور والبابا وطالب أنصار الأول أن يعود الثاني إلى وضعه السابق مذكّرين بمبدأ الفصل. توالت الحروب بين السلطتين بدون أن تنتصر احداهما انتصاراً حاسماً على الأخرى حتى بداية العهد الحديث.

عندئذ تبلور البرنامج العلماني على أربع مراحل:

**أولاً**: تحرير الضمير الفردي من مراقبة رجال الكنيسة.

كان من نتائج حركة النهضة أن تعرّف المثقفون على الفلسفة اليونانية والقانون الروماني. فأعجبوا بأخلاق الحكماء والمشرعين القدماء وتمنّوا لو يعيشوا مثلهم عيشة فاضلة خاضعة فقط لدوافع الضمير وأوامر العقل. لم تعد لهم حاجة إلى القس الذي لا يتقيّد في الغالب هو نفسه بتعاليم الإنجيل. هؤلاء المفكّرون الذين أرادوا أن يتحرروا من سيطرة الكنيسة (من هنا كلمة ليبرتين) اتّهمتهم هذه بأنهم يرغبون فقط في الانفلات من ضوابط الأخلاق لكي ينغمسوا في الملذّات وحوّلت الكلمة إلى معنى الزندقة.

**ثانياً**: تحرير الدولة من النفوذ الخارجي.

اتّضح هذا المطلب أثناء حركة الإصلاح. قطعت الدول البروتستانية روابطها بالبابا، واستولت على ممتلكات القساوسة والرهبان وأمّمت التعليم وأسّست كل منها كنيسة قومية خاضعة لرئيس الدولة. وحتى البلدان التي لم تتغلّب فيها الدعوة البرتستانية شعرت الدولة فيها أن من مصلحتها حصر النفوذ البابوي في ميدان العقيدة دون تجاوزه إلى الإدارة والسياسة. ونرى في فرنسا الكاثوليكية الملك لويس الرابع عشر يذكّر البابـا بحقوق الدولة في تعيين رجال الدين.

ثالثاً: إلغاء احتكار الكنيسة للتربية.

كان هذا المطلب جوهر فلسفة عهد الأنوار. رأى فلاسفة ذلك العهد في الكنيسة آلة دعاية لصالح نظام إقطاعي مناف للعقل والحق معاً. فحاربوا استحواذ الجمعيات الرهبانية على التعاليم بجميع أطواره، وخصّوا بالنقد اليسوعيين الذين قادوا مدة قرون محاكم التفتيش والذين تدرّبوا على محاربة كل فكرة جديدة. فطالبوا بأن تشرف الدولة مباشرة على تربية الصغار لفتح أعينهم على علوم جديدة نافعة تجعل منهم رجالاً متفتّحين منتجين فضلاء لا آلات طيّعة في أيدي قساوسة متزمّتين.

رابعاً: تحرير الطبقات الفقيرة، خاصة الطبقة العاملة، من تأثير الكنيسة.

ألحّت على هذا المطلب الحركة الاشتراكية في القرن التاسع عشر. كانت البرجوازية علمانية عندما كانت الكنيسة أرستقراطية إقطاعية. لكن بعد تجربة الثورة الفرنسية أصبحت الكنيسة تدافع عن الملكية في صيغتها العامّة وشعرت البورجوازية بضرورة وجود هيئة تعلم الفقراء الخضوع والانقياد. فعاد الأغنياء يبعثون أطفالهم إلى المدارس الكنسية وكان من الطبيعي أن يهاجم الاشتراكيون هذا التحالف لأنه يشيّد سدّاً منيعاً في وجه نشر أفكارهم. وضعوا في مقدّمة الإصلاحات إبعاد الكنيسة عن كل وسائل التأثير في الرأي العام، خاصة في أذهان الصغار والنساء والمعوزين. فاحتدّ من جديد النزاع حول مشكل التعليم.

هذه بإيجاز أهم المراحل التي مرّت بها علاقة الكنيسة بالدولة منذ بداية العهد الحديث استخلصناها من التاريخ الفرنسي. هل يصدق هذا التحليل على دول أخرى؟ التاريخ الفرنسي في هذه النقطة نموذجي بالنسبة لجميع الدول الكاثوليكية في أوروبا وأمريكا اللاتينية. أما الدول البروتستانية فإنها لم تعرف مواجهة عنيفة بين السلطتين لأنها تحرّرت من نفوذ البابا منذ القرن السادس عشر، وتحقّقت فيها مبكراً المطالب الثلاثة الأولى والمسجّلة في البرنامج العلماني. ما حصل في ألمانيا الموحدة أواخر القرن التاسع عشر والمعروف تحت اسم الجهاد من أجل الثقافة (كولتور ـ كامبف) فإنه كان صراعاً بين الدولة البيسماركية اللوثيرية الاتجاه البروسية التنظيم والكنيسة الكاثوليكية المتجذرة في جنوب وغرب ألمانيا. كذلك لم تعرف الدولة الأورثوذوكسية مشكل العلمانية كما حلّلناه لأن السلطتين الروحية والمدنية متّحدتين في شخص رئيس الدولة منذ الانفصال الأكبر الذي فرّق في القرن الرابع المسيحيات الشرقية عن المسيحية الغربية. لكن في جميع هذه الدول نلمس المطلب

الرابع الذي ترفع شعاره الحركة الاشتراكية. عندما تغلبت الماركسية في روسيا طبقت البرنامج العلماني بحذافيره. جرّدت الكنيسة الأورثوذوكسية من ممتلكاتها ومن دورها التعليمي وحوّلتها إلى جمعية تطوّعية تتمتّع بحرية العقيدة على قدم المساواة مع أعدائها الملحدين. لا شيء إذن في تاريخ الدول المسيحية غير الكاثوليكية يتعارض مع التحليل السابق الذي اعتمدنا فيه أساساً التجربة الفرنسية.

نرى أن مفهوم العلمانية مقيّد بظروف تاريخية معينة.

الظرف الأول وجود أقلية تخشى أن تستعمل ضدّها قوة الدولة فتطالب أن تبقى هذه في حياد وتترك المشكل يحسم على الساحة الفكرية. كانت هذه حالة المسيحية في بدايتها وكانت كذلك حالة حركات إصلاحية كثيرة ومن ضمنها الماركسية. إلا أن مطلب تحييد القوة العمومية دائماً ظرفي، عندما تنقلب الأقلية أغلبية ينسى عادة.

الظرف الثاني ارتباط المنظمة الدينية بمركز دولي يجعلها تقدّم أوامر ذلك المركز على متطلّبات الدولة التي تعيش في نطاقها.

الظرف الثالث استقلال الكنيسة بالتعليم واستغلال هذا الاحتكار لخنق كل ابتكار.

الظرف الرابع أن تكون الكنيسة طبقة في مجتمع طبقي فلا تفرق بين الدفاع عن موقعها وعن النظام ككل.

إن مجموع هذه الظروف يجعل البرنامج العلماني يندرج تحت المشروع التحريري القومي الديمقراطي إذ يتوخى تحرير الدولة من التأثير البابوي، والمجتمع من الفكر الإقطاعي، والعقل من الدعاية الكنسية، والضمير من تأثير القسّ. يستتبع كل هذا أن يتجسّد الدين في منظمة تفوق الدولة تماسكاً وقوة وعزيمة.

الآن نتساءل: هل للعلمانية، بالمضمون الذي حلّلناه الناتج عن تطور تاريخي محدّد، أساس في المجتمع المغربي؟ هل توجد كنيسة بالمعنى المتعارف عليه تنفرد وحدها بتعليم وتربية الشباب تفرض اختياراتها الاعتقادية بقوة الدولة، تحارب كل اجتهاد مهما كان نوعه، تحتل مكانة متميّزة في المجتمع تجعل منها ركيزة النظام كله، وأخيراً تخضع لتعليمات تأتيها من خارج الوطن؟

في نفس الوقت، لا يكفي أن نجيب: لا شيء مما ذكر موجود عندنا على

الوجه المخصّص فلا نفع لنا بالخوض فيه. فهذه أمور لا تعنينا من قريب أو بعيد. يجب أن نتساءل: ألا توجد تلك الأمور عندنا في ثياب أخرى؟ ألا يمكن أن تظهر في أطوار لاحقة من مسيرتنا؟

ما يفصل التحليل التاريخي عن التحليل القانوني هو عدم الوقوف عند الشكل، إذا أردنا أن نستفيد منه يجب أن نرى بالنسبة للغرب ماذا يخفي مشكل العلمانية من مشاكل سياسية عامّة وبالنسبة لنا ما هي المسائل التي توازي في مجتمعنا القضايا التي تبلورت في الغرب في ثوب العلمانية وإلا استخلصنا ما نعرف منذ البداية وهو أن مجتمعنا مخالف للمجتمعات الأوروبية.

علينا أن ندرس قضية العلمانية في إطار التاريخ الغربي، لا لنعرض عنها كما لو لم تمسّنا في شيء، ولا أن نتولاها كما لو كانت قضية ملحّة علينا، بل لنستخرج منها العبرة تحسبّاً لما قد ينجم من معضل سياسي أثناء تطورنا الذي سيكون لا شكّ سريعاً جدّاً..»

— 41 —

ـ هذه محاولة للردّ على علال أو لتوسيع رقعة النقاش؟

ـ ربما كان هدف المحاولة مزدوجاً، لكنها بقيت ناقصة اما لشعور بقلّة معلوماته واما لإحجام الاستنتاجات. يعترف من جهة أن القضية في أوروبا وخاصة في فرنسا قضية الكنيسة كهيئة اجتماعية أكثر ممّا هي قضية دين. ولكنه من جهة أخرى غير مقتنع أنه لا يوجد في المجتمع الإسلامي تنظيم لرجال الدين يحل محلّ الكنيسة رغم أنه غير مستقل عن الدولة وغير تابع لسلطة خارجية. يطرح مشكل العلمانية بكيفية حادة في إطار الكاثوليكية ويطرح بشكل مختلف عند البروتستان والأورثودوكس. ألا يطرح أيضاً ولو بكيفية أكثر اختلافاً، عند المسلمين؟ هذه النقطة لم يتعرض لها علال لأن تكوينه قانوني (فقهي) بالأساس وأيضاً لأن معلوماته كانت ناقصة.

ـ ومعلومات إدريس؟

ـ لم يكن تاريخ الكنائس المسيحية معروفاً بالقدر الكافي ولا التاريخ الاجتماعي للشعوب الإسلامية خاصة غير العربية. لا تكفي معلومات مستقاة من موجز تاريخ **الفكر الحر/ 62**، خاصة في فرنسا، لطرح المشكل في إطاره الحقيقي.

يقول علال: لا رهبانية في الإسلام، لا كنيسة في الإسلام، لا توجد في

الإسلام سلطة سياسية يتمتع بها رجال الدين. إذن لا معنى للكلام عن وجوب فصل السلطتين، إذ الإسلام هو دين وطني تحرري اجتماعي ديمقراطي، بحيث المطالب التي تسعى إلى تحقيقها الحركة العلمانية في أوروبا ولا ترى سبيلاً إلى الحصول عليها إلا بواسطة القضاء على الكنيسة ونفوذها، نجدها محقّقة في الدعوة الإسلامية نفسها كما لو كانت الدعوة الإسلامية أول انتصار للحركة العلمانيـة في إطار الإمبراطورية على استعباد الناس مادياً وروحياً.

هذه نظرية تستحق أن تناقش بجدّ ولكنها بعيدة عن المشكل المطروح. لا تجيب على المسألتين المضمّنتين بعيدة في قضية العلمانية: مضمون الدولة وامكانية تجريد الدين عن كل عماد بشري قد لا تكون هناك ازدواجية دولة وكنيسة وتكون الدولة نفسها كنيسة، إذن ما وجه الدولة؟ ما العمل إزاء هذه الدولة؟ ثم لكل فلسفة حزب يدافع عنها، هل تستمر الدعوة الإسلامية باعتبارها مجموعة مقولات فكرية وأخلاقية وروحية واجتماعية بدون جماعة تدافع عنها وتفنّد ادعاءات أعدائها؟ إذا لم يكن حزب ديني ولا كنيسة الا يتحتم على الدولة أن تقوم بذلك الدور؟ ماذا يكون موقف الاتجاهات الأخرى في هذا الوضع؟

بل دور الكنيسة في تاريخ الغرب نفسه لم يفهم على وجهه الحقيقي. الأثر السلبي مفهوم لأن الحركة العلمانية ركّزت عليه ولأن الكتاب المسلمين يلاحظونه في حالة المسيحية الشرقية البئيسة. ولكن الأثر الإيجابي لا يظهر إلا لمن تعمّق في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي. سيجد تحليلات أكثر إيجابية، حتى عند الكتاب البروتستان، تفتح له آفاقاً واسعة للمقارنة. لم يكن هذا غرض علال ولكن قلة المعلومات تنتهي حتماً إلى استنتاجات ناقصة.

ـ ألم يطرح المشكل فيما بعد في إطاره الواسع؟

ـ الواقع أن مشكل العلمانية لا يحسم أبداً لا في الميدان الفكري ولا الميدان العملي، لا بالاقناع ولا بالقوة، لأنه مشكل ـ رمز يخفي وراءه مشكلات متعددة. إنه في العمق مشكل علاقة الفرد بالدولة فيتّخذ صوراً مختلفة حسب المكان والزمن تتطور الأوضاع وتتوالى الطروحات..

ـ إذن المشكل قائم.

ـ في ثوب قضايا أخرى..

* * *

نشرت دار لوسوي، ذات الاتجاه المسيحي التقدّمي، كتاباً بعنوان دعوة الإسلام لمهندس جزائري، هو مالك بنابي، ناقم على اتجاه الأحزاب الوطنية. صادف صدور الكتاب اندلاع الثورة، فاستغلّته الدعاية الاستعمارية كما استغلت من قبل قصة إدريس الشرايبي. لهذا السبب عارض إدريس أطروحته، خاصة تلك التي تقول أن البلاد الإسلامية استعمرت لأنها كانت قابلة للاستعمار، كما لو كان المسؤول على السرقة ليس السارق بل صاحب الدار الذي سهى ولم يقفل الباب

علّق إدريس على كتاب بنّابي قائلاً:

— 42 —

«إن المؤلف متأثر جداً بفلسفة أرنولد طوينبي وأوسفالد شبنغلر/ 63 التي تقول أن الحضارة تنتقل من منطقة إلى أخرى عبر الأحقاب.

أخذ العالم الإسلامي بزمام الحضارة العالمية مدّة قرون ثم دخل عهد الانحطاط خلال القرن الرابع عشر الميلادي. فحلّ محله الغرب المسيحي. لكن اليوم يقاسي الغرب من أزمة عميقة شاملة وبذلك تتاح فرصة أخرى ليحتلّ الإسلام من جديد الصدارة.

ما هي أسباب انحطاط الإسلام؟ أولاً وقبل كل شيء عدم تطبيق تعاليم القرآن. لم تكن «الحضارة الإسلامية» أبداً حضارة قرآنية. لكن السبب المباشر الذي أسرع بوتيرة التقهقر هو ظهور نفسانية فردية متميزة بعد انهيار الخلافة الموحّدية. هذا الرجل بعد الموحدي الذي يصفه بنّاني بتطويل هو المسؤول عن كل الهزائم التي عرفها الإسلام بما فيها هزيمة فلسطين. لا بدّ إذن من إعادة بناء الشخصية الإسلامية، لا بد من إيجاد دعاة مهذّبين يذكون من جديد نار العزيمة في قلوب المسلمين، يرغمونهم على الثوبة إلى أنفسهم ليروا مواطن الضعف فيها، البادية منها والخفية. كان حسن البنّا/ 64 أحد هؤلاء الدعاة لكنه لم يحقّق كل ما أراد. فعلى من يخلفه أن يسير في نفس النهج وبنفس الهمّة.

ينقد المؤلف بشدّة زعماء الإصلاح الذين تاهوا في الفقهيات ولم يروا أن ما ينقص العالم الإسلامي هو فلسفة عملية تشجع على الإبداع والإنجاز. ويهاجم كذلك المعجبين بالغرب الذين لا يدركون أن العلاج الذي يقدّمونه لمجتمعهم قد جرّبه الغرب ووجده عقيماً. لم يبق إلا حلّ واحد في رأي المؤلف وهو تشييد حضارة

قرآنية بريئة من الأخطاء، سالمة من بذور الانحلال التي انتعشت ونجمت وأورقت أثناء القرون الوسطى.

دخل العالم اليوم عهد الكونية. كل شيء كوني الآن من العلم إلى الاقتصاد. إلا أن أوروبا عاجزة عن مسايرة هذا الوضع الجديد لأنها عنصرية في العمق، بعكس الإسلام دين الفطرة والمساواة. الظروف الراهنة تساعد إذن على انتقال الحضارة من حيز أوروبا إلى حيز الإسلام. على المسلمين أن يتهيأوا لدورهم الجديد وذلك بأخذهم أحسن وانفع ما عند الغرب، أي الفعالية. عليهم أن ينشئوا رجلاً جديداً يماثل الرجل القرآني ومن مبشرات وضعية الإسلام الجديدة تحوّل نقطة الثقل فيه من الحوض المتوسط، موطن البدو الرحّل، إلى آسيا موطن التجمّعات الفلاحية المستقرّة التي تستطيع أن تتحمّل أعباء تجديد الدين. لكي ندخل عهد الكونية، ونتحمّل مسؤولياتنا في قيادة الحضارة البشرية علينا أن نتجاوز المرحلة الاستعمارية والمرحلة الوطنية الرديفة لها. لنكفّ عن المطالبة بالحقوق ولنفكر أولاً في الواجبات وهكذا نتهيأ لتلبية الدعوة التي يوجهها لنا المستقبل.

توجد فجوة منطقية واضحة بين التحليلات التاريخية والفلسفية المضمّنة في القسم الأول من الكتاب والإجراءات الإصلاحية التي ينادي بها المؤلف في خلاصته. يوافق القارىء بسهولة على النقد الموجه للأحزاب الوطنية السياسية التي تعالج دائماً المسائل السطحية، التي تكد وتجهد لتعارض معارضة لفظية سياسة المستعمِرين دون أن نفكر أبداً في تكوين الرجال لتحمّل مسؤوليات المستقبل. كذلك لا اعتراض على الملاحظات حول تقصير القادة العرب في معالجة مشكل فلسطين أو في مواجهة المعضلات الاقتصادية والاجتماعية، حتى أننا نرى العراق المستقّل لا يفوق في شيء الجزائر المستعمرة. هذه ملاحظات لا يناقشها أحد ومع ذلك يلجأ كاتبها إلى تحليلات فلسفية واهية مهلهلة للبرهنة عليها. هل يمكن حقاً تفسير تطور مجتمع بكامله بواسطة نفسانية رجل ما بعد العهد الموحدي؟ يبدو ذلك الرجل، كما يصفه بنّابي، صورة طبق الأصل للعربي القحّ حسب تعبير المؤلفين الاستعماريين، أي الرجل الكسول الخامل المتّكل. هل هو سبب أم نتيجة أم الأمران معاً؟ أين دور احتكار الأوروبيين للتجارة في البحر المتوسط ثم اكتشافهم لطرق تجارية جديدة جعلت من المتوسط بحراً ميتاً؟ ألم يترتّب على هذا التطور اضمحلال الحواضر الإسلامية، تحكّم البدو في مصير الحضر، تعميق الهوة بين الأغنياء

والفقراء، الحاكمين والمحكومين واهمال الجميع للمصلحة العامة؟ يـأخذ بنّابي على الوطنيين أنهم يغفلون باستمرار عن حركة التوحيد الكوني التي تجري تحت أعينهم. ألم يسقط في نفس الخطأ حيث لم يقارن أبداً بين الرجل بعد الموحّدي وسكان البلدان التي استعمرت في أمريكا وآسيا. ألا توجد نفسانية عامّة تتولّد عن العزلة والركود السابقين والممهدين للغزو الاستعماري؟ لماذا الاعراض عن دور الأجنبي في تقوية الاتجاهات المحافظة بل الرجعية؟ أولم تقف السياسة الانجليزية بجانب نوري السعيد في العراق وأحزاب الأقلية في مصر؟ يركّز الوطنيون كلامهم على التدخّل الأجنبي، أيبرّر هذا السكوت عنه إطلاقاً؟

يقول مالك بنّابي أن من حسن حظ الإسلام أن أصبح أسيوياً في أغلبيته، ولكن آسيا أصبحت شيوعية في أغلبها. ألا يستحق هذا الواقع العالمي تحليلاً أطول من ستة سطور؟

أهمل المؤلف العامل الاقتصادي إهمالاً كلياً، ربما عن قصد. فانتهى به الحال إلى معاكسة مجرى التاريخ، إلى إصدار أحكام جائرة على الوطنيين ومتسرّعة على وقائع عالمية معروفة، وفي الخلاصة يفوه بتنبؤات تشبه أحياناً الهذيان. استهدف التعمق في التحليل والصرامة في التقدير فحاد به الشطط إلى نتائج لا تخضع إلى أي مقياس من مقاييس الواقع. لا نشكّ في إخلاصه ولكن الإخلاص وحده لا يغفر التجرؤ على الحقائق التاريخية والاقتصادية. تبعد فلسفة طوينبي وشبنغلر عن تاريخ الوقائع بعد السماء عن الأرض. إذا استمعنا لدعوة بنّابي هجرنا الأرض وحلّقنا في عالم الأماني والأحلام».

— 43 —

حكم قاس على رجل ذاع صيته في الشرق العربي.

نعم. غادر بنّابي الجزائر، أو فرنسا، ثم استقرّ في القاهرة. هذا رجل يتقن الفرنسية ويعرف العلوم الحديثة. بمن سيتّصل؟ بمن يجهل كل شيء عن علوم ولغات الغرب. هذا قانون التجاذب الإنساني. تعرّف على جمعية الإخوان المسلمين وعمّق معلوماته في ميدان الإسلاميات وعندما أتقن التعبير العربي ألّف كتباً كان لها صدى في المشرق وبعد ذلك في المغرب ولكن لم يصل أحد منها إلى قوّة الكتاب الأوّل. عندما كانت معلومات بنّابي أقلّ كانت عبارته أبلغ. منذ البداية خاصم السياسيين فخاصموه

إلى النهاية. استغلّوا سمعته في الشرق أثناء الكفاح ولكن لم يعطوه أبداً مقعداً من مقاعد المسؤولية.

ـ ألاحظ أن المآخذ على النفسانية الإسلامية في عهد الانحطاط قد سبق لإدريس أن عبّر عن شيء منها في تعليقاته على مهزلة عشرين غشت مع ذلك يرفض هنا موقف بنّابي من الأساس.

ـ الواقع أن تفسير الهزيمة، أية هزيمة، بضعف نفساني، هو ما يتبادر إلى الذهن. ولا شك أن إدريس اعتقد في وقت من الأوقات ما عرضه مالك بنّابي. إلا أن وطنية إدريس قد تغيّرت أثناء أزمة 1954 - 1955. يمكن أن نقول أنها ضاقت فجعلته يرى أن كل من ينتقد الوطنية وهي تكافح من أجل البقاء، يقف في صفّ العدو. بعد الاستقلال يكتسي النقد بالطبع صفة جديدة. في نفس الوقت اتّسعت معلومات إدريس التاريخية والاقتصادية فبدا له ضعف تحليلات بنّابي. انتقدها من هذا الجانب مع أن الدافع لرفضها هو تطرّفه الوطني.

ـ تطرف مؤقت. ألم يتفق إدريس مع بنّابي في وقت لاحق؟

ـ ظاهرياً فقط لأن فكر بنّابي أيضاً تغيّر. مع مرّ الأيام لم يعد فرق بين كتبه وكتب عامّة الإخوان. اتّسعت معلوماته الإسلامية لكن معرفته للغرب اضمحلّت فعادت أقواله سطحية.

ـ في هذه القطعة ذاتها يوافق إدريس على تشخيص أمراض العالم الإسلامي وأن نقد التفسيرات المقدّمة والدواء المقترح.

ـ وسيحافظ على نفس الموقف..

* * *

كانت دار لوسوي ترعى مجلّة اسبري (الروح) التي أسّسها إيمانويل مونيي/ 65، صاحب المذهب المعروف بالشخصانية والمتميّز برفضه، باسم القيم الدينية والروحية، النظامين الرأسمالي والشيوعي معاً، الأول لأنه ينفي العدالة والثاني لأنه ينفي الحرية الفردية.

كان الطلبة المغاربة يقرؤون بانتظام المجلّة لأنها ندّدت بالسياسة الاستعمارية في المغرب ونشرت تحقيقات جدّية حول مهزلة عشرين غشت. كان مديرها آنذاك ألبير بيغن/ 66، السويسري الأصل، المتخصص في دراسة الأدب

الرومنسي الألماني، يشرف على سلسلة كتب تعنى بأوضاع ما سمي فيما بعد بالعالم الثالث. نشر كتاب مالك بنّابي حول الإسلام وأتبعه بكتاب آسيا والسيطرة الأوروبية للمؤرخ والدبلوماسي الهندي ك. م. بانيكار وصدّره بمقدمة مسهبة إلا أنها كانت فريدة من نوعها. عوض أن تعرف بالمؤلف وتعدّد مزاياه وتلفت النظر إلى الجديد في تحليلاته فانها فنّدت محتوى الكتاب نقطة نقطة وبأسلوب حادّ.

كان يقطن دار المغرب في نفس الفترة طلبة من الهند وإفريقيا البرتغالية، من بينهم أكوينو ذي براغانصا المولود في غوا والذي كان ذا نشاط ملحوظ في الأوساط الصحفية/ 67 فاقترح على اللجنة الثقافية أن تستدعي بيغن لإلقاء محاضرة حول علاقة الشرق والغرب. جاء المحاضر وأعاد الأفكار التي عبّر عنها في مقدمة كتاب بانيكار. أثناء المناقشة تدخل أكوينو وزملاؤه وردّوا على المحاضر بعنف لا يقلّ عن الذي لجأ إليه هو.

شاهد إدريس هذه المواجهة بين أوروبا المسيحية وآسيا وإفريقيا المتأثّرتين بها لغة وفكراً وعقيدة، لأن أكوينو الذي واجه بيغن كان ينتمي إلى عائلة تنصّرت منذ قرون وتلقّى تعليمه الثانوي داخل مدرسة خاصة لتكوين القساوسة.

كان الكلام على استعمار أعمق من الذي عرفناه في المغرب.

وقد يكون لهذا الفرق تأثير على ردّ الفعل. . كتب إدريس يعلق على بانيكار وعلى بيغن.

— 44 —

«إن ما يلفت النظر في هذا الكتاب هو المنهج.

لقد اعتدنا أن نتخيّل ماذا كان يحدث لو لم يستول الأوروبيون على أوطاننا: عمل عقيم لا علاقة له بالبحث التاريخي الجادّ. يريد بانيكار ان يفهم الواقع لا أن يصف المحتمل. يعرف أن كل حادث متناقض في ذاته: يخدم مصلحة فاعله وفي نفس الوقت يعطي سلاحاً لمن يتضرّر به ويتمنّى محو آثاره. لم تكن السيطرة الأوروبية تلك السلسلة من الحسنات التي يعدّدها الاستعماريون ولا تلك السلسلة من السيّئات التي يحصيها الوطنيون. لذلك يكتب المؤلف بكثير من الرصانة والثبات. يجب أن نتمعّن في الفصول المخصصة إلى الهند وفي الفصل الختامي لنرى الفرق بين التحليل التاريخي الحق والإنشاء الذي يدغدغ عواطف المراهقين والذي نسميه نحن تاريخاً.

يقبل بانيكار السيطرة الغربية كأمر واقع لا يحتاج إلى تبرير أو تنديد ثم يطرح سؤالاً في غاية الأهمية. عندما يفقد مجتمع ما استقلاله هل من مصلحته أن يحتفظ بسيادة وهمية لا تمنع الدولة المستعمرة من أن تتحكم كلياً في مصيره أم أن يخضع لحكم استعماري مباشر؟ أننا عادة نصفّق لكل المحاولات لانعاش الدولة المتداعية، ونتمنّى أن يستمرّ الكيان القومي التقليدي مهما بدا ضعيفاً. نتوقّف عند الحادث التافه الذي كان السبب المباشر لاحتلال الوطن ونصبّ نار غضبنا على المسؤول عنه، متناسين أن الاستعمار عملية طويلة لا تبدأ ولا تنتهي مع اختراق الأجانب الغزاة أرض الوطن.

نقرأ كثيراً فيما يكتبه المغاربة: آه لو لم تتّفق فرنسا وانجلترا سنة 1904! لو قبل الحسن الأول عقد اتفاقية مع انجلترا سنة 1890! لو صمدنا إلى غاية 1914! عندما نكتب تاريخ المغرب قبيل الحماية، أخشى أن نقسو على المولى عبد العزيز ونلين مع الذين سبقوه.
في هذه النقطة بالذات، وبعد مقارنة أحوال الهند والصين، يخرج بانيكار بحكم واضح: الاستعمار الصريح أفضل بكثير من المقنّع. حكمت انجلترا الهند فنشأت طبقات جديدة وهيئات جديدة واستطاعت الهند أن تنتقل من العبودية إلى الحرية بدون فوضى. أما الصين التي أهينت وجزّئت إلى مناطق نفوذ واستغلّت دون أن تجرّد من سيادة صورية فانها لم تدخل إلى العهد الحديث إلا تحت راية الثورة الشيوعية وبعد سنوات من القلاقل. يعزو المؤلف انتصار الشيوعية إلى ذلك الوضع الهجين الذي هو استعمار بدون مسؤولية الحكم. إذاً لو بقي المغرب مستقلاً بسبب التنافس بين الدول الأوروبية أما كان يكون وضعه اليوم مثل اليمن أو التبت أو السيام؟

طبعاً يتسبّب الحكم المباشر في مشكلات أخرى. يجلب إلى البلاد جالية أجنبية لا تلبث أن تطالب بحكم ذاتي ثم بمقاسمة السيادة، يدخل نظاماً علمانياً منافياً لأعراف وتقاليد الأغلبية الأصلية، لكنه في نفس الوقت يحطّم التنظيمات التي من طبيعتها عرقلة كل تغيير ويحرّر رغماً عنه قوى جديدة تستطيع وحدها مصارعته والتفوق عليه.

لن نستغرب في هذا السياق أن نرى بانيكار لا يشاطر إعجاب عامة المشارقة بالمنهج الياباني: أخذ العلوم والتقنيات الغربية مع المحافظة على الثقافة الوطنية. يقول: ان اليابان أدرك ما أدرك لا لأنه استهدف ذلك وخطّط له ولكن لأن المشكل

الذي يواجه اليوم الدول الآسيوية لم يكن مطروحاً في الفترة المبكّرة التي بدأ فيها مسيرته الإصلاحية. لم يكن أبداً في الماضي مثال من زاوية التركيب الاجتماعي. بسبب موقعه الجغرافي وخصوصية تاريخه احتفظ اليابان دائماً بنظام إقطاعي دعّمته الديانة الشنطوية. لكن اليوم يجد نفسه في وضعية جديدة. لأول مرة تحتلّه دولة أجنبية وتفرض عليه نظاماً سياسياً واقتصادياً غريباً عن تقاليده. لأول مرة في التاريخ الحديث يواجه دولة صينية قوية وموحّدة. الآن ولأول مرة يجرّب ما جرّبته الهند والصين في أواسط القرن الماضي وتشير دلائل كثيرة من انتاجه الأدبي والسينمائي أنه بدأ يعي الضياع ويبحث عن روحه».

ألا يوجد اليابان اليوم تجاه آسيا الوثنية في موقع تركيا تجاه العالم الإسلامي؟ كلا البلدين ظنّ أنه سوّى نهائياً علاقته مع الغرب. فإذا به يكتشف بعد حين أنه أخّر فقط قضية الهوية الثقافية..

يظنّ البعض أنه إذا استعار العلوم والتقنيات الغربية وحدها ولم يجاوزها إلى الأفكار والقيم استطاع أن يحافظ على خصوصيته. الحقيقة أن التمييز بين التقنيات والأخلاق غير ممكن. يقول بانيكار أن تفوق الغرب الحقيقي ليس في العلوم الطبيعية بل على مستوى الحياة المجتمعية. لا يمكن للعلوم الحديثة أن تزدهر في أحضان نظام إقطاعي. كل المظاهر المذكورة مرتبطة بعضها ببعض ومحاولة التفريق بينها أقرب طريق إلى الفشل.

نجد عند بعض الهنود اطلاعاً غير عادي على أفكار الغرب وتاريخه. نتعجّب لأننا نسحب على آسيا حالة بلدنا الذي لم يتّصل حقيقة بالغرب إلا منذ نصف قرن. دخلت إلى الهند فلسفة الأنوار وهي لا تزال في مرحلة تكوينها. وهذا رام موهان روي/ 68، أول داعية للإصلاح في الهند، كاتب كوندورسه. طالما لم يجرّب الهنود أنفسهم صلاح أو فساد تلك الأفكار فانهم يحتفظون بها. لا زال لشوبنهاور أتباع عندهم، ولراسكن/ 69 وتولستوي اللذين أثّرا في ذهنية غانـدي، ولغيرهم من المفكرين الغربيين. وضعنا مختلف. أننا نرى اليوم طلبتنا يذهبون إلى أوروبا وعوض أن يستظلوا بالأشجار الحيّة الوارفة فانهم يحطبون الغصون الميّتة. نسمعهم يستشهدون ببرجسون وبلوندل ولا شوليـه/ 70 مع أن هؤلاء لا يـزالون يـذكرون إلا في أقسام طلبة الليسانس. ما هو منطق التمييز عند طلبتنا؟ ما وجه مشاركتهم في انعاش الفكر الوطني؟ شتّان بين أن توجد مدارس قديمة في الهند لأنها وجدت منذ البداية

وقبل أن يحكم التطور بعقمها وبين أن نحاول الآن زرع بذور اقتنع أصحابها أنها لا تنبت؟ فلسفة اليوم هي التي تستهدف التغيير بالكشف عن عوامل التطور في المجتمع نفسه. من لم يدرك هذه النقطة لم يدرك الغرب ولا منطق العصر.

تكمن أهمية بانيكار في كونه يدفعنا إلى طرح مثل هذه الأسئلة وإلى التأمل في أحوالنا. لم يتعرّض بالطبع لكل مسألة قد تعترضنا. ننبّه على أنه ترك جانباً مشكلة سبب انتصار الغرب مع قلّة جيوشه إذا قورنت بالكتل البشرية الأسيوية. يقول المؤلف: لو غادر الغربيون آسيا سنة 1750 لما تركوا فيها أي أثر. إذن كيف استطاعوا أن يستقرّوا فيها؟ نفسّر عادة انحطاط العالم الإسلامي بسيطرة أوروبا على قسم من آسيا. بانيكار الذي يرى الأمور من الجانب الآخر يترك الانطباع أن انحلال العالم الإسلامي، العالم الوسط، هو سبب وصول الأوروبيين إلى آسيا. ما دامت دراسة تاريخ الإسلام الاجتماعي مجرد مشروع، فستبقى هذه النقطة غامضة.

من جانب آخر لا يدخل المؤلف في تفاصيل التغييرات الناجمة عن السيطرة الأوروبية. يذكر، في صفحات قليلة من الفصل الختامي، التحوّلات الكبرى: ربط آسيا بالسوق العالمية، ظهور طبقات اجتماعية جديدة، تكوين مدن كبيرة مغايرة للتجمعات السكنية القديمة، تنظيم قضاء مستقل.. ولا يتعرّض بالمرة لما لحق الديانات والفلسفات والآداب المحلية من تغيير. كتب بانيكار كتاباً في التاريخ العام وترك التفاصيل للمتخصّصين في الاقتصاد والاجتماع والفلسفة.

الكتاب مفيد لنا لا بمحتوياته، رغم غزارتها ودقّتها، بل بمنهجه، بالأمانة الفكرية التي توحي بها كل صفحة من صفحاته.

هذه النقطة بالذات هي التي ينفيها عنه ألبير بيغن في المقدّمة المطولة التي ارتأى أن يصدّر بها الترجمة الفرنسية. تكشف المقدمة عن تضايق الغربيين، حتى التقدّميين منهم، عندما يحاكم غير الأوروبي الاستعمار الغربي، حتى ولو كانت المحاكمة في غاية اللين واللباقة والاعتدال كما هو الحال هنا.

الواقع أن بيغن المسيحي صدم لمّا قرأ الفصل المتعلق بالإرساليات.

يقول بانيكار ان المبشّرين الذين قصدوا آسيا وهم يظنّون أنها ستركع ساجدة متى أبلغوها دعوة المسيح، كانوا يجهلون كل شيء عن سكّانها وثقافتها، بل كانوا يحتقرون أهلها. ومهما تكن نواياهم فإنهم ظهروا دائماً للأهالي كمساعدين للمحتلّين

المستعمرين. هل في هذا تجرّؤ على الحقيقة؟ أما قرأنا خطب الكاردينال لافيجري/71 في الجزائر، والأوامر التي أعطيت للقساوسة القاطنين على الحدود التونسية؟ بل أما نقرأ اليوم في جريدة الفيغارو (20 .7 .56) مقال الأب ريكه الذي لا يفصل أبداً رغم أسلوبه الملتوي، الاستعمار عن المسيحية. لكن بيغن يناسق مع هواه وينسى حقوق الضيافة وآداب المناظرة.

يقول ان بانيكار نصف ماركسي وانه لا يمتلك ناصية البحث التاريخي. تعني التهمة اما أن منهج البحث لا يتقن إلا بعد سنّ التقاعد، لأن صاحب الكتاب مؤرخ محترف ويفوق الستين واما أن غير الأوروبي لا يتقنه أبداً. وأخشى أن يكون هذا هو التفسير الصحيح، مما يدلّ على عنصرية دفينة. يلاحظ بيغن أن صدور الكتاب نفسه دليل على نجاح الغرب لأن التاريخ كطريقة في التفكير خاص بالغرب. هذه فكرة سجالية تحتوي على مغالطة.

إذا كان الكلام يخصّ الهند فقد يوافق عليه بانيكار نفسه الذي اعترف بدون تردّد أن أوروبا أدخلت مثلاً إلى آسيا شيئاً جديداً يسمّى استقلال القضاء. أما إذا شمل الصين والإسلام فالخطأ واضح. لكن النقطة الجوهرية ليست هنا. لا يفرّق بيغن أبداً بين التاريخ كصناعة والتاريخ كفلسفة، يحيل باستمرار على هيغل وأتباعه الذين ادخلوا في الفكر البعد الزمني. إلا أنه مسيحي. هل يعني أن المسيحية وحدها فلسفة تاريخ أم أن كل فلسفة تاريخ مسيحية في العمق؟ وإذا كان هذا رأيه فأين الدليل؟ يعتقد هو أن التاريخ ميدان الخطيئة والعنف، كان لفلاسفة الأنوار رأي مغاير تماماً، هل من حقّه أن ينفي صفة المؤرخ عن كل من يرفض نظرته المتشائمة؟ ثم أن علمنه التاريخ، أي تحويل الاهتمام من الإرادة الربانية إلى النشاط البشري والبحث في البنيات الاجتماعية، كل ذلك لم يحصل إلا في فترة متأخرة من تطور أوروبا. كيف يجوز مطالبة الحضارات الأخرى بما لم تقم به أوروبا (في الواقع قسم ضئيل منها) إلا بعد حدوث ما نتكلم فيه، أي التوسع الاستعماري. يتعامى بيغن عن أن تداخل النظرة التاريخية والفلسفة إنجاز حديث في أوروبا وأن الكنيسة لم تقبل أبداً ما سمي بثورة العلوم التاريخية وان قبلت عن مضض ثورة العلوم الطبيعية. لو كان يواجه أوروبيا لاضطر إلى الاعتراف أن أوروبا المسيحية ليست أوروبا الحديثة ولكنه تجاه غير الأوروبي فانه لا يفرق بينهما.

لا يقف بيغن أبداً في نفس المستوى مع بانيكار، إذا تكلم الثاني لغة المؤرخ أجابه الأول بلغة الأديب المتفلسف. مما دفع بعضهم إلى القول أن مدير اسبري يردّ على زملائه المتمركسين في المجلة أكثر مما يحاور الكاتب الهندي.

في مسألة الارساليات يتعجب بانيكار من المشروع ذاته، من غرور المبشّرين الذين اعتقدوا مسبقاً أن الأسيويين في حاجة إليهم وأن من واجبهم انقاذهم رغماً عنهم. أما الخصال التي تحلّى بها الأشخاص الذين شاركوا في العملية فلم يتعرّض لها بالنقد أبداً، بل أبدى إعجابه بشخصية فرانسوا خافيي /72. المؤرخ لا يهتمّ بأهداف الأفراد بقدر ما يحلّل نتائج أعمالهم، خاصة إذا خالفت ما كانوا يرتقبون. من أراد أن يعرف نيّة وأهداف المبشّرين فعليه بتاريخ الأرساليات والرهبانيات، أما تاريخ آسيا فلا يمكن أن يجد فيه القارىء إلا نتائج أعمالهم، الحسنة والسيئة. صوّر بانيكار بوضوح ودلائل قاطعة ما نتج عن أعمال المبشرين من فوضى وخلل واضطراب وانقسام في المجتمعات الأسيوية. ما يبدو لبيغن محاكمة حاقدة ليس في الواقع سوى محضر النتائج الفعلية التي سجّلها الأسيويون طوال محنتهم. يقرر بانيكار أن الحملة التبشيرية لم تنل شيئاً في النهاية من الديانات التقليدية، إلا أنها أدّت إلى الفوضى الاجتماعية في كل البلاد الأسيوية، ما عدا اليابان الذي اتّخذ الإجراءات الضرورية في الوقت المناسب. يردّ بيغن: هذا تهافت، اما أن الحملة كانت بلا مفعول ولا حاجة إلى محاربتها، واما أنها كانت ذات تأثير قوي مما أدّى إلى محاربتها بعنف. ألا يمكن أن تحارب اجتماعياً لأنها أثّرت سلبياً في المجتمع، دون أن تمسّ ولا أن تواجه على المستوى الديني الصرف؟ يقول بانيكار: كانت لأوروبا سياسة توسعية واحدة لكن إزاء آسيا المتماسكة كشفت أوروبا عن انقساماتها الداخلية. يردّ بيغن: تهافت آخر: هل كانت أوروبا متآمرة على آسيا أم منقسمة على نفسها؟ ألا تتوحّد أوروبا في الخطّة العامة، في الموقف إزاء الغير، ثم تنقسم عندما يأتي وقت اقتسام الأسواق ومناطق النفوذ؟ يبحث بيغن عن كل ما يوحي بعدم التناسق في الكتاب. لا نقول أنه يختلف لأن تشعّب المسائل يقود بانيكار بالفعل في اتّجاهات غير متوازية. غير أنه يجب الرجوع إلى سبب التشعّب. التبرير الاستعماري متماسك لأنه يرى كل شيء أبيض والرفض الأعمى أيضاً متماسك لأنه يرى كل أعمال المستعمرين سوداء. تبدأ الصعوبة عندما يتوخّى المرء الاعتدال. لكن استهداف الحق يصبح عند الناقد المغرض دليل التهافت الفكري. أن المؤرخ يوافق على أن الاستعمار كان محتّماً إذ

لم يستطع خصومه أن يردّوه على أعقابه، لكن هل في هذه القولة اعتراف ضمني بأنه نعمة كله؟ قد يفعل الخير ولكن رغماً عنه، أما السوء فإنه يفعله عن قصد وسابق إصرار. هل الخير غير المقصود تبرئة عامّة والسوء المقصود إدانة شاملة؟ يواجه المؤرخ هذه الأسئلة ولا يتسرّع في الإجابة عنها خوفاً من التبسيط المجحف. أما بيغن، غير المؤرخ، فإنه لا يرضى إلا بالإدانة أو التبرئة المطلقة. والمدهش حقاً أنه يجعل من الاستعمار جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الغربية، الأمر الذي لم ينزلق إليه ألدّ أعداء التوسّع الأوروبي.

يتساءل بيغن في مستهلّ مقاله: إذا كان ملفّ الوجود الأوروبي في آسيا أسود إلى الدرجة التي يصوره لنا بها بانيكار ألا يجب علينا، نحن الأوروبيين، أن نتخلّى عن مبادىء حضارتنا ونعتنق مبادىء الحضارات التي عانت الويلات من تصرفاتنا وكادت أن تضمحلّ؟ لا شيء في كتاب بانيكار يدعو إلى هذا التساؤل، اللهمّ إلا إذا كان الغرض منه إحراج الغربيين المعجبين بالشرق. أكد المؤرخ الهندي مراراً أن العودة إلى الوراء وإحياء ما كان أمراً مستحيلاً. حتى لو اندثر الوجود الأوروبي، ستحتفظ آسيا، في نظره، بهديتين ثمينتين قدّمهما لها الغرب وهما النظام القضائي وتخطيط المدن. هل هذا كلام رجل حاقد؟ تساؤل بيغن إذن في غير محلّه، لكنه يكشف عن اتّجاه يدعو إلى الاستغراب. لمّا كان الاستعمار نظاماً قائماً كان الفضلاء من الأوروبيين يتبرأون منه وينقذون بذلك شرف الغرب واليوم حيث طويت الصفحة الاستعمارية نرى الغربيين يلحّون على جعله جزءاً لا يتجزّء من حضارتهم. ان اعتبار التاريخ الغربي كتلة متراصّة، تقبل أو ترفض بكاملها، فكرة تقهقرية، تدلّ بمحض وجودها على انحطاط أوروبا الفكري والخلقي، وتشكّل عقبة في سبيل التصالح بين الشعوب. من آثار ذلك التقهقر الفكري مثلاً أن يقول بيغن أن أوروبا تحاكم باسم قيم أوروبية ولم يقل عالمية أو إنسانية. منذ أعوام قال نهرو ان الغرب أبدع في نفس الوقت الامبريالية والاشتراكية فأشار إلى الداء والدواء، إلى ما يفرّق وما يوحّد بين الشعوب. اليوم يجيب بيغن: الاشتراكية أيضاً أوروبية فيقطع حبل التفاهم والتواصل. بماذا يتّهم الغرب؟ بأنه تنكّر لقيم قال في فترة سابقة أنها إنسانية ثم تخلّى عنها عندما رآها تخدم مصالح المستغلّين، فترك الضحايا يرفعون لواءها ويذكّرون الناس بها. هذه قصة الجدل بين العبد والسيّد، أيجهلها بيغن الذي لا يفتأ يستشهد بأقوال هيغل؟

وما هي القيم التي يصفها بيغن بأنها أوروبية: الحرية؟ حرمة القانون؟

المساواة بين الشعوب والأجناس؟ هل هي فعلاً غريبة عن الحضارات غير الأوروبية؟ أو ليس الأسلم أن نقول أن كل حضارة، تستحق الاسم، دعت إليها وطمعت في تجسيدها دون أن تفلح وأن آخر من حاول وأخفق أوروبا؟ من يحققها فيما نستقبل من أيام؟ هذا هو السؤال الذي يلح علينا الآن جميعاً.

لم يكن حظ أوروبا أحسن من حظ الحضارات التي سبقتها ولكن مزيتها أنها جاءت متأخرة فاستفادت من أعمال سابقاتها. أخضعت كل الشعوب للقهر والاستغلال، حتى شعوب أوروبا ذاتها أيام الطغيان الفاشي، وبذلك وحّدت العالم ووضعت كل المجموعات البشرية أمام مشكل واحد، يتلخّص في تغليب الحرية على الاستعباد والقانون على القوة والمساواة على الطغيان والوئام على الحقد. لتحاول الإنسانية أن تحقّق اليوم مجتمعة موحّدة ما عجزت عنه بالأمس متناثرة مفترقة. ان العالم الذي وحّده الاستعمار الغربي قد أصبح اليوم متعدّد المراكز. في هذه النقطة بالذات تكمن اليوم إيجابية علاقة أوروبا بالقارات الأخرى..».

— 45 —

كتب إدريس في أواخر 1956 قطعة لخّص فيها موقفه من المشكلة التي كانت تعرف آنذاك بعلاقة الغرب بالشرق.

- وهل تعرف بأسماء أخرى؟

- الاستعمار والتخلف، الغرب والعالم الثالث، التجديد والتقليد، الاقتصاد والثقافة، الامبريالية والاكولوجية، المركز والضاحية، التطور والخصوصية، المعاصرة والأصالة، الخ. كل خمس سنوات يتغيّر الهندام.

- المباحث مختلفة كالآداب والنحو واللغة والبلاغة..

- المسرح واحد، حوّل نقطة الإنارة فيتغير المنظر. المعلومات الأولية واحدة والاستنتاجات مختلفة. إلى أي شيء يعود الاختلاف؟ إلى تحويل المنظور. تتتابع الإشكاليات، تتنوّع الأجوبة، لكن الوضع يبقى هو هو. إدريس نفسه سيغيّر من تعبيره، لكنه لن يتزحزح عن موقفه. ستزداد معاريفه عن الماضي ولكن المنهج الذي اكتسبه من دراسة التاريخ والاقتصاد سيجعله يميل إلى فحص الواقع قبل التبرّم منه. هذا ما يسمّى بالنضج.

- من أين إذن الغمّ والهمّ؟

ـ النضج الفكري لا يعني التوازن العاطفي. العقل يفهم والقلب يثور.

كان إدريس يتساءل وهو يسير في ممرات حديقة مونسوري/73: هل يمكن أن نتحكّم في مصيرنا قولاً وفعلاً؟ هل يمكن أن يتزامن، أن يتساكن الأمران؟ هناك جواب ماركس: في الطبقة الواعية، المجرّدة من كل مصلحة تلهيها عن جوهرها، يتّحد الوعي والفعل، الطبقة الفيلسوف الجماعي، الكون إرادة وأمراً. لكن أين موقع الطبقة في الزمن؟ متى تظهر؟ قبل قيامها الحلول الازدواجية قائمة: فحص الواقع من جهة، تغييره من جهة أخرى. هذا يفعل بدون تدبير وهذا يفكّر بدون تحريك. يلتفت إدريس حواليه فيجد الناس غارقين في فرحة الاستقلال. ينفون بالكلام ويخضعون بالفعل. يغلبهم الواقع مرّتين.

ـ هل كان يمكن أن يفعلوا غير هذا!

ـ من هنا الغمّ والهمّ والسمّ. الإداريون يتعاركون مع الظاهر ويظنّون أنه الواقع. فيغلبون اليوم وغداً.

ـ ولو غمس إدريس في الإدارة؟ أما كان في مدرسة إدارية؟
ـ لارتاح.
ـ صحيح؟
ـ هل يخطّط الإنسان لهمومه؟

— 46 —

«كل شعب ناهض يكشف عن ماضيه..
استكشاف الماضي شيء، تقمّصه شيء آخر يؤدّي حتماً إلى الفشل..
قبل النهوض الهزيمة..
ما سببها؟

1. ماذا يقول رجل الماضي (دوستويفسكي، غاندي، مالك بنّاني)؟ السرّ في الوجدان.

لنقلب مجرى التاريخ (النتيجة= سبب السبب. كل شيء ممكن في الذهن، الزمن بلا إشارة. سر وعد بلا توقف. الجدّ الأول يجالس حفيده الأبعد وكلاهما يعرف مقاصد الآخر.).

الانغلاق والوهم (منا وفينا كل شيء)..

2. ماذا يقول رجل الحاضر (طه حسين)؟

الغرب ليس قوة مادية فقط (المدينة الغربية حضارة).. يؤثر فينا فكرياً وأخلاقياً..

ما حقيقة التجربة اليابانية (خذ الماديات واترك سواها.. الروح اليابانية خاصة أم عامّة؟)

رأيت الأمريكي/74: المعركة الحقيقية ضد الغرب خسرناها منذ زمن: (أي خيار لنا والعالم يتّجه بخطى حثيثة نحو مدنية صناعية واحدة؟ القبول والمشاركة أم الرفض والانعزال، الاختناق الضياع القلق).

3. هل معاكسة مسيرة التاريخ واجب حضاري؟ وإذا لم تكن مسيرة، إذا لم يكن اتّجاها فما الداعي إلى المجابهة؟

هل صحيح أن لا تكون مسلماً حقّاً، وطنياً حقّاً، حرّاً حقّاً كريماً حقّاً، عزيزاً حقّاً الخ. إلا إذا وقفت وقفة يائسة في وجه التاريخ الجائر؟

لا يوجد مغربي يريد عن قصد، يستهدف فعلاً، العودة إلى أحوال الأمس، الفوضى والتمزّق والانحلال والجهل. كل مغربي يقول أنه يستبطىء التغيير والإصلاح والتقدّم، ولكن توجد على الساحة أفكار تثير الحيرة والقلق، في الظاهر بريئة وفي الباطن تعادي التطور. الأفكار كالملابس ما تقادم منها أهمل. من ينبش عن الماضي اليوم، بعد أن لم تعد له فائدة لردّ أكاذيب المستعمر، كمن يتشبث بملابسه البالية: لا يبيعها ولا يتصدّق بها.

لا بد من خط فاصل بيننا وبينهم».

— 47 —

وقفة يائسة في وجه التاريخ الجائر. عبارة قد سمعناها من قبل.

ـ عبارة رومنسية.. عبارة نيتشه..

ـ تدلّ على طلاق واع أم على استكنان في اللاوعي؟

ـ أكلّمك على نيتشه أولاً.

الفلسفات مثل القصور بعد استباحتها.. قصر فرعون/75 الذي رفعت برخامه أساطين مسجد فاس، قصر البديع الذي نقل نقلاً إلى مكناس. تنحلّ البنايات

الشاهقة إلى أحجار يعاد قياسها وتنسيقها، وتنفكّ الأفكار في الأذهان لتخدم أغراضاً غير التي ركّبت لها أول مرّة. في الوقت الذي كان إدريس منشغلاً بالتاريخ والاقتصاد بدأ نيتشه يطلّ من القفص الذي أودعه فيه لوكاتش/76 وغيره باعتباره الأب الروحي للنازية وهادم العقلانية الغربية. كان جيل دولوز، الأستاذ المساعد، يحاضر في السوربون عن فلسفة نيتشه الأولى. بل كتب هنري لوفيفر الماركسي، استعداداً لمغادرة الحزب الشيوعي، مقالاً يثبت فيه أن الرومنسية أوثق علاقة بالثورة من الكلاسيكية، عكس ما تدّعي الأورثودوكسية الستالينية. /77.

بدأ الكلام على سطحية الأنسية وعلى ضرورة العودة بالفلسفة إلى معناها الأصلي من خلف قرون من اللخط والخلط. تقول الماركسية أنها كمال (نهاية وتحقيق) الفلسفة الكلاسيكية وهي في الواقع سوسولوجيا، تقول الوجودية أنها فلسفة الإنسان في واقعه وهي في الحقيقة أخلاق. الفلسفة حقاً هي تجاوز المهاترات حول مصير الإنسان التي دامت خمس وعشرين قرناً وحوّلت الاهتمام عن الأسئلة التي طرحها المفكرون السابقون على سقراط قبل أن تنفصل أوروبا عن آسيا، الغرب عن الشرق، الإنسان عن الكون، الفلسفة عن الدين. قال ذلك نيتشه. لذلك به وحده نستطيع أن ندرك مغزى انهيار الامبريالية الذي هو في الواقع نهاية التمييز والتمزيق، الغلبة والإخضاع، وبالتالي فرصة العودة إلى الوحدة والتصالح.

وهكذا بنفيه التاريخ والاقتصاد والعلم والصناعة، بوضعه محل كل هذا الإرادة الأمر الكلمة، يتخطى نيتشه ماركس ويصبح على رأس الغربيين أعداء الغرب في عهد استعلائه وغروره وعنصريته.

ـ فيستهوي الشرق.

ـ الشرق القائل: ليس الإنسان ربّ الكون وإنما هو مخلوق يخلق بدوره كوناً خادعاً يلهي ويعمي ويصمّ عن الكون الأصلي.. كما لو أن التغني بالجسم والإرادة والقوة والإيمان لا يفرق بين غالب ومغلوب، قوي وضعيف، كما لو أن نيتشه لم يتكلم أبداً عن الأبهم الأشقر.. لكن قبل أن يستهوي الشرق استهوى الفيلسوف المتخصّص. تنتهي الماركسية، والوجودية بانتحار الفيلسوف فيما يسمّى بالانتماء ـ الآن، بالعودة إلى نيتشه، استقلّ الفيلسوف وتحرّر. بدأ يقول: أنا وحدي المتخصّص في الأصول..

حصلت هذه التطورات وإدريس ساه عنها. ماذا كان يحصل لو درس الفلسفة، لو لم يحترق بنار الوطنية، لو لم يحتكّ بالحركة السياسية؟ أكان يعرف نيتشه في ثوبه الجديد؟ المهمّ أنه لم يلتفت إليه بالمرّة. كان يمرّ جنب قاعة دولوز. .

ـ قل ركن.

ـ قرب سارية دولوز ويتجاوزها إلى سارية آرون حيث كان يلقي شروحه على مؤلفات كونت. رأي إدريس نفسه في قلب الفلسفة الكلاسيكية حسب تعريف انجلز. لم يتراجع إلى ما قبل، لم يلتفت إلى ما جنب هذه الفلسفة مشدوداً إلى الواقع بروابط الاقتصاد. .

ـ هذا اختيار الإسلام.

ـ إذا اتفقنا على أن الإسلام رجح أرسطو على أفلاطون، الوصف على الاستنباط، العقل على الأسطورة الكاشفة، يونان على إيران.

ـ السهو عن نيتشه سهو عن الشرق.

ـ عن فارس وما وراءه. لم يقل إدريس أبداً أن الإسلام شرقي. هل هو شرق الغرب؟ غرب الشرق؟/78 غربي الفكر شرقي النظام؟ هذه نقاط لم يفصل فيها من تولّى نيتشه لسبب واحد هو أنه نقد جذور الغرب. وإذا كانت بعض تلك الجذور إسلامية؟

ـ لا انفلات من ثنائية الشرق والغرب إذن؟

ـ إنها مثل الدمى الروسية، كل دمية تخفي أخرى نسخة مصغرة منها. كسّر إدريس الثنائية الجغرافية، وجد في جوفها ثنائية تاريخية وتوقّف عند هذا الحدّ. رأى (على مستوى التاريخ) أن الإسلام عقلاني أي غربي حسب العرف. لم يختر هو بل اختار المسلمون الأولون عندما أسموا أرسطو المعلّم الأول ووحّدوا بين آراء الحكيمين أي نزعوا من أفلاطون ما انحدر إليه من المعلّمين السابقين على سقراط. لا رجوع عن هذا الاختيار. الغرب نفسه، رغم صيحات نيتشه وغيره، مستمر في اتجاهه. الاختيار الآخر، سمِّـه كما تشاء، تجاوز العقل إلى ما يدفعه من خلف وما يعضده من جنب، مفتوح للفرد كفرد، للشاعر، للفنّان، للمتصوّف، للثائر، لا للجماعة. وإلا انتحرت. .

ـ إدريس وفي للأجداد وغيره عاق.

ـ أقول انه وفي لبعض الأجداد. .

تكلّم نيتشه بلسان زرادشت، أستاذه شوبنهاور أحيا نظريات الهند وقبله شيلينغ وحّد في تأويله أساطير يونان والهند.

ـ طبيعي أن يوجد في الهند شوبنهاوريون ونيتشويون.

ـ وفي إيران من يقول هايدغر مذكّر. ‎/79.

ـ رغم قوله أن الفلسفة غربية!

ـ أفهم الفلسفة بمعناها الشائع، فلسفة الإنسية والتجزئة التي بدأت مع اعرف نفسك، الفلسفة ـ الطريق لا الفلسفة ـ الغاية. ما يبدو تنويهاً بالغرب قد يخفي نقداً لاذعاً.

ـ أو هكذا يقولون.. وما رأي مسلمي فارس والهند؟

ـ قال يوماً هشام جعيط لإدريس: اقرأ محمد إقبال. لم أجد شيئاً يشير إلى أنه فعل. ‎/80.

ـ سهى إدريس عن كل ما لا يتناسق مع المعقول.

ـ بمعناه الاقتصادي. العقل عند إدريس هو روح الاقتصاد. تبقى إذن مجالات كثيرة حرّة. عندما دقّت ساعة الخيبة، عندما دفع إدريس دفعاً إلى حياته الخاصة، لم يتنكّر لسلطان العقل والاقتصاد استطاع أن يزاوج بين العقل الذي يقبل والفؤاد الذي يتحسّر على الوقت الضائع.

# القسم الثالث

الفصل السابع

# العاطفة

— 48 —

نقرأ عن رجل شهير أنه مرّ بأزمة غيّرت مجرى حياته. نبحث عن تاريخها فنجد أنها صادفت امّا بداية العشرينات وامّا أوائل الخمسينات. أزمة الروح أو الجسد؟ لم يترك إدريس وصفاً لشيء من هذا القبيل، ولكنّي أرى أثر أزمة في كتاباته وتصرّفاته. بدأت شتاء 1955 ثم اختفت عندما غمس إدريس همومه في مآسي الوطن. ولمّا تحرّر المغرب أحسّ بالخيبة كمن كان يسير صحبة رفيق ثم تابع السير وحده على مفترق الطريق.

قطع كثير من الطلبة دراساتهم عند الإعلان عن الاستقلال ودخلوا إلى المغرب ليملأوا المناصب الشاغرة بسبب نزوح الموظفين الفرنسيين. لم يقتد بهم إدريس. فضّل أن ينتظر انتهاء امتحانات التخرج ليلتحق بالمغرب مع حلول الصيف. اجتاز الامتحان بتفوّق، أقفلت المدارس أبوابها، فرغت باريس من السكان ومع ذلك مكث إدريس في فرنسا. شعر شعوراً قوياً أنه لو غادر باريس آنذاك لما ذاق أبداً بعد ذلك طعم الحياة. فقرر أن يعطي لنفسه مهلة، أن يقضي شهرين على الأقل دون أي تفكير في المستقبل.

حينئذٍ، ولأسباب أجهلها، تقرّب من زميله الذي كان مسجلاً في قسم الآداب، بعد أن تحاشاه في السنوات السابقة. كان الزميل يتكلّم باستمرار عن الوحدة والتفرّد، عن الشعر والحب، عن التشاؤم والفشل. يقول أن الجهود، مهما كانت بواعثها وأهدافها، تنتهي حتماً بالإخفاق، وأن الاخفاق وحده قادر على أن يفتح الفؤاد على حقائق الحياة، مستشهداً بأقوال هرمان هسّة، خاصة في كتابه **ذئب الفيافي**/81.

كان إدريس لا يلتفت عادة لهذا الكلام، يعارضه بفلسفة الانتماء والالتزام. يقول أن هسّة من أذناب شوبنهاور ونيتشه. ثم بغتة في بداية الصيف المذكور بدأ يلازم زميله القديم. ويوماً قال له هذا الأخير: «عندك الآن متّسع من الوقت، لماذا لا تغطس في مطوّلة بروست/82، ستجد نسخة كاملة عند سمير. .» سمير هذا كان طالباً مصرياً من أصل شامي، تلقّى دراسته الثانوية باللغة الفرنسية عند اليسوعيين والتحق في باريس بمعهد الدراسات السياسية. قصده إدريس وطلب منه الكتاب. أجابه: حبّاً وكرامة، بشرط أن تأخذه جزءاً جزءاً. هذا تشجيع منّي على أن تقرأه بسرعة!».

قال إدريس: لا أدري كم من الناس قرأوا المطولة مثل ما فعلت. كنت أنهي الجزء فأجري عند سمير. وإذا كانت الساعة ليلاً وسمير في فراشه صرخت حتى يستيقظ ويفتح الباب. قرأت **البحث عن الزمن الضائع** كمغامرة بوليسية. من قاتل الزمن؟ من المسؤول عن الضياع؟ وعندما اكتشف أن فلاناً هو في الحقيقة فلتان لا أتمالك من الفرحة وأصيح: أهو هو؟

قرأ إدريس رواية بروست كلغز، كمهزلة اجتماعية، كمأساة رجل قضى عليه اللهو والمرض. انغمس فيها، التذّ بها، استحلاها كما يستحلي المرء الدقائق الأولى حين يدخل الحمّام، لكنه في نفس الوقت تشبّع بتوجّهاتها اليائسة. ماذا يقول بروست؟ كل موجود ـ حي أو جامد، ساكت أو ناطق، ساكن أو متحرك ـ ستر خادع. تحبّ الشيء، تظن أنك لا تستطيع أن تعيش بدونه، تعمل ما فوق طاقتك لامتلاكه. ثم تحصل عليه، فتكتشف أنه لم يكن يستحقّ الجهد المبذول في سبيله. عاش بروست حياة فارغة ينتظر أن يدخل عالماً مسحوراً. ثم انفتح له باب ذلك العالم فاكتشف أن الحياة التي كان يظنّ أنها لامعة هي في الواقع تافهة فحنّ إلى فترة الانتظار الأولى. غلبه اليأس ثم بعد حين تبدّد الحزن عندما أدرك أنه يستطيع استحضار تلك الفترة بالذات وبالتالي إعادة البريق إلى الحياة التافهة. وجد المخرج إذن ولكنه مخرج خادع في نهاية التحليل. بحث بروست عن مادّة للتعبير. لم يكن يتصوّر أن الفن كامن في الحياة أو أن الحياة تتحوّل من ذاتها إلى فنّ. كان يظن أنهما عالمان منفصلان متباعدان، كانفصال وتباعد الأرستقراطية والبورجوازية، طريق **غرمانت** وطريق **سوان/83**. بعد التجربة والفشل، أدرك أن الفنّ ليس مادّة بقدر ما هو تلوين، تكييف، للحياة نفسها، الحياة التافهة، وأن عملية التلوين هذه توقف الانسياب الزمني، الذي يجعل كل مظهر من مظاهر الحياة خدعة. هذه المحاولة

لمصارعة الزمن والتغلّب عليه ذات قيمة إذن؟ في الظاهر فقط. قيمة الفن إنسانية وليست كونية. يعلم بروست أن اللحظة المنفصلة عن الانسياب الزمني خاصة به كفرد، متّصلة بمجتمعه، وقد يأتي وقت لم يعد أحد يهتمّ به ولا بمجتمعه، بل يأتي وقت لم يعد أحد يهتمّ بالأرض ومن عليها. الحياة خدعة والفن خدعة، خدعة من خدع الحياة ذاتها. لا أظنّ أن أحداً فاق بروست في تشاؤمه، فجّر آخر مأوى لاذ به كبار متشائمي القرن الماضي..

طوال أسابيع الصيف استكشف إدريس أحياء باريس، الحدائق والمتاحف والكنائس.. يندسّ ضمن جماعات الطلبة والسوّاح متغنّياً بجمل بروست الطويلة اللولبية. ويوماً لقي فتاة، كما كان منتظراً، شابّة ألمانية أنهت دراستها، وقبل أن تلتحق بمدرسة الطبّ في مدينة هانوفر، جاءت إلى باريس لتغني تجاربها. كان التفاوت واضحاً بينهما، سناً وهيئة وثقافة. يسيران فتبدو بجانبه كأنها أخته الصغيرة. بل اتّضح في تصرّفاته معها أن تربيته الفكرية لم تكن في مستوى تربيته الوجدانية. دعاها إلى مطعم الحي الجامعي، رافقها إلى كنيسة شارتر/84.

ذهب معها إلى المسرح والسينما وبعد ثلاثة أسابيع ودّعها. مكث وحيداً في باريس إلى بداية سبتنبر، حتى بدأت أوراق الصنّار تتخمّر وسكان المدينة يعودون من العطلة. انتظر حتى عاد زميله وناقشه فيما كان ولم يكن ثم باع كتبه، حزم حقيبته، ودّع الحي الجامعي واستقلّ القطار القاصد أسبانيا والمغرب، ظانّاً أنه لن يندم على شيء.

وطأت رجلاه أرض الوطن فاستولى عليه اليأس والقنوط. لا أقول أن السبب هو التماطل، عدم الوفاء بوعده والعودة إلى المغرب مباشرة بعد انتهاء الامتحان. لا أقول: لو تحمّل مسؤوليته وانغمس في هموم الإدارة اليومية لما شعر بما شعر. كان يمرّ بأزمة طبيعية في مثل سنّه جعلته لا يستطيع تحمّل المسؤولية، وجدانياً إن لم يكن فكرياً وجسمياً. لا أقول أن زميله المتأدّب المتشائم لعب دور الشيطان وأغراه بكلمات معسولة سامّة أوهنت فيه قوى الحياة. لكني لا أتمالك من ربط أسلوب المقاطع التي كتبها بعد عودته إلى المغرب بما كان يقرأ أثناء الصيف.

ـ آداب الانحطاط يؤثّر لا محالة في النفوس؟

ـ يؤثّر بقدر الاستعداد. وإدريس كان في أتمّ الاستعداد عندما قرأ بروست. كان في حالة فراغ وانفلات وتشتّت، حالة سيبة وجدانية.

ـ كانت تؤدي إلى نفس النتيجة حتى لو عاد إلى المغرب بداية الصيف؟

ـ لهذا لا أدري هل سبب الانتكاس صدفة واتفاق أم قدر محتوم.

انفلت من نيتشه واستسلم لبروست؟

ـ ذاك مهاجم وذا مخاتل. كان أدريس نافذ العقل فاستقلّ عن الأول، عليل الفؤاد فانخدع للثاني.

ـ أو ليس نفس الطعام (أو السمّ) في طبخ جديد؟

ـ كتب إدريس إلى الفتاة الألمانية:

— 49 —

«حديثي عن الحبّ والفشل

يريد المثقّف أن تكون الحبيبة على صورته فيجتث الحب من منبته. لا حبّ إلا حسب تصوّر الجمهور: تفاعل إرادتين مستقلّتين في كل ظرف وحين. هذا الاستسلام لواقع الحياة، اعتراف بتناقض الذات. لكن المثقّف أستاذ ملقّن، يجهز على روح الغير ولا يزال يسحل ويصقل حتى تعكس له روحه. ثم يتذكّر قولة جيد: اقرأ هذا الكتاب واطرحه، فيبتعد. لا أحد يحبّ طويلاً أتباعه ومريديه..

هذا هو المثقّف في حالة غروره وجبروته. أما في حالة استكانته وخنوعه فإنه يفعل ما فعل راسين وروسو وديدرو.. /85.. يعادي الجمهور الفكر فينساق المفكّر ويعادي نفسه. يقبل حكم الغير فيه، ينتقم لغيره من نفسه، يؤدّي ثمن جرأته على المعرفة، يتواضع لأنثى أميّة تقوم بشؤونه ولا تشاطره همومه. هل من حلّ غير اليأس؟

يريد المثقّف أن يسلم ويستريح؟ فليتخلّ عن خياره للربّ.. أو للجماعة. في الوسيط ينحلّ التناقض، في الوسيط يحبّ المثقّف نفسه وغيره، يستولي على الغير ولا ينحلّ الغير فيه. في الوسيط تقرّ نفسك ونفس الحبيب. هو أنت وهو.. أنت وهو وأنت.

أتمنّى أن تفكّري، تجرّبي وتقبلي..»

(أكدير 17 .09 .1956.)

* * *

— 50 —

ـ يقصد معنى ابن الفارض:

فكل فتى حبٌّ أنا وهو وهي حبـ ـب كل فتى والكلّ أسماء لبسة

أليس كذلك؟

ـ نعم هو المعنى والمقصد. لكن فهمت البيت على نحو فرضه عليك المقام، بعد أن فسّرت لك حال إدريس. تصوّر فتى ينشد أبيات ابن الفارض في رواق بيت من بيوت فاس العتيقة، وتصوّر شاباً آخر ينشدها تحت قوس من أقواس قنطرة على نهر السين!. ليس هذا وقت الكلام في موضوع التوسّل والوسيلة.

ـ أتساءل: كيف لم يجد في مغرب 56 تلك الوسيلة وكيف ظنّ أنه يجدها مع فتاة من غير جلدته؟

ـ وأنا أتساءل: كيف يجدها في فتاة من جلدته، في سنّه وحاله؟

ـ لا أوافق.

ـ عرفت أنت مغرب 56. خرجت من السجن وقلت: تحقّق الحلم. تلك كانت وسيلتك. هل دامت؟ قلت: بعد الشدّة الفرج. كانت شدّتك السجن. أمّا شدّته هو، سجنه هو، فكان شيئاً نسبياً يقاس بحالتين: حالته هنا وحالته هناك. لا يمكن أن يقول صادقاً: خرجت من السجن.

ـ ومع ذلك خرج من السجن، كما خرجنا منه جميعاً، نحن وسائر المغاربة.

ـ من سجن لا من السجن، من سجن مادّي لا من سجن فكري. لم يعبّر عن ذلك بلسانه (على الأقل في الأيام الأولى) ولكن عبّر عنه بجسمه كالغارق.. تخبّط تخبّط..

ـ رموز إذن كتاباته!

ـ رموز غير متوخاة. إذ يصدق التحليل الوارد في القطعة على علاقة المثقّف بمحيطه. لا يقدر على تطويعه ولا يرضى بالخضوع له. فيلجأ إلى المماطلة، إلى إرجاء كل شيء إلى مستقبل مستقر يتحكم فيه قدر إلهي أو طموح جماعي..

— 51 —

«كل صباح أضع رسالتك أمام عيني وأتأملها طويلاً.. رسالة واحدة تلاها صمت عنيد. مع مرّ الأيام تبهت الصورة في ذهني وسيأتي يوم أعجز عن تخيّلك فتاة

حيّة. لم يتحقّق أي من أحلامي.. معلّق بين رفضي الواقع ورفضك مساعدتي على تغييره.

لم تكوني مجرّد معرفة لقيتها صدفة في المترو ورافقتها إلى **شارتر**. كنت الفرصة الأخيرة المتاحة لي لآخذ مقعدي على مائدة الحياة. ظننت أني سأختار وأحسن الاختيار بمساعدتك. فهجرتيني وتركتيني حائراً أتردّد بين الأحياء. منذ الصغر وأنا أشعر بخصاص عاطفي، وعيت به فقرّرت أن أقسو على نفسي، أن أنبذ التعاطف والتوادد. ثم حصل ما حصل واليوم إذا ما تماديت في سكوتك حكمت عليّ بحزن مؤبّد. هل تتفضّلين؟.

* * *

أودّ لو أكتب إليك رسائل كثيرة أحدثك فيها عن فلم كازن **شرق عدن**/ 86 الذي شاهدته بعد مغادرتك باريس، عن سفري عبر أسبانيا وتجوالي الطويل في أروقة البرادو/ 87، عن حياتي الآن على شاطيء البحر، حياة بطالة واسترخاء كما لو توقّفت الدنيا ولم يبق فيها سائل أو مسؤول. لماذا أكتب إذ لا تردّين؟ أعد نفسي: إذا لم تجب توقّفت. ثم استأنف. إذ لا تردّين؟ أعد نفسي: إذا لم تجب توقّفت. ثم استأنف. إذا لم أكتب ماذا أفعل بعد أن توقّفت الدنيا ورفعت المسؤولية عن البشر. (1956. 09. 25).

* * *

برودنثيا.. لك نطق ولي نطق. رغم صغر سنّك تعلمين ما هي الكياسة.. لا الحيطة أو حسن التدبير بل الحذر في تعريف أرسطو. هذه هي رصانة الألمان.

نمشي الهوينى في بهو المسرح. أنت مطرقة في فستانك الأخضر وأنا أحدّق في يديك الدقيقتين النحيلتين. ماذا أحببت أيام يوليوز؟ لون فستانك الذي يعد بأكثر ممّا تتخيّلين. نعم كنت حذرة من أقوالي وأفعالي. استمعت إلى تحت سماء باريس.. كل شيء ممكن ومباح في باريس. ثم عدت إلى غيوم بلادك فغلب عليك جدّ الأجداد.

رسالة ناقصة.. قصّة مبتورة.»

ـ غلب الحذر القدر..

— 52 —

ـ الجملة الأخيرة من إدريس؟

ـ لا منّي أنا. لم يتعلّم إدريس من الفتاة ما كان ينقصه، أعني الحذر.

ـ نقصه ونقص غيره.

ـ لو كان إدريس متهوراً لما أضرّه عدم الحذر. يمحي النهار ما يكتبه الليل. الطامة هي عندما يلتقي الجدّ بالثقة العمياء. في حاله وحال أسرته وحال المغرب أصبح إدريس عدو نفسه..

— 53 —

«أقرأ الخطابات التي كتبتها إليك. وأسمع فيها كلها نداء ملحاً. فأتساءل: هل يتعلّق الأمر بك فعلاً؟ عندما تعارفنا كنت منفتحاً على الدنيا وكنت درة طائرة خرقت كياني واستقرّت فيه. رأيت فيك فتاة ذات نباهة وحساسية. تنظر إلى الدنيا بكثير من الأمل وكثير من السذاجة. ألهذا انجذبت نحوك؟ كنت قد سئمت شيخوختي المبكّرة فملت إليك. لم تكوني كبيرة السنّ لتعكسي إلي أفكاري ولم تكوني خفيفة نزقة لتتهكّمي من ثقافتي العميقة. قلت أنها قادرة على أن تعلمني سرّ السعادة ثم كنت لا تزالين طالبة متعوّدة على الإنصات. كنت أعلم أني لن ألقّنك جديداً ولكن هيئتك ـ رأسك المائلة وأنظارك المتوسلة ـ كانت توهم أنك تلميذة أمام مؤدب.. حلاوة بعد خدمة. أتعلّم بتعليمك ما لم تعلّمني الكتب.

السبب الحقيقي لتعلّقي بك؟ لم تكن علاقتنا بديهية تلقائية. كانت تتطلّب مني جهداً، تتطلّب أن أقرّر ما أريد وأن تكوني أنت عبارة عن قراري. الميل، العطف، الجذب، الرغبة، كل ذلك ينطلق مني، يجذبك انجذابي إليك، يعطفك انعطافي نحوك، وإذا تحقّقت رغبتي كانت علاقتنا من غير التي تنشأ بالصدفة وتنحلّ بالملل.

هل ضاع الأمل؟ تتباهت صورتك، يطول سكوتك ولا أزال مصرّاً على المخاطرة، على معاكسة العادة والطبيعة. لا أريد أن أعرف رأيك في. أريد أن أحبّك رغماً عنك. هكذا كنت ولا أزال. أحتفظ بذكرى فتاة صغيرة رشيقة ولا أحتاج إلى شيء آخر. الحبّ تصوّر الغائب؟ لا أحتاج إلى حضورك بجانبي، ألا أحتاج إلى دليل عن وجودك؟ لولاه لكنت أحببت شبحاً. وبالفعل أنت شبح. أراسلك بخطابات احتفظ بها.

كلمة منك وأتابع التجربة.. لا تنسي قسمات وجهي في غيوم هانوفر.

هل لهذا التوسّل معنى؟

(الرباط 12. 11. 1956)

***

الاخفاقات متوالية. تقوّي أم تضعف، تنبّه أم تسكّن؟

الفشل إرادة لا قدر، انكسار لا كسر.

وتستحيل الكتابة. أي فرق بين الحق والباطل في غياب الصدق؟ وكيف التحقّق من وجود الصدق؟

الصمت عبء والكلام نقمة.

ومن الناس من يظنّ أنه سيخرق الأرض ويبلغ الجبال طولاً!!

(الرباط؟)

***

حزن وكآبة وشمس لا ترحم. أشعتها ملحاحة، تخرق الجسم خرقاً وتفرغه من ماء الحياة فتحوّله جماداً بين الجماد.

أخشى الجديد والشمس أمير يجدّد زينته كل يوم. ماذا يعنيني من بهائه؟

كم مريح بهت الألوان المشطّطة، ترغم على الثوبة والمحاسبة! أقول هذا لغيري.

ولنفسي أقول: الأمور الآن واضحة، لن تخدم غيرك، لن تعمل على غير دستورك. لا تستمع إلى من يستجديّ، وجّهه إلى صاحب الأمر والحول.

أقوالهم وأحوالهم سراب.

تحلم بالرفعة وهم بالكفاف.

الإغراء.. الاجتذاب.. يا لها من مهزلة!

لسان حالهم يقول: نحن رجال الحاجة، بها نقوم ونقعد، لولاها ما عرفنا اليمين من اليسار. إذا قلت لست منكم طرحوك في زحم الأشياء لتعذّبك وتهنك، لتدوسك وتذلك، لتضايقك وتخنقك حتى يعلوك الغثيان. تحاول ولا تستطيع قذف ما في جوفك. تتمنى أن تكون وحدك في الدنيا ولا سبيل.

ما الوعي سوى شق الشيء في الكيان؟

(الرباط نوفنبر)

***

كلّ شيء خائب بائخ، الماضي والحاضر. متى يلمسنا طير الأمل؟

عزم الزعماء وزعموا. . أما يعلمون أن كل يوم يضيع يزيد من المسافة التي يجب استدراكها؟ يتجوّلون. أولم يخرجوا من السجن. . هم في أمس الحاجة إلى الحركة فيتبعوا خطوات الجوّالين السائحين. لماذا لا يسيرون في الأرض مهلاً. . ليدرسوا الأحوال؟ ماذا كانوا يفعلون إذ كانوا في السجن؟ يقرؤون ويسمعون والآن يريدون أن يشاهدوا بأعينهم، أو ليس هذا هو الطريق الأقوم؟

تحرّرنا لننام ونستريح. حكمة الأجداد: الزمن السرمدي مليح ومريح.
التاريخ وعي وعقاب. . لمن تكبّر وقال أنا

(باريس؟)

* * *

حذّرتني أن لا أنساك ثم نسيتني. أمّا أنا فانّي أمرّ كل يوم ببنايات وميادين تعيد إلي ذكراك. . القصر الملكي، ساحة المسرح، مقهى الفنون، القوس ثم الجسر/ 88. كان المطر يسقط: شريد يمتصّ النبيذ، زنجي يصطاد في النهر ويمازح امرأة، زوجان ينتظران الصحو مثلنا. . كل يوم أقطع المسافة من القوس إلى الجسر فتقفز الصورة من النفق وتلتصق بحدقتي فأرى ما لا يراه غيري. أعد نفسي بالكتابة إليك وها أنا أفعل وفاء للماضي وبدون أمل.

هل تعودين الصيف القادم؟ هل أجدك على حالك شابّة حرّة ساذجة بريئة؟ كتبت إليك رسائل قصيرة ـ لماذا الاطناب؟ ـ تافهة ـ لماذا الترداد؟ قلت لك كل شيء يوماً من أيام يوليوز في مطعم الحي الجامعي ولم تردّي في الحين. وعدت بالجواب في رسالتك الوحيدة القصيرة ثم لم تجيبي. منعك مانع؟ هو نفسه سيمنعك من قراءة رسائلي. كيف تجيبين على أسئلة يطرحها سائل غائب؟ كيف تفهمين مغزاها وقائلها محجوب عنك؟ لعبة رهان. . الوجه أم القفا؟

يسألني البعض: والشابة الألمانية؟ فأقول: انها في ألمانيا. . مع الأم والأخوة والمطر والضباب. .

(باريس 14. 02. 1957)

* * *

إلى شعيب.

أود لو نستأنف المراسلة حتى ولو عدنا إلى موضوع علي ومعاوية الذي كنا نتناقش فيه ونحن في طريقنا إلى المسبح البلدي. أعيش الآن في عزلة تامّة. غادر

باريس رفقاء السنوات الأولى والطلبة الذين جاءوا بعدهم لا يعتبرونني أحداً منهم. ينظرون إلي كرجل أخطأ موعده مع الأحداث. إذا لم تطغ عليك الحياة الزوجية زوّدني بأخبار المدينة وأخبار الوطن. أتمنّى أحياناً أن أعود إلى مدينتنا العتيدة وأن أشتغل معلماً في المدرسة التي عرفتها تلميذاً. حلمنا بمغرب شاب للشبّان، مغرب عادل حازم ينظر إلى الأمام ويعمل بهمّة وطموح، فكشف لنا عن مغرب شيخ للشيوخ، ينبذ كل يوم مقياساً جديداً من مقاييس العصر. كنا طفيليين في مغرب الأجانب وها نحن أجانب في مغرب الأشباح العائدة. قد تقول: هذا ميزان الكون، هذا وجه من وجوه الاعتدال. لكن الأيام تمرّ والعالم يتقدّم ونحن نتفرّج. هذه ارتسامات رجل غائب والرأي لمن حضر. أكتب ولا تبخل.. (باريس؟)»

— 54 —

استعاد المغرب استقلاله ورغم استمرار الوجود الفرنسي والأمريكي، أصبح في إمكان الحكومة الوطنية الجديدة أن تتّخذ إجراءات قد لا تعطي نتائج مباشرة ملموسة ولكنها على الأقل تمهّد السبيل لتغييرات جوهرية في المستقبل.

واجهت الحكومة مشكلاً تقليدياً: هل يجب اتباع سياسة العواطف أم سياسة المصالح؟ خاصة وحرب الجزائر قائمة والانقلابات متوالية في الشرق العربي. بعد صراع عنيف وأحياناً دموي بين الأحزاب، بعد فترة مليئة بالحزازات والخصومات والمزايدات، بدأت الأمور تعود إلى مجراها الطبيعي، أي المجرى الذي لا يمكن لأي حكومة أن تعاكسه طويلاً. تكوّنت القوات الملكية المسلّحة فحافظت على وحدة البلاد وأعادت الثقة إلى النفوس. نظّمت الوزارة الخارجية التي رسمت النهج الذي سارت عليه معاملات المغرب مع البلاد المجاورة الصديقة والشقيقة وكذلك مع البلاد البعيدة المحايدة. في هذه الظروف المتميّزة باستقرار نسبي اتّبعت لمدّة قصيرة سياسة المصالح.

وبالطبع حظي هذا الاتجاه برضى قسم كبير من الرأي العام المغربي الذي يتخوّف باستمرار من انجذاب المغرب العربي نحو المشرق. صدرت في الصحف الفرنسية مقالات تنوّه باعتدال وتعقّل سياسة المغرب المستقلّ. وجاءت شخصيات صحفية وسياسية لتحاضر أمام الطلبة المغاربة مشدّدة على نفس المعنى. وكما كان منتظراً أغضب الاتجاه المعتدل هذا عدداً كبيراً من الطلبة والحزبيين والنقابيين ممّن كانوا يحبّذون اتّباع سياسة مبادىء، سياسة تضامن مع قوى التغيير في العالم، ومن

ضمنهم إدريس.

— 55 —

«ما أكثر من يثني هذه الأيام على حكمة سياسة المغرب الرسمية إما أكثر من يقول لنا: وصلتم سنّ الرشد إذ تتعاملون مع الوقائع لا مع الأوهام كعرب المشرق، أنتم في الحقيقة غربيون، اعتصموا بالغرب، فيه سرّ نجاحكم وضمان مستقبلكم. كلام يطربنا إذ يعيد إلينا ذكرى الأيام التي كنّا فيها حماة الغرب الإسلامي.

وسائل التحكّم في الغير متنوّعة، بعضها واضح فجّ وبعضها خفي ذكي. انتهى عهد الاستعمار المباشر وبدأ عهد الإمبريالية. طبعاً قوى الاستعمار تبني على شيء موجود. لو وظّفت شيئاً موهوماً لانفضح أمرها في الحين. توجد تناقضات موضوعية بين الجماعات البشرية، إلا أن الحيلة هي صبغها بكيفية تستحكم معها تلك التناقضات في قلوب الناس حتى تعود غير قابلة للحلّ.

يجب أن نتأمل بعض السوابق وأن نعي ما تكنّه من دروس. لنتذكر ما جنته انجلترا من سياسة لورانس/ 89 الذي مجّد العرب وأثار حفيظتهم ضد همجية الأتراك، ومن استحكام العداوة بين آل هاشم وآل سعود، بين العراق ومصر، بين أتباع المهدي والموالين للسياسة المصرية.. قبل أن نقبل أي حكم لنا وعلى إخواننا وجيراننا يجب أن نفحص أولاً الواقع لكي لا ننساق مع الأوهام. أن الكثيرين ممّن يظهرون الصداقة لنا يتذرعون بالواقعية لملء أفئدتنا بالأساطير والخرافات. كتبنا صفحات مجيدة في تاريخ منطقتنا، عرفنا على فترات متفاوتة عصوراً ذهبية حقيقية، وجدت الرأسمالية عندنا محيطاً ملائماً فشيّدت في بلادنا قاعدة يمكن أن تكون بداية نموّ متكامل مطّرد. هذه حقائق لا جدال فيها بشرط أن ننظر إليها داخل حدودها، أما إذا ضخّمناها، إذا جعلنا، كما يقال، من كل حبّة قبّة، فانها تتحوّل إلى أخطاء مضرّة وربما قاتلة. يبدو المغرب مصنّعاً إذا قورن بليبيا اليوم ولكن إذا قورن ببلجيكا أو الدانمارك أو السويد أصبحت صناعته شبه منعدمة. يعرف المغرب مدن قزدير وتونس أكواخاً من طوب وتبن، لا شكّ أن الفرق في المادّة المستعملة يدلّ على تفاوت في درجة التصنيع ولكن هل تختلف النتائج الاجتماعية؟ ومع ذلك يذهب الوهم عن تقدّم الصناعة المغربية ببعض مواطنينا إلى إطلاق أحكام صبيانية على بلاد الشرق فنسمع البعض يقول: تنهج مصر سياسة الحياد الإيجابي لأن صناعتها ضعيفة ولأن نقاباتها العمّالية لا تصل إلى تنظيم ووحدة الاتحاد المغربي للشغل!. يقول لنا أندريه

فيليب/ 90 ان مصر لا يمكن أن تحلّ مشكلاتها الاقتصادية إلا إذا تحوّلت إلى مركز صناعي يزوّد بمنتجاته أسواق الشرق الأوسط كله، ويستخلص أن تطرّفها في السياسة خطأ فادح. هذا كلام لا يفهم إلا إذا كان قائله يظن أننا لا نزال نعيش في القرن الماضي. يقدّم لمصر حلاً على النمط الياباني مع أن الأوضاع العالمية قد تغيّرت. كان اليابان سبّاقاً إلى التصنيع في آسيا فلم يجد من ينافسه في منطقة نفوذه. أما مصر فانها تواجهه من الآن مزاحمة ايطاليا وإسرائيل وستواجه عن قريب مزاحمة اليونان وأسبانيا بغضّ النظر عن معارضة الدول الغربية الكبرى المتحكمة في النفط العربي وفي الممرّات البحرية. هل تقف كل هذه الدول مكتوفة الأيدي وهي ترى مصر تتطوّر إلى منافس قوي؟ والمفارقة أن السياسة التي يقدّمها فيليب كبديل للوطنية المتطرفّة (في تعريفه المناهضة للاستعمار الغربي) هي المبرّر الاقتصادي لفلسفة عبد الناصر الوحدوية التي تشيع الرعب في قلوب الغربيين.

نحسّ اليوم بالفخر والارتياح لأننا استطعنا أن نحافظ على وحدة واستقرار البلاد وهذا شعور طبيعي، لكن لا يجب أن نغفل عن النقطة الجوهرية وهي أن حالة المغرب لن تتغيّر في العمق إذا لم نضع أساس تصنيع حقيقي. يحقّ لنا أن نصفّق لمشاريع مثل عملية الحرث غير أن التصفيق لا يجب أن يصمّ آذاننا عن الحقيقة المقرّرة وهي أن لا تحرير بدون مدخنة. لا تطرّف ولا حذلقة في هذا القول الذي لا يعدو أن يكون عبارة موجزة عن قانون نلمسه في كل بلد متقدّم نزوره ونستخلصه من كلّ كتاب علمي ندرسه. لا يجادل فيه أو يتعامى عنه إلا حالم واهم.

بيد أن أصدقاءنا، الذين يطربون أسماعنا ويدغدغون عواطفنا، يفضّلون أن يلفتوا أنظارنا إلى التوافه والهوامش. ما جدوى تاريخنا الطويل وحضارتنا العريقة، سياستنا الرصينة وديبلوماسيتنا المعتدلة ووطنيتنا المتفتّحة إذا بقي المغرب بلداً زراعياً غير موحّد المشارب والأهداف؟ في هذه الحال نكون متخلّفين عن بلاد الشرق العربي لا متقدّمين عليها إذ مرّت بعضها بالمرحلة التي نمرّ بها الآن واستنفدت كل ما فيها من فائدة. ظنّ حزب الوفد في مصر ولمدّة طويلة أنه سيضمن الحرية بالقانون والتقدّم الثقافي بالتشريع البرلماني، والنمو الاقتصادي بالتكافل وتعمير القرى، مرت سنوات ولم ينخفض عدد الأميين ولا ارتفع الوعي السياسي عند الجمهور، ولا أقلع الريف عن عاداته العتيقة، ولا أنجبت البلاد فنّاناً أو مفكّراً تجاوز صيته حدود الوطن العربي. بل بقي المصري لا يرى واقع أمره. يذهب إلى الخارج، يلحظ الفرق بين مستوى

العيش في مصر وفي الغرب، ثم يعود ويروح يتكلّم عن مصر أم الحضارة. لم يستمع المصريون لمن كان يردّد بينهم أن النمو الثقافي والتقدّم العلمي والتحول الاجتماعي والتوسع الاقتصادي والمناعة العسكرية ومعرفة الذات وحرية الفرد وانعتاق المرأة.. ان هذه وغيرها من أوجه الرقي لا يمكن أن تتحقّق إلا بتعميم العمل وتنظيمه ورفع قيمته أي بالتصنيع. الآن بعد تجربة مريرة طويلة أدركوا أين يوجد الداء وما هو الدواء، فقاموا مشمّرين عن سواعدهم، محاولين استدراك ما ضاع من الوقت، ألا يليق بنا أن نتفهّم أهدافهم، أن نصفّق لمجهوداتهم دون الالتفات إلى ما قد يرتكبون من أخطاء أثناء التطبيق؟ لكن أصدقاءنا يفعلون العكس بالأسف الشديد، يهملون الجوهر ويطيلون الكلام على التوافه. قد يقولون ما يقولون عن صدق وحسن نيّة، لكن المهم هو أنهم يبثّون الشكّ في النفوس، يجعلوننا نرتاب في جدوى التجربة المصرية ويوهموننا أن ما يطمح إليه المشارقة قد تحقّق عندنا منذ أعوام. يمجّدون المساعدة الفنية الأجنبية ولكن ما فائدتها إذا كنّا لا نهيّىء من الآن من سيخلف الفنيين الأجانب؟ وكيف نهيئهم إذا تقاعسنا عن تشييد قاعدة صناعية متكاملة. يشجّعوننا على الدخول في أورو ـ إفرقيا مع أن دورنا فيها لن يتعدّى تزويد الصناعات الأوروبية بموادّ أوّلية رخيصة. يتكلمون لنا على ضرورة رفع الانتاجية مع أن المغرب منهوك بالبطالة الظاهرة والمقنّعة. كيف نتدارك النتائج السلبية لحالة لا نعرف أسبابها بل نعمل كل ما في وسعنا لكي لا نعرفها؟ كيف نتحالف مع أوروبا قبل أن نكون في المستوى المطلوب، أي ندخل في أجهزتنا الاجتماعية والإنتاجية والإدارية والتعليمية الإصلاحات الجذرية اللازمة؟ قد تكون عملية التصنيع صعبة وربما مستحيلة ولكن على الأقل لنعرف الأسباب والظروف. ومهما يكن فليس من المعقول أن نعوض ضعفاً حقيقياً بوهم قوة لا أساس لها. الوعي بالواقع هو آخر سلاح يملكه الإنسان العاقل فلا يجوز أن نسمح لغيرنا أن يجرّدنا منه بحيلة لا تنطلي إلا على الصبيان..»

— 56 —

عاش إدريس مع شبح الفتاة الألمانية طوال سنة 1957 حتى صادف شابة أخرى، فرنسية هذه المرّة، فعاملها هي بدورها كشبح. غادرت بلدتها بجبال الفوج لتتأدّب وتتحرّر في العاصمة. كانت داخلية في ثانوية فينلون للبنات تحضّر مباراة المدرسة العليا. لم تتأخر عن مقابلة إدريس، تستقي منه ما ينفعها في دراستها، وفي نفس الوقت كانت ترافق إلى مراقص الحيّ شاباً من الأرجنتين. دامت العشرة

شهرين. يكتب لها إدريس يوم الإثنين ويقابلها يوم الجمعة. ثم سئم المسرحية ـ طرح الكتاب بعد أن قرأه أو ظنّ أنه قرأه ـ طلب منها أن تعيد إليه رسائله وأعاد هو إليها بطائقها. ثم مرّت الأيام. جلس مرّة في مقهى لارومري وإذا بفتاة تقترب من مقعده. حدّق فيها منكراً حتى فتحت فاها وقالت: كنت أحبّ رسائلك، ندمت كثيراً على فراقنا، ثم تقدّم شاب رشيق أنيق أبيض البشرة أفحم الشعر: أنت هو إذن ـ كم من مرة سمعت اسمك! خيّمت على بيتنا باستمرار، شبح لم أستطع أن أغالبه، نسكن بالقرب من هنا. . آت معنا ولو دقيقة.

قال إدريس: حاولت أن أعتذر ولكن الإثنين ألحّا وأخيراً تبعتهما إلى شقّتهما الصغيرة النظيفة التي كانت تطلّ على مقهى مابيون. علمت أن الفتاة لم تعد تذهب بانتظام إلى المدرسة وأنها تقضي أكثر أوقاتها تنتظر الفتى الأرجنتيني الذي يدّعي أنه مسجّل في معهد الفنون الجميلة. تخيّلت أن أهلها لا يعرفون حقيقة أمرها وأنها هي لا تطمئن إلى مستقبلها. لذلك لمّا رأتني تذكّرت بداية عهدها بباريس عندما كانت سيّدة نفسها. ظنّت لحظة أن الزمن قد ينعكس. لا أتذكر منحى الحوار القصير الذي جرى بيننا. تلقفت المشروب الذي قدّم إلي ثم وعدتهما أني سأزورهما عن قريب لا محالة وغادرتهما وأنا أشعر أني أنفلت من فخّ لعلّ الفخّ كان حقيقياً، نصبه إلي وعي الفتاة البريئة التي أتت من الآفاق إلى باريس وانخدعت وسقطت ولم تعد تدري ما سيكون مصيرها.

هذه هي الفتاة التي راسلها إدريس أثناء شتاء 1958.

— 57 —

«أختي. . ألهيك عن العمل؟ آخر فكرة تتفقّع في ذهنك الذي تتذرّعين بفراغه. من يدري ماذا يدور في أذهان الفتيات؟ وبما أن ذاكرتك خائنة فاني أنبهها بالكتابة.

شخص ترينه في الشارع والمقاهي، تسمعين إليه ساهية صامتة لكي لا يتوثق أي رباط بينكما، كيف تتذكّرينه بوضوح؟ أكتب إليك رسالة قصيرة بسيطة، رضوخاً عند أمرك، لأراك يوم الجمعة، لنذهب ان أمكن، لمشاهدة فيلم بريسون/ 91. . نتحرّر من كل عاطفة رخيصة، نقصد بلاد الطهارة والصفاء.

هل تقبلين؟ الدرس أن الحبّ عزيمة.

(باريس 14. 01. 1958)

***

تقولين الحياة سطحية مسيحة فأحرى الكلمات. أي معنى للتحذلق؟ كل جدّ زائف مضحك. تقولين ذلك إشارة بهيئتك وسلوكك. ماذا أجيب سوى أني راهنت على الورق والكتاب قبل أن أسمع وأعرف وجودك، كيف أتغيّر في رمشة عين؟

بدوت لك البارحة أستاذاً مقيتاً وأنت ضجرت من أقوال كل الأساتذة. أتتصوّرين أني أعطي قيمة مطلقة لما أقول؟ الكلمة ستار سميك يخفي الحيرة والقلق والحصر. رفعت العبّارة ولجأت إلى أعالي البرج لأنك لا زلت إلى اليوم حرفاً غير منقوط، شكلاً غير ملوّن، ترفضين كلّ نوع من أنواع التواصل. ألا حقّ لي عليك؟

(باريس؟)

***

وأخيراً صدرت الترجمة الفرنسية للكاتب الشاعر القاصّ الايطالي الذي انتحر سنة 1951 تاركاً مذكرات بعنوان **الحياة مهنة**/ 92. عنوان جميل وفكرة عميقة. قلت لك إنّك ستستفيدين منه أكثر مني. أتمنّى أن تستوعبيه وتتجاوزيه.

عندئذ ستستمعين إلي!

(باريس 3 .02 .1958)

***

أكتب إليك لحظة غيابك. مباشرة بعد أن بلعك المترو. أشعر بالخيبة لأني عجزت مرّة أخرى عن اختزالك، عن سحقك كما قلت لك مرّة مازحاً، أو بعبارة ألطف، عن فهمك. أقول لنفسي: لن أفهم أبداً هذه الفتاة العنيدة المنغمسة في صمتها. ثم أعقّب: أتلاعب إذ أعلم يقيناً أن الفهم يعني الأكل والهضم. أحتفظ بك على حالك، بما فيك، يا بنيّة، من معلوم ومجهول، من طيّع وعنيد، من واضح ومستور. لماذا نلحّ على الكشف والظهور؟

ذات مساء مرّت بي فتاة تمشي بعزم وقوة كسائحة أمريكية جاءت لباريس غازية. بدت لي طويلة القامة وأنا أكره الطول في النساء ـ العملاقات من حظ العمالقة البله. كنت متعباً منفصلاً عن محيط الأشياء لطول ما ناقشت ومازحت. صحت: هذه فتاة ديمقراطية. لماذا هذا النعت؟ عن يأس أم غرور؟ عملاق ينتظرها عند المنعطف؟ إلا أن المركب الذي أقلع فارغاً عاد بالخير العميم. قرب الميناء أوشك أن يغرق، فنودي على الصنّاع والمهندسين، المبتكرين والمنفذين. اشتغلوا فنجحوا وأعلن في

السوق: مراكب أخرى في الطريق، أرباح أخرى في المتناول. والرجل العادي، الخادم البسيط، الغائب عن نفسه وعمله، ما حظه؟ أيظن أنه يفكّر بالمجّان؟ أيظنّ أن الحياة لعبة بريئة؟ الحياة تنتقم دائماً ممّن يتبجّح بحريته واستعلائه. من يأتينا بأخبار العامل الساذج؟ أنت عزيزتي.

وأنا أيضاً دفعتني الرياح حيث لا أريد. أنهي الرسالة أم أتركها ناقصة؟ سأبعث إليك بما كتبت، بلا تطويل، لكي تصلك يوم الجمعة. هل يأتي جواب عن الرسالة وعن السؤال؟

(باريس 12. 02. 1958).

* * *

من بعيد يبدو باب الجنوب كأنه مدخل ثكنة. النهار ممطر والعربة تتقدّم ببطء. أحدّق في حذائي والفتاة بجانبي تحلم. هل هذا نزل فلوريدا؟ ـ سيدي ها اللافنة! ـ لم أعد أقرأ. أودّ أن أسمع صوت البشر. ها قد وصلنا وحولنا الأشياء كما توقّعناها: السقف المصبوغ القاتم والستر الحمر وزيتية غريكو/93. حبيبتي هنا أودّعك. ـ بعد أن قطعنا هذه المسافة؟ نعم في هذا الموضع، لا في موضع آخر، وتعلمين السبب.

نقول نحن. من نحن؟ كل شيء فينا يعكس شيئاً خارجاً عنّا. مفاتيح نفسنا في يد غيرنا. منذ ولادتنا صودرت حريتنا التي نكتب حروفها على الجدران والأوراق/94. وهي.. من هي، الآن وقبل الآن؟ سناد من دم ولحم أعلّق عليه احساساتي. أحببت فيها الألم الذي داخلها وهي تسمع منّي كلمة الفصال، الألم الذي نقش في ذهني، رغماً عني، قبل أن أعرف اسمها أو شكلها.. تفارق الكلمات القرطاس وتصاحبنا في الشوارع ثم تتجسّد في تعاسة أشخاص. أضحك عندما أسمع كلمة حياة. من الحي؟ أين الحي؟ يتكلم الساذج عن الحياة ولم يدر أن كل شيء تخطيط في الهواء. هذا الذي يعجز في فهمُه، مع أن الجميع يتكلّمون عنه بدون ورع، كم يضايقني عندما ألقي بجسمي على الفراش!

كتبت هذه السطور ومن حولي أطفال يتصايحون. أتردّد هل أبعث بها إليك أم لا.. أقول هذه أشباح تلاحقني، أحاول من حين لآخر إلهاءها عنّي ما علاقتها هي بها؟ هل لها أشباحها؟ أم هي بريئة إلى حدّ أنها تنام ولا تحلم؟ تقول أنّها تحبّ كتاباتي.. تأدّباً؟ تلطّفاً؟

الشاطىء جميل، تهبّ فيه ريح غربية ناعمة. أرى على اليمين فنارا مثل فنارات مادراس ورصيف /95، وعلى اليسار سيدة البحر يقصدها صيّاد عجوز، نصف عاري، يقوده حماره.. سيّدة البحر تعرفين عنّي ما لم أعرف عن نفسي فلا تبكي لحالي. صدّقيني أني مرتاح، بك ومعك، لا حاجة لي بغيرك. غيرك يحزنني، أسمع إليه يناجيك من وراء حجاب، يوالي الآهات من خلال هبّات الريح. وفائي إليك يحييني، بياض القرطاس يعشيني. قد طرحت عنّي الآمال فأنا الآن خفيف سعيد مرتاح، لا تبكي على حالي سيّدة البحر!

كارا ميّا متشوّق إليك بداية الأسبوع لمدّة أطول من المعتاد..».

— 58 —

ـ هذه رسالة كتبت بلا شكّ في المغرب.

ـ ألحقها إدريس بالرسائل الموجّهة للفتاة الفرنسية. في الواقع لم يخاطب إدريس إلا نفسه. من الواضح أنه لم يكن ينتظر جواباً من أي أحد. لهذا السبب تعثرت علاقته بالفتاة. كان يقول لها: أنت شبح، أخاطبه كتابة لأني محتاج إلى مراسل.

ـ لم يصل إلى هذا الحدّ من الخشونة.

ـ ولكن القصد واضح. من البداية كانت الرسالة وسيلة لمناجاة نفسه. وفي القطعة الأخيرة نرى نهاية التطور حيث انحلّت الرسالة إلى وصف أدبي صرف. بعدها يمكن لإدريس أن يكتب مباشرة، أي أن يغاور القارىء المجهول.

ـ منذ البداية وأنت تعارض بين الحياة الخصوصية والحياة العمومية. كما لو كنت تبرّر باستمرار قولك: لو لم تخب آماله السياسية لما اتّجه نحو التعبير. إذن في رأيك لم ينغمس في حياته الخصوصية إلا لأنه طرد طرداً من الساحة العمومية. ما قولك عندئذ في الفقهاء الذين كانوا يفتون طول النهار بسحنون وخليل ثم في المساء يتغنون بليلى وسعاد؟

ـ أتعجّب من حالهم أيضاً. في هذه النقطة ورث أدريس ما ورث. أبحث عن السبب العميق الذي دفعه إلى الكتابة، إذا كان هناك بالفعل سبب. هل الكتابة نتيجة طبيعية للممارسة داخل الحياة أم هي تعويض عن الحياة؟ هو نفسه يتساءل باستمرار عن معنى الحياة الحقّة؟ هل الكتابة من توابع التمثّل؟ هل الحياة نفسها

تمثّل؟ أعلم أنه بدأ يكتب وهو شاب، لكن لو لم يجد ما يشجعه فيما بعد أو يلزمه إلزاماً لتوقف كما يفعل شبّان كنيرون. طبعاً أتكلم عن الكتابة التعبيرية. .

ـ كلّ منا يكتب، المعلّم والتلميذ، الزعيم والخطيب، المهندس والطبيب والمحامي.

ـ هؤلاء رقّامون خطّاطون. . ثم عند التفكير هم الكتّاب أو الكتبة حقّاً لأن الكتابة التعبيرية خدعة وأي خدعة. هذا درس بروست الذي لم ينسه أبداً أبداً إدريس. بروست قتل ودفن ونعى التعبير الفنّي كما قتل ودفن ورثى نيتشه الفلسفة. .

ـ ومع ذلك كثر بعد هذين القائلين الكتّاب والفلاسفة!

ـ كم من نبي أو متنبّي أعلن قرب الساعة ولا زالت الأرض تدور. ونحن الاثنين نقول ما نقول ثم نواصل الثرثرة. .

ـ إلا إدريس فإنه كان من الصادقين. .

* * *

قضى إدريس أربع سنوات في الحي الجامعي. كان عليه حسب الأعراف أن يغادر دار المغرب وأن يبحث عن مسكن لدى الخواص. وجد غرفة وراء المدرسة العليا. كان يعلم أنه لا يستطيع أن يبقى في باريس بعد خريف 1958. فعاش كالمحكوم عليه مع تأجيل التنفيذ. يعلم أين ينتهي المشوار فيتصرّف كأنّ المنتهي خارج نطاق الرؤية. ينهض من الفراش فيقول: يجب أن أقضي هذا اليوم كما لو كان آخر حياتي، يجب أن أمتصّ عصارته. يقول ذلك ويجري ليسجن نفسه في مكتبة أو متحف أو قاعة عرض. كانت الحياة بالنسبة إليه هي الثقافة أي حياة الآخرين.

كان يقضي نهاره في المكتبة الوطنية يقرأ في الصباح مؤلفات هيغل وبعد الغذاء روايات أمريكية أو يذهب إلى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية يجدّد العهد بالتأليف العربي، تأليف مصر الثلاثينات والأربعينات. بعد السادسة يقصد مقهى في ساحة سان جرمان لتصفح صحف المساء وينهي نهاره في متحف السينما، الذي كان لا يزال يوجد زنقة أولم أي قريباً من مسكنه، لمشاهدة شريطٍ صامتٍ باهت اللون متموّج الصورة. لا شكّ أنه تكوّن بالمعنى الصحيح أثناء السنتين اللتين نظم فيهما دراسته بكامل الحرية دون التفكير في مباراة أو امتحان. فكّر في البداية أن يكتب بحثاً

عن مفهوم الوساطة في الفكر الإسلامي. كتب: «إذا قلنا أن الإسلام دين التعالي (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً).. إذن يمثل منطقياً لحظة الفراق والألم.. ولكن نحن المسلمين لا نقول بهذه النتيجة.. يجب بالتالي أن نقوم بموازاة التحليل المجرّد بوصف وتحليل سلوك المسلمين، من تصوف وزيارة الخ.. لا بدّ من سوسولوجية الدين.. وإلا بقي كلامنا مبتوراً..». نجد صدى لهذه الفكرة في احدى الرسائل الموجهة للفتاة الألمانية. /69.

ثم تحوّل اهتمامه بعد حين إلى قضية العدالة الاجتماعية. جمع معلومات كثيرة دون أن يرتّبها. لم يكن يعيش عيشة طالب، كان يعيش عيشة باحث حرّ. أحسّ مراراً بمخاطر وضعيته. يطلق بصره من حين لآخر في قاعة مطالعة الخزانة الوطنية فيرى شبّاناً وبجانبهم شيوخاً بملابس مهلهلة وسخة. يعلم أن هؤلاء كانوا في البداية مثل أولئك. يعرفون هدفهم في الحياة، يتطلّعون إلى مستقبل محدّد، ثم توالت الأيام فتاهوا في منعطفات المعرفة ونسوا الهدف. صاروا يتنقلون من موضوع إلى آخر، يعرفون عن كل موضوع شيئاً ولا يستطيعون أن يكتبوا حرفاً، فانسلخوا عن طموحهم وخضعوا لحكم القدر.

كان إدريس يدرك جيّداً أنّه يمشي في ساحة ملغومة، عهد حرج مسحور بين الصبا والنضج. من الناس من يتخطّاه بنجاح ومنهم من يتردّد فيه متشبّثاً بأحلامه الدافئة. هل نجح إدريس؟ هل تجاوز بالفعل أحلام الصبا؟ بل أتساءل: من المنتصر بحق، الوفي أم المتنكّر لأحلامه؟ وأزيد تعقيباً على سؤالك السابق، لا أظن أن الاهتمام بالسياسة يتنافى مع التشبّث بالحلم. السياسة حلم.. أقول هذا وأفكّر في إدريس وفي غيره، أفكّر في أناس كثيرين طرقوا مثله الخط الواصل بين الخزانة الوطنية وكنيسة سان جرمان.. لا أعرف رجلاً حالماً إلا وتطرّف في فكره وسلوكه..

الفصل الثامن

# الذوق

— 59 —

«الحج إلى مونمارت.

كل شيء أرمد، كل شيء جميل خلّاب. نساء يحملن كتباً ضخمة مليئة بالأوهام، رجال يقفون جنب الكنطور، حقائبهم بين أرجلهم. ساحة سان لازار/97 ساحة مرور ولقاء، يقف فيها ويطيل الوقوف من ليس وراءه شغل يدعوه إلى الإسراع. دكاكين تبيع فيها الزهور والجرائد فتيات يلبسن فساتين خفيفة ملوّنة. انتهى الصيف، آن وقت الإياب والدخول بطيئاً في خريف الحياة. ماذا ينقص؟ جذوع عارية وأوراق متساقطة.

تحت كنّة عمارة رجل ممتدّ على فراش من جرائد قديمة. رضي اليأس فلا يلتفت إليه مارّ. بعد حين سيأتي صاحب المتجر، يتظاهر بالغضب، يتكلّف كلمات توبيخ يعلم أنها غير نافعة. كيف يوبّخ بطلاً يتغنّى به شعراء المدينة الرمداء؟

ترتفع الطريق. كل مدن التلال تتشابه. تذكّر بالماضي حيث كان الخلق يتطلع إلى الخالق. سر قدماً، لا تضعف، لا تتردّد لكي لا تجنح وتسقط. نوافذ تفتح، عجائز واقفات على الأبواب في أيديهن مكانس، عالم ينظر إلى الوراء.

تعلو الطريق فيتغيّر لون الأحجار، يخفّ الهواء ويعمّ الصمت. حتى السيارات تدرج ببطء احترازاً من إزعاج النائمين. أي أمير وراء الجدران؟ ينطلق طفل نحو احدى السيارات، لا يضحك ولا يبكي، يسبق امرأة جامدة صامتة.

رحلة نحو الماضي.. تدارك قرنين أو ثلاثة. تتكشّف القرية وسط المدينة

فيغيب الضيم وتختفي معه الأجفان المحمّرة والعيون الدامعة والأكتاف المنحنية. هناء وراحة، طمأنينة وهدوء.. عبير الديار..

وأخيراً، أخيراً، يشخص شابان بدون سابق إنذار كأن الصمت بعثهما من عالم المُثل.. لحية مخبّلة، شعر مغفل، صدرية صوف، بانطلون ملف..

بيوت صغيرة، ذات طابق واحد، بأبواب خشبية تشي بأنس محموم. الأمراء والعباقرة لا يبكرون، لا يعبأون بالأسقام والأوجاع.. أشجار منخورة، مآوٍ عتيقة، عجائز ينظرن إلى سواح مثقلين بآلات تصوير. انعطف هنا، لم يبق بينك والزقاق إلا خطوات معدودات. ها هي المصابيح القديمة، اتبعها وانطق بالاسم حرفاً حرفاً، رتّله ترتيلاً كنهاية أنشودة. ما أكثر من جذبته هنا نظرة حزينة من فتاة تلبس القبعة والمعطف الغبردين! أسمع شيئاً من حوارهما المكتوم ثم أبتعد وأترك الزقاق لهدوئه وصمته.

يتهيأ صاحب المقهى لترتيب المقاعد فوق الرصيف، أجفانه مغمضة، عادة لا عياء!. أقرأ الكلمة السحرية على زجاج النافذة واتبع الزقاق الأيسر لتطلّ على الساحة الأسطورية. هنا رقصت فتيات، كلّهن هائريات يوم 14 يوليوز، وهنا طلقن، كالوطن، الحزن والكآبة. أطفال يخطّطون لألعابهم اليومية ومن نافذة مفتوحة تتدفّق نغمات لاسترادا، عندما أنقذت جلسومينا دموعها. /98.

كل شيء في محلّه، كل شيء على حاله. لا يمكن للساحة أن تختفي، فوقها أحلام آلاف الحجاج. ساحة متعالية شيّدتها الآمال الضائعة والأنظار التائهة، انتظار الجالسين طول الليل إلى موائد المقاهي بحثاً عن مبررات وركائز، ساحة مضيئة بأنظار الليل متنعشة بانتصارات الفجر.

دخلت من زقاق فاخرج من آخر. ها هي المخبزة اسأل صاحبتها: أين الفتاة المرحة، صاحبة الشعر المقصوص والبنطلون الضيق الأسود والجرو الأبتر، تلك التي كانت تبحث عن شاب أسمر فقير يأخذ منك الخبز بدون إذن ولا أداء؟ لم يمر على ذلك زمن طويل، لا بد أنك تذكرين؟ إلا إذا كنت سئمت الاعلام بما حدث.

مغنية الحي على موعد معك. عين ساخرة، وجه صبي، حيوية مراهق وحنان حكيم متشائم. مستعدّة ككل مساء لإطلاق نشيدها المعهود: تسلقوا دروج التل.. تشجيعاً لمن يقصد القرية المرتفعة المضيئة، ويا سعد من تضع يديها على جبهته المحترقة!

انتهى الطواف. أمرّ بهيكل ضخم شيّد ابتهالاً لإله يخاطب أفئدة غيري. أقف برهة على الشرفة الواسعة أنظر إلى المدينة السوداء، تتمادى إلى الأفق البعيد، يغلّفها معطف من ضباب وبخار. أترك المرقى الكهربائي وانزل الدرج الحجري. من كل جانب تطلّ علي نساء مسنّات جالسات على مقاعد حديدية، يشغلن أصابعهن بالمزارد. أغوص في شوارع ساخنة بأنفاس البشر، شوارع كانت إلى حدّ اليوم تبعدني وتنفيني واليوم لم تعد تنال مني شيئاً. لم أعثر على دواعي الأمل ولم أكن أبحث عنها. استمعت إلى أصوات أخواني وأمثالي، أصوات من نجحوا وسكنوا.. لكن أنا، أنا لن أسكن..»

— 60 —

ـ لو قال لا غالب إلا الله لما حاد عنه معناه.

ـ لو زار قصر الحمراء. لكنه لم يزر، ولا نوى أبداً أن يزور، قصر الحمراء. منطق الحج واحد، لا يحجّ إلا إلى مبانٍ وميادين متعالية عن الأرض..

ـ المنطق ربما واحد ولكن النتائج مختلفة.

ـ بكل صراحة لا أدري هل تختلف النتائج فعلاً. لا أملك أي دليل على ذلك. قد تكون على حق، قد يتغيّر الذوق كلّما تحوّلت وجهة الحج. لكن كيف اقتنع بما تقول. كل ما أعلم هو أن إدريس عندما عاد إلى المغرب أحسّ بالقنوط لأنه لم يجد موضعاً يحجّ إليه.

قضى أياماً مع الفتاة الألمانية التي كانت تسمى فيرا. لما عادت إلى بلادها قال إدريس في نفسه: لا بدّ أن أرى حي مونمارت الذي طالما شاهدته في الأفلام والذي لم أتكلّف مشقّة الصعود إليه بعد أن مكثت ثلاث سنين في باريس. **هانرييت** هي بطلة فلم جولين دوڤيڤيه التي كانت تسكن زقاق **سان فنسان**، والفتاة المرحة ذات الشعر المقصوص أظن أنها **أودري هابيرن**. كان لا يزال يسكن دار المغرب. استيقظ من النوم في ساعة مبكرة ليلحق أولى عربات المترو. نزل في محطة **سان لازار** ثم بدأ يتسلّق العقبة المؤدية إلى مونمارت. عندما أنهى زيارته ركب المترو المتّجه إلى ساحة النصر وهناك التقى بأحد زملائه في ثانوية مراكش. سأله طويلاً عن حالة المغرب في مستهلّ استقلاله ثم ودّعه واخترق الساحة الغاصّة بالجنود والمتفرّجين. تذكّر أن الوزير الأول الهندي كان ضيفاً على الحكومة الفرنسية، الحكومة الاشتراكية التي فاوضت

الوطنيين المغاربة، التي قبلت أن يكون للمغرب جيش وطني ودبلوماسية مستقلّة والتي كانت تحارب الثورة الجزائرية وتنظم الحملة الثلاثية على مصر. استدعت نهرو بهدف تفتيت جبهة الحياد وتطويق الحركة الوحدوية العربية. نجحت نسبياً حيث رفض نهرو فيما بعد الاعتراف بالحكومة الجزائرية الموقّتة قائلاً انه لا يستطيع أن يتعامى عن حقوق مليون مواطن فرنسي.

قرأ ادريس أثناء صيف 1956 في الصحف، سمع في الأخبار، أحكاماً لا تصدّق على عبد الناصر ومصر والعرب والإسلام. وكان في نفس الوقت يشعر أن الحكومة المغربية الجديدة لا تستطيع أن تطلق العنان لمشاعر الشعب المغربي وإلا خاطرت باستقلال وأمن ووحدة البلاد. أظنّ أن هذا الوضع المضطرب عمل أيضاً على تأخير عودة إدريس إلى المغرب. كان لتألّمه من الوحدة والانفراد دوافع موضوعية، مستقلّة عن ميوله الذاتية، لم يتعرّض لها البتّة، على الأقل فيما ترك من أوراق. على كلّ حال أخّر تاريخ العودة إلى نهاية الصيف وعندما عاد إلى المغرب لم يمكث طويلاً في قلب البلاد بل انحاز إلى الأطراف الجنوبية وانغمس في ذكرى الماضي، القريب والبعيد. تألّم، قنط، اختنق لأنه شعر أن الشوارع شوارع والساحات ساحات ليس إلا، وإن كانت مبلّطة مزفّتة مظلّلة، وأن البيوت مساكن والعمارات ملاجىء ليس إلا..

ـ طبعاً إذا كنت تعني الرباط والبيضاء وأكادير..

ـ أعني أيضاً الأماكن العتيقة التي تومىء إليها، فيما يخص إدريس طبعاً. لا أجحد أن غيره حجّ ويحجّ إليها، نظم وينظم فيها الأشعار حرّر ويحرّر فيها الرحلات. ربما رأى فيها غيره ساحات معلّقة بين الأرض والسماء مضيئة بالآمال والأحلام. قد تكون إذن على حقّ عندما تقول ان إدريس كان يكون غير إدريس لو زار الحمراء وقال لا غالب إلا الله. ولكن كل ما أعرف هو أن هؤلاء الحجّاج قد احتفظوا لأنفسهم، وضنّوا عنا، بذلك الشعور الذي أعنيه، الشعور الذي يزعزع أركان الروح وينسي موقّتاً آفة الموت، لأني أنا القارىء لا أجد شيئاً منه في أشعارهم ورحلاتهم. لم أحسّ أنهم شاركوا في تكوين وعي أو فن أو ذوق ومن هنا الكآبة والحزن والفراغ والقنوط. لا مجال إذن للمقارنة بين ما هو موجود، تدلّ على وجوده ثماره، وبين ما هو غائب، يدلّ على غيابه عقمه وفراغه. أرفض إن شئت هذا الاستنتاج، وتشبّث بالممكن، لكن لا تنسَ أننا هنا نهدف إلى فهم إدريس، وذوق إدريس تكوّن بالتأكيد في عاصمة فرنسا.

ـ أشكّ أن يكون لا يشعر، لا يهتزّ، لا يفرح، لا يتأثر إلا في إطار أمثولة واحدة.

ـ أقول ما أقول ولك أن ترتاب.

ـ يبقى السؤال: لم هو، وبهذه الصورة؟

ـ هذا ما نبحث فيه منذ أن شرعنا نقلّب هذه الأوراق.

***

عاش إدريس منذ صباه في جوّ سينمائي. وعى مبكّراً التناقض بين الحياة والخيال ثم أدرك بارتياده القاعات المظلمة أن ذلك التناقض هو موضوع الأشرطة التي يشاهدها. فلم يعد يدري على أي تناقض يدور كلامه، عن تجربته المباشرة أم عن صورتها المنعكسة على الشاشة؟ هذه تكيّف تلك، وتلك تضيء هذه، دون أن يتوقّف أبداً التأثير المتبادل بينهما.

وعندما وصل إلى باريس زاد وضعه الوجداني عمقاً واتساعاً.

باريس عاصمة السينما. لم يعرفها بالطبع أثناء الثلاثينات عندما كانت فرنسا تحتلّ الصفّ الأول في انتاج الفلم الفنّي ولكنه عرفها وهي تتهيّأ لاستقبال ما سمي بانتاج الموجة الجديدة، والمخرجون الذين تألّقت أسماؤهم في سماء المهرجانات كانوا لا يزالون نقّاداً يعبّرون عن تطلّعاتهم وميولهم في مقالات لامعة لاذعة. ذهب إلى متحف السينما زنقة أولم ورأى منشئه (هنري لانجلوا) ببذلته السوداء المهلهلة الدسمة وأظفاره الطويلة الزرقاء وشعره المدهن المتدّلي على كتفيه. حضر حفلات مساء الثلاثاء في استوديو فافين، حيث سمع كلود شابرول يناقش بعنف ساخر. اختلط مع طلبة معهد الدراسات السينمائية المختلفي الأجناس واللغات. قرأ مقالات الدفاتير السينمائية فوجد فيها أفكاراً جديدة وأخرى قديمة، رومنسية أو سيريالية. في دار المغرب ذاتها عاشر طلبة جاءوا بمنحة من الإدارة ليتدرّبوا ويصبحوا تقنيين في المركز السينمائي المغربي.

في هذا الجو ارتقى إدريس من مستوى الاستهلاك إلى مستوى التذوّق. أدرك أن أصالة الفن السينمائي تكمن في كونه ملتقى الفنون الأخرى من أدب وموسيقى ورسم وطراز ومعمار وغناء ومسرح ـ كل فن لا يعرف إلا بالممارسة، لكن التفكير في خصوصية الفن السينمائي يكشف عن خصوصيات الفنون الأخرى. قد لا

ينفع النقد المخرج المبدع ولكنه يفتح للكاتب والمفكّر ميادين جديدة للتأمل. في ظلمة قاعات العرض تكوّن ذوق إدريس ونما وعيه بقضايا الشكل والتعبير. لم يتعلم ما يميز أساليب القول من ملحمة ومأساة وغناء ودراما ورواية، الخ.. في مجالس الفلاسفة بل من خلال اجتهادات كبار نقّاد الفن السينمائي مثل جورج سادول وأندريه بازن وهنري آجل ورثة ريني كلير وايلي فور/100.

في الوقت الذي كان إدريس يمرّ بتجارب عاطفية مختلفة تتعلق بالوطنية، بالثورة الاجتماعية، بالحب، بالعزلة، كان يفكّر، رغماً عنه أحياناً، في الشكل الملائم لكل تجربة، بل في الشكل الذي يوحّد في مجال الوعي عواطف متعددة. عبر السيناريو تحقق لديه مفهوم السيرورة، عبر التقطيع مفهوم الإيقاع، عبر الحوار مفهوم اللغة الوصفية، عبر الديكور مفهوم الهيكل، الخ. كان يعلم أن آلته هي الكلمة وأنها محدودة التعبير إذا قورنت بالصورة الشمسية، لكن نتيجة هذه التساؤلات فهم أن اللفظ قد يتحوّل إلى لبنة، إلى نغمة، إلى لوينة. وهكذا تهيّأ لاستيعاب درس بروست ولو بكيفية مجملة جزئية. فهم مغزى تلك السنوات العديدة التي قضاها بروست عاجزاً عن الكتابة، ظاناً أنه يبحث عن موضوع في حين أنه كان يبحث عن شكل ملائم، شكل شامل يجمع فيه، يتجاوز به أسلوب برجوت، بريق الستير، نغمة ڤانتوي/101، عظمة كنائس الماضي شكل يشبه في آخر تحليل، الفن السينمائي شمولية واكتمالاً. كان في إمكان بروست أن يكون مخرجاً سينمائياً مبدعاً، إلا أنه عندما أنجز بالكلمة ما كان يحلم به فصل من جديد عالم الأدب عن عالم الفنّ وأعجز جميع كبار المخرجين الذين حاولوا عبثاً تحويل مطوّلته إلى فلم مقنع. يبقى أن درس بروست هو الدرس نفسه الذي يستخرجه الناقد الأدبي إذا ما اهتمّ بتتبّع حركة الانتاج السينمائي. لذلك عندما بدأت تصدر في الصحف والمجلات مقالات ألان روب ـ غرييه/102 معلنة نهاية عهد الرواية البالزاكية والواقعية التاريخية بسبب ثورة المجتمع وتغيّر الأذواق، لم يجد فيها إدريس شيئاً جديداً غير ما كان يبدو واضحاً لكل ذي ثقافة سينمائية، من أن المفاهيم التقليدية مثل المضمون والأسلوب، الحبكة والحوار، الخ، أصبحت تتطلّب، على أقل تقدير، تعريفات جديدة. ومن لم يفهم هذه النقطة حكم على فنّ الرواية بالاندثار كما اندثر من قبل فن الملحمة والمأساة. إن المرء يستطيع دائماً أن يستمرّ في تأليف روايات على نمط بالزاك، كما يستطيع أن يكتب، بمساعدة القواميس، ملحمة بالأكادية، لكن لأي قارىء وبأي هدف سوى المحافظة على كنز لغوي موروث؟

شاهد إدريس أفلاماً كثيرة، قصيرة وطـويلة، قديمـة وحديثـة، رفيعة ومتوسطة، وسجّل على بعضها ملاحظات نقدية تبدو لأول وهلة نابعة عن همّ سياسي مع أنها في الحقيقة متولّدة عن تطلّع إلى تعبير شامل عمّا في الوعي من هموم عمومية وخصوصية، عن تطلّع إلى الحياة الحقة الواعية بذاتها. أدرك إدريس بمشقّة كبرى، بعد استيعاب مؤقّت وجزئي لدرس بروست كما أفرزته له معاملته مع الانتاج السينمائي، أدرك أن الحياة الحقّة توجد في هذه الدنيا، انها الحياة العادية إذ تنعكس وتتلوّن بلون الذكرى.

— 61 —

«الخشب والحديد»

يعود الرجل إلى مسقط رأسه جنوب فرنسا على الشاطىء المتوسطي. بعد أيام تلتحق به زوجته وتخبره فور وصولها أنها تنوي مفارقته. يقضيان أياماً يتجوّلان عبر القرية بحثاً عن أسباب الأزمة الطارئة على زواجهما، وفي نفس الوقت يتعرّفان على حياة السكّان، على مشكلات الصيادين ونزاعهم المستمر مع إدارة الصحّة، يطّلعان على غراميات الشباب ويشاركان في حفلات الموسم السياحي. ثم تنتهي العطلة ويتهيّأ الزوجان للرجوع إلى باريس. هل يتصالحان؟ هل ينفع في حقّهما طرياق النبش عن الجذور؟

هذا مضمّن فلم أنييس فاردا/103 المسمّى **بوانت كورت** (الرأس القصير) باسم القرية القريبة من مدينة سيت. حكاية بسيطة ومشكلات فنية عويصة.

يحتوي الشريط على فلمين: الأول يصف واقع السكان على طريقة المدرسة الإيطالية وبخاصة عمل فيسكونتي/104 عن صيادي صقيلية. والثاني نفساني يشرح انهيار حبّ كما فعل روسلّلييني /105 **في جولة عبر ايطاليا**. إلى أي حدّ اندمج الفلمان؟ تقول المخرجة ان القرية تؤثّر في الزوجين كالرواية الأدبية في القارىء. يعود الزوج إلى أصله وتكتشف الزوجة حقيقة ذاتها. حياة القرية هي سبب تطور نفسانية البطلين.

بدأت المخرجة حياتها الفنية كمصورة ملحقة بفـرقة جـان فيلار /106 المسرحية ولا زالت مغرمة بفن التصوير. تؤطّر مناظرها بتذوق فائق: قط ميت على الشاطىء، سرطان ينغمس في الوحل، سلّورات تسقط في سطل، شوكة ثلاثية فوق الرمل، أكليل من قصب، سلّة بلا قعر تخترقها الكاميرا. . صور ناصعة صقيلة تذكرنا

بأجمل ما شاهدناه في الأفلام المكسيكية. ولكن: ماذا تعني؟ ما دورها في هيكل الفلم؟ أهذه زخرفة مجانية؟

يتكلم أهل القرية بلهجة جنوبية ملحوظة ويتحاور البطلان بتأنق ظاهر. يقول الزوج: ما بك؟ تجيب الزوجة: إني خائفة علينا الاثنين. يقول: سنحطاط، سنمشي بحذر. تردّ: لن نحطاط ما فيه الكفاية. تقول: علاقتنا أقوى منا، ضاع العمق من حبنا، الرعشة، الاضطراب، التلمس، نضج حبّنا وتعقّل فعاد ثابتاً لا يخدشه شيء، كحبّ الأمهات. يردّ: حبّنا! حبّنا! تحفظينه في زجاجة، تناشدينه، تلاطفينه، أتحبّينني أنا أم هو؟ يقول: أغاضبة باستمرار لأننا شخنا سوياً؟

توافق المخرجة على أن الحوار متأنق لكن تقول ان الزوجين لا يستطيعان التفاهم إلا من خلال هذا النوع من الكلام. تعمّدت التكلّف إلى حدّ أن الصوت لا يخفت عندما يبتعد البطلان عن الكاميرا.

ليست فاردا وحدها في هذا الاتجاه. رأينا مؤخراً مخرجين أمثال آستروك، ومانكييفيتش، وأنطونيوني/ 107، يلجأون إلى حوار أدبي تلقّاه المشاهدون بالسخرية ورماه النقاد بالمبالغة في التأنق والتصنع، وكون مخرجين متبايني النشأة والانتماء يثورون ضد الحوار العادي الذي اكتسح السينما منذ ثلاثين سنة يشير إلى مشكل حقيقي. يشعر الكثيرون بأن الصوت قضى على جمال الصورة بفوز السينما الناطقة على الصامتة. أصبح الفيلم رواية محكية للأذن لا للذهن فتعثرت كل المحاولات للبحث عن أشكال تعبيرية جديدة. كيف استدراك ما ضاع من السينما الصامتة؟ كيف تجاوز البداهة الملتصقة بالحوار العادي التي تجعل مشاهد اليوم يفهم القصة وان كان ساهياً غافياً. لجأ آستروك إلى حلّ جذري وأبدل الحوار بتعليق يقرأ من خلف ولكن في نطاق الفيلم القصير والمتوسط. أما في نطاق الفيلم المطوّل فقد مزج أورسن ولز وجوزيف مانكييفيتش الحوار العادي والتعليق المكتوب بأسلوب فني منتقي. تسير فاردا في نفس الاتجاه ولكن بوضوح وصراحة لم يعد الحوار الوسيلة الوحيدة للتعبير عن التطورات النفسانية فكبر بذلك دور الصورة الصامتة. الحوار العادي يقتل الصورة الفنية والصورة الفنية تقتضي حواراً صقيلاً مختاراً.

إلا أن الحلّ المقترح، عند فاردا وغيرها، لا يحسم القضية.
يتطلب نوعاً خاصاً من الأداء، لا هو الأداء المسرحي ولا الأداء السينمائي

العادي المبني على براعـة التمثل في فترات الصمت. أدرك براندو قمّة فنه عندما مثّل دور أبهم أبكم/ 108 وأبكتنا ماسينا في لاسترادا عندما تغيرت قسمات وجهها باسترجاعها الروح والوعي. ابدال كلام الشارع بكلام فصيح مختار يحوّل الانتباه من الوجه الحي إلى الأشياء الجامدة.

ينتج عن تواجد الحوار الفنّي والصورة الجميلة تجاذباً لا يتحمّله المشاهد إلا بعناء كبير. في الفيلم العادي تصل الكلمة والصورة إلى درجة الصفر بمعنى أنهما تعودان بلا تأثير، إيجابياً كان أو سلبياً، في المشاهد ـ السامع. أما إذا طلب من هذا الأخير أن يرهف السمع ليدرك تضمينات الحوار أو التعليق وأن يفتح العين ليلتقط رموز المشاهد، فيلزمه أن يكون دائم الانتباه أو أن يرى الفيلم مراراً كما يقرأ الرواية الفنية مراراً ويفحص اللوحة مراراً أو يسمع إلى المعزوفة مراراً. تتحول السينما من فن جماهيري إلى جزء من ثقافة النخبة.

تقودنا هذه الملاحظات إلى الخوض في مسألة عويصة: رمزية الأشياء.

يعبّر عادة عن التطور النفساني بواسطة الكلام وبقسمات الوجه في إطار حركي هو مؤدّى كلمة سينما. الكلام يشرح أسباب الأزمة والوجه يكشف عن حلولها. إذا رفضت هذه القاعدة الاصطلاحية وعاد الحوار هدفاً في ذاته، عبارة معقدة عن واقع يتجاوز مضمون الفيلم، لم يبق إلا اللجوء إلى تقنيات السينما الصامتة اي إلى إبدال لغة الأحياء بإشارات الأشياء. وتحويل الجوامد إلى رموز. في فيلم **الملكة كريستينة** / 901 تقضي **كاربو** ليلة غرام مع حبيبها سفير أسبانيا وعند الصباح لا تنبس بكلمة، لا تضحك، لا تبتسم، لا ترقص، بل تحتفظ بوقارها الملوكي وتلمس ببطء شديد كلا من محتويات غرفة الحب: الفراش، الوسادة المدخنة، الجدران. . تحوّل أمامنا الشيء إلى ذكرى. تلجأ فاردا إلى نفس التيكنيك، مرّة بكيفية فجّة ومرّة بمنتهى الذكاء. في مستهلّ الفيلم يصل راكبان على درّاجتين إلى ميدان ويفترقان فيقول الزوج: [إذا سئم أحدنا استعاد حريته. عندما يحتدّ النقاش بين الزوجين يصوّران متعامدين وعندما يتفاهمان يصوّران متوازيين. يقطع الزوجان حقلاً تخترقه سكّة حديدية، يسمع صرير القطار وتقول الزوجة: جئت لأقول لك أننا سنفترق. الزوجة الملحاحة المتطرفة في مطالبها تلتقط دائماً في إطار من حديد والزوج الوادع المتسامح في إطار من خشب. يقول الزوج: لن أرغمك على البقاء معي ويقبض على مدراة ثلاثية. عندما يصلان إلى نقطة الانفجار نرى طفلاً يصفع وعندما يشرفان على

شبه وفاق تنحاز الزوجة إلى فلوكة راسية فوق الماء. هل لكل شيء في كل مشهد مغزى؟ ما معنى القط الميت والقط المتثائب والسرطان وحنش الماء. .؟ الواقع أن رمزية الأشياء محدودة اعتباطية، تحتاج إلى إشارة إضافية تنبّه عليها. لو لم يتكلم الزوجان عن الفراق أو الوفاق لما اكتست المدراة أو الفلوكة مغزى محدداً. يتمّ الرمز بمزاوجة الشيء والكلمة ومع ذلك يحتفظ دائماً بقدر من الغموض. لا محاولة جدّية لتجديد التعبير السينمائي بدون غموض ولكن هل من الضروري أن يتعمّد الغموض لذاته. السينما فنّ تصويري، لا مندوحة له من أن يستغّل المحيط الطبيعي كمادّة درامية. تعطي الأعمال البشرية معنى للديكور والديكور يعطي معنى لحركات البشر. جميع المخرجين الكبار استعملوا قليلاً أو كثيراً لوحات طبيعية كوسيلة للتصعيد الدرامي. خطأ فاردا أنها أفرطت حيث يجب الاقتصاد. لو لم تعلن عن الدلالة الرمزية لكل مشاهد فلمها لما رماها النقاد بالتكلّف والشكلية الفارغة. وهذه النزعة التبريرية هي الدليل الوحيد على أن الفلم عمل أول لمثقفة موهوبة تحب السينما لكنها لا زالت تفكر، بسبب عدم احتكاكها بالصناعة السينمائية، بوسائل الأداء الأدبي.

لنأخذ إذن عمل فاردا كإنتاج فكري. لنعتبره كلّه بمثابة رمز. كما لو كان كتاباً مهدىً إلى شخص معيّن (وهذا هو الواقع) تتحّدث فيه المؤلفة عن انفلاتها من قبضة الفلسفات المعاصرة واعتناقها حكمة العالم القديم.

يمثل الزوج العقل الثبات الاعتدال. يرى الأمور دائماً في امتدادها الزمني. انه مواطن فاليري/ 110 الشاعر الكلاسيكي. وتعزز هذا الارتباط الموسيقى التصويرية المستنبطة من ألحان القرون الوسطى ومن الفلكلور المحلّي. إلا أن الزوج قد ابتعد عن عالمه الأصلي. يحمله في لحمه ودمه ولكنه لا يعيه ولا يستطيع أن يؤديه إلى غيره. سيستعيد الحكمة القديمة، صحبة زوجته، بالانغماس في حياة القرية. القرية أيضاً في خطر: يطوّقها العالم الحديث ممثلاً في إدارة الصحة، تفرغ السياحة حفلاتها من معناها الحقيقي. ولكن رغم كل هذا تحافظ في العلاقات اليومية، في كيفية التعامل مع المشكلات الطارئة، الاجتماعية والعائلية، على شيء من الحكمة القديمة. هذه حالة غير التي يصفها فيسكونتي والمتميزة بالعنف والمواجهة. قرية فاردا بعيدة عن المأساة لأن هدوءها يقضي على جراثم النزاع.

أما الزوجة فانها تحمل في ذاتها آثار عالم مختلف. ترفض الشيخوخة، تعادي الرتابة، تريد الحب الكامل الشامل الذي يعمي ويذهل، تعيش بذهنها

وأعصابها في توتّر مستمر، لا تترك لجسدها أي فرصة للاستجمام.

من جهة، عالم الكينونة والاعتدال والقياس، من جهة ثانية عالم السيرورة والإفراط واللّاقياس. من جهة، عالم الزراعة والخشب ومن جهة أخرى عالم فاوست/ 111، عالم الحديد والنار. الفلم كلّه مبني على التجاذب والتباعد بين زوجين، بين فلسفتين في الحياة، بين نمطين من العيش، بين وتيرتين في الكيان. والخلاصة، المقحمة في نظر البعض، هي أن الخشب حدّ الحديد، الهدوء حدّ الهياج، الصمت حدّ الكلام. تفارق الزوجة القطار لتلجأ إلى فلوكة راسية وتقول: جئت لأصرخ وأمامي شغل أهمّ!

قال البعض: هذه دعوة رجعية. الزوجة في نظرهم هي التي تمثّل الإنسانية المتقدّمة والأخلاق الراقية. وإذا كان هناك صراع فإنه بين الوعي وجمود الحسّ. انصياع الزوجة للزوج، تأثرها بجو القرية، انبهارها بالأشياء، كل ذلك يدلّ على انزلاقها نحو الفناء. إلا أن من يقول هذا يعبّر عن فلسفة شخصية، من واجبه إذن أن يستمع إلى فلسفة شخصية مخالفة. ما دمنا في مجال الاختيارات الذاتية فلكلّ الحق في إبداء رأيه، علينا أن نحكم على مدى صدق الفنان ووفائه لنفسه. وفي هذا الصدد لا شكّ أن فاردا صادقة في دعواها إذ أقدمت على معارضة الأفكار السائدة في محيطها الضيق.

نشاهد الفلم للمرّة الأولى فنندهش، نراه مرّة ثانية فنفهم مغزاه وإذا أتيحت لنا الفرصة لنشاهده مرّة ثالثة فاننا نلتذّ به كقطعة شعرية. فلم طلائعي؟ لا. فلم في مستوى اللحظة التاريخية التي نعيشها، يمتاز بالجدّ وعدم التملّق، للمنتج أو للمشاهد.

(باريس 18. 01. 1958).

— 62 —

«الحب والإبهام

اشتغل فيسكونتي قبل الحرب مساعداً لجان رينوار/ 112 وورث عنه الاستقلال والابتعاد عن المواقف السياسية الجامدة. يحتل اليوم مكانة متميزة على خارطة الانتاج السينمائي الإيطالي. أنصار اليمين لا يعارضونه بشدّة واليساريون لا يدافعون عنه بحماس. كلما صدر له فلم استعر الجدل حوله. رغم أن الجميع يعتبرونه أحد أعمدة المدرسة الواقعية فان بعض اجتهاداته هي التي هيّأت الجو

لإخراج عمل مثل فيللّيني لاسترادا. يفهم الواقعية كـأسلوب مناقض للطبيعية والشعبوية البكائية. لا يريد أن يصور الفقر الكئيب لاستعطاف المشاهدين. يصوّر الفقر ويجعل منه مادّة فنية فيضطر الناقد إلى التساؤل: ألا يمكن أن تكون الواقعية وجهاً من وجوه الشكلانية؟

تدور أحداث فلم سنسو/ 113 حول فترة كفاح الشعب الايطالي من أجل الحرية والوحدة. فلم تاريخي إذن، غير منتظر من مخرج معروف بميوله السياسية اليسارية، لكن فيسكونتي يتعامل مع الثورة الوطنية كإحدى مراحل الثورة الاجتماعية ويحرص على ربط الماضي بالحاضر. موضوع الفلم هو موقف الأرستقراطية من حركة التحرير. هل يجب تقديم الرابطة القومية على الولاء الطبقي أم لا؟ إزاء هذا المشكل تتميز ثلاث فئات: الأولى تبقى وفية للماضي وتموت معه، الثانية تقبل أن تراهن على المستقبل مخاطرة بمصالحها ومناصبها، الثالثة وهي الأكبر عدداً تراوغ وتلعب على الحبلين. وهذه الفئة هي التي يحدثنا عنها الفلم.

ليتيزيا سيّدة نبيلة تسير أولاً في ركاب الثورة ثم تتخاذل وتخون فتفقد عرضها وعزّتها وكرامتها عندما تعشق ضابطاً في الجيش النمساوي. الحبكة إذن في غاية البساطة والوضوح إلا أن هناك عامل إبهام وهو الأداء. كل شيء فيه موسوم بالتطرف. لقد تعوّد مشاهد الأوبرا والمسرح الميلودرامي على المبالغة والإفراط في التمثيل لما يفصله من بعد مادّي ومعنوي عن الخشبة التي يتحرّك فوقها الممثّلون لكن السينما الناطقة نفت هذا البعد فعاد الممثل يخاطب المشاهد عن قرب فلم يعد هذا يستسيغ إلا التحفظ والاقتضاب في التمثيل. لماذا إذن حاول فيسكونتي أن يجعل من فلمه أوبرا مصوّرة؟ يقول بعض النقّاد انه كشف بذلك عن ذوقه الطبيعي لأنه في الأساس مخرج مسرحي. لكن هذا لا يمنعنا من الافتراض أن له من الوعي الفني ما يكفيه لمعرفة حدود خصوصيات الفن السينمائي. نقول إذن اننا أمام اختيار، أمام فكرة يريد المخرج أن يوصلها إلينا عبر شكل معيّن من أشكال الأداء. هل يريد أن يعبر عن سخط متفجّر لكون الفرد اليوم لا يثور ضد طبقته بسبب انتشار الأخلاق البورجوازية فيزيد من جمود المجتمع وتتعثّر كل مشاريع الإصلاح الثوري؟ هل يريد أن يقول لنا: وجدت الأرستقراطية نفسها في بداية الثورة التحريرية في الموقف الذي تجد نفسها فيه البرجوازية إزاء الثورة الاجتماعية، إلا أن الأولى لعبت دورها، إيجابياً أو سلبياً، بحرارة واندفاع لا تعرفهما الثانية المتعودة على برودة وهدوء منطق المقايضة؟ نعلم أن

فيسكونتي، الأرستقراطي الأصل، يساند الحزب الشيوعي الأيطالي. يعني هذا الاختيار أنه لا يحبّذ أي نوع من التصالح بين الطبقتين، بل يثور ضد ما يحصل عادة أي اصطناع النبلاء من طرف الوسطاء. أيكون هذا هو سبب تفضيله الصراخ على الهمس وهو يعالج أهم قضية في تاريخ ايطاليا الحديثة؟ ويزيد هذا التأويل قوة الكيفية التي قدّم بها لنا شخصية فرانز الضابط النمساوي. نراه ضعيف الإرادة قصير الهمة فنميل إلى شجبه ثم نتذكّر أن المخرج يسائلنا صراحة: بأي حق تحاكمونه؟ كيف تريدون أن يكون قوي الإرادة، ملتزماً بخطة الشرف والوفاء وهو مقتنع أنه يخدم نظاماً جائراً سائراً لا محالة إلى الاضمحلال؟ كيف لا تغلبه شهواته، كيف يقوم بواجبه نحو سلطة لا يحترمها ولا يثق بوفائها له أو لغيره؟ كيف الكلام على الضياع والانزلاق والسقوط في حق امرىء مات منذ عقود ووعى أسباب موته المعنوي؟

وهنا نواجه النقطة الصعبة. ما القول في ليتيزيا؟ ماذا عشقت في فرانز الضابط الأرستقراطي المتشائم المنخور؟ وما معنى ردّتها بعد أن رفضت الإنصات لمن هو أولى بالمحبّة والولاء من فرانز؟ هل عشقت في خادم أعداء بلادها الضعف الأرستقراطي الذي تحسّ به في نفسها؟ هل التربية الارستقراطية تقود حتماً إلى التخاذل والخيانة؟ هل الضعف الأخلاقي وسم التاريخ على طبقة نشأت كقوة ضاربة لحماية الطبقات العاملة المنتجة؟ وهل الغرام هو العبارة البشرية، وأحرى النسوية، عن الضعف لكي لا يظهر في صورة الجبن المقيت؟ هل الحب ستار للإنهيار الخلقي، وإذا كان فلا يعاش إلا في حالة اضطرام واستعـار ويكون إذن الإفراط الميلودرامي هو بالضبط ما يجانس الشكل والمضمون. إذا كانت ليتيزيا تصرخ وتولول وتخون وتنتقم فلأنها تحبّ وتمقت تهوى وتزدري، نفسها وعشيقها، طبقتها والتاريخ الذي حكم عليها وعلى طبقتها وعشيقها بالفشل والانحلال.

إلا أن استغلال الحب كعامل درامي سلبي يؤدّي حتماً إلى الإبهام. انتهى رينوار إلى نفس المأزق في فلمه الشهير **قاعدة اللعب** ولو كان في نطاق الكوميديا الاجتماعية. يرفض فيسكونتي الاستعطاف فيفرض على المشاهد عدم مسايرة ميوله الطبيعية وذلك عن طريق التضخيم الميلودرامي. واضح انه استفاد من تقنيات برتولد بريخت /114 المسرحية في عدم ترك النص يؤثر مباشرة على المشاهد. ولكن هل كان يمكن أن ينجح في توظيف العاطفة الغرامية لهذا الغرض. المعروف أن المشاهد العادي يغفر كل شيء باسم الهوى والغرام وإذا تمكّنت منه العاطفة حكم لتوّه باخفاق

الفلم بسبب تلك الوسائل نفسها التي لجأ إليها المخرج لمحو جاذبية الفن. مهما يكن فهمنا للحب، أجعلنا منه إرثاً فيودالياً احتفظت به مجتمعات غير متجانسة معه أم فهمناه كميل طبيعي يعبّر به الإنسان عن استلابه وتفويت حريته، فانه على أي حال أعظم من أن يستغلّ كأداة جامدة. انه يغالب العناصر الأخرى ويغلبها عادة في ذهن المشاهد فيعكس معنى العمل الفني.

لهذا السبب لا يمكن أن نجاري أندريه بازن عندما يقول ان سيناريو الفلم ماركسي. قد يكون كذلك في الأصل ولكن ما نشاهده في الفلم لا يندرج تحت ما يعرف عادة بالتحليلات الماركسية. لم يكن أحد ينتظر من فيسكونتي أن يتعامل مع الأرستقراطية، طبقته الأصلية، بطريقة بروست البورجوازي المتطفّل المنبهر ببريقها الزائل. لا ندم ولا حنين، لا تلوين ولا تجميل في عمل المخرج الإيطالي. لكن من جانب آخر لم يلزمه أحد بأن ينفصل عن أصله بهذا العنف وأن يحاكم أقرباءه بهذه الحدّة. هل وراء الشطط سرّ، ضغط ذاتي أكثر من موضوعي؟

لا شكّ أن استغلال العلاقة الغرامية بشكل ميلودرامي ـ وربما فرويدي عند التدقيق ـ هو الذي أفقد الفلم توازنه. هل كان يمكن الاستغناء عن الحب بالمرة؟ لم يقدم على هذا الحل الجذري أي من كبار المخرجين لكن كان في استطاعة فيسكونتي أن يحافظ على قدر من التجانس لو وضع عواطف الحب والشرف والمروءة في منظور تاريخي لكي لا يترك الانطباع أنه يعتبرها مقاييس دائمة يمكن الحكم بها على شخصيات الفلم. ولو انساق مع هذا المنطق لخفّف بدون شك من حدّة النقد، لنزل بعض الدرجات في سلّم الأداء، ولكنه في نفس الوقت لاضطرّ إلى الابتعاد عن مشكلات الوقت. وهذا بالضبط ما لم يرد أو يستطع أن يقبله. دفعه الخوف من سوء التأويل إلى انهاء الشريط بمناظر عن الأوضاع الحالية أقل ما يقال عنها انها نافلة.

قد يكون لإبهام الفلم أسباب لا علاقة لها بمنطق الحكي والإخراج. نبقى نحن في نطاق الفن ونقول ان عمل فيسكونتي مهمّ لأنه يطرح من جديد على بساط البحث مسلّمات المدرسة الواقعية. يظن الكثيرون أن الأسلوب الواقعي وحده ثوري، وأعني به تصوير البؤس والكآبة، ان ثنائية الشكل والمضمون قد توحدت في الانتاج الواقعي الملتزم، ان الاهتمام بالشكل هوس بورجوازي ينمّ عن ضحالة المضمون الخ. هذه معتقدات يفنّدها عملياً فلم فيسكونتي الذي يبدو فيه واضحاً التنافر بين الشكل والمضمون. يذكرنا بالهدف البعيد وهو أن الثورة لا تتمّ إلا إذا مست الشكل

والمضمون وأن هذا الانجاز لا يتحقق بالضرورة في وقت واحد إذ من يضمن أن المضمون يستتبع حتماً الشكل الملائم له. لا يقفل فيسكونتي أي باب، لم يوفق للحلّ الأمثل فيدعو الجميع إلى الإبـداع الجاهلون وحدهم يقولون: بالثورة ينتهي الفن: مقولة هيغيلية اجتثوها من أصولها وحادوا بها عن معناها. الحجّة عليهم هو ما وعد به المخرج الإيطالي ولم ينجزه.

— 63 —

الجذور

كل قومية مناضلة تبحث عن تراث يميزها عن باقي الأمم والمكسيك يحسّ بهذا أكثر من غيره لأنه يوجد في موقع جغرافي بئيس. يجاور دولة كبيرة قوية، لا يجمعه بها دين أو لغة أو ثقافة أو عرق، مارست معه دائماً سياسة العنف والابتزاز. مثل باقي سكّان أمريكا الجنوبية اعتزّ المكسيكيون مدة طويلة بتاريخ وقيم أسبانيا. ثم اتّضح عقم هذا الانتساب عندما تغيّر تكوين الطبقات الحاكمة وبدأ الانتباه يتركز على سكّان الأرض الأصليين أي الهنود ورثة إمبراطورية الأنكا. منذ عقود وعلماء الأثر يكشفون عن ذخائر تدّل على أن الحضارات الهندية القديمة وصلت إلى أعلى درجات القوة والرفاهية والتنظيم. كيف يمكن لأبناء المكسيك المعاصر أن يتمادوا في إهمالهم لهذا الجانب من ماضي وطنهم؟ ان التيار الداعي إلى إحياء الماضي البعيد قد لوحظ من قبل في الهند ومصر وسوريا، وها نحن نرى أثره في المكسيك ولا نشك أنه سيغمر سائر الأمم التي عرفت أمواجاً متلاحقة من الغزاة.

الفلم الذي يقدّمه لنا المخرج المكسيكي الشاب، بنيتو الأزرقي/ 115، والمكوّن من أربعة فليمات ـ البقر، الأبنول، الأعور، الفلوة ـ يشارك في التيار المذكور بإيجابياته وسلبياته. لا نشك لحظة واحدة في حسن نية المخرج، في تعلّقه بالقيم الانسانية العليا، في حبّه الصادق لضحايا المجتمع والتاريخ، في عزمه على أن يردّ الاعتبار إليهم وأن يكفّر بوسيلة فنّه عن الجرائم التي ارتكبت في حقهم. واضح أنه يعتقد أن حرمان هؤلاء وتجريدهم من خصائصهم الثقافية إفقار وانتقاص للإنسانية جمعاء. إلا أن لهذا الموقف جانباً سلبياً لا يمكن السكوت عنه: يخالط فيه الندم احتقار النفس ويشوب التطلع إلى المستقبل ميل إلى الانتقام. ان حبّ البعض قد يدفع إلى بغض البعض الآخر. وهذا ما نلاحظه في الفـلم الرابع حيث نرى الهندي يمثّل النبل والكرم في حين أن الأسباني الذي يتعامل معه يمثّل الضعف والترهّل. صحيح أن

الرجل مهاجر قريب العهد بالمكسيك فهو إذن ابن أوروبا المنحطّة النهمة المتهافتة على خيرات العالم الجديد، فلا يمثّل ]أياًمن المكسيكيين المعاصرين الذين يكوّنون مزيجاً من الأقلية الأوروبية الوافدة والأغلبية الهندية الأصلية ولكن ألا توجد جماعة من السكان تفخر بجذورها الأسبانية الأوروبية اللاتينية المسيحية؟ هل يستلزم بناء أمة جديدة التمييز والتجزئة، تمجيد قسم وتحقير قسم؟ نُعنى هنا بالجانب الفكري والروحي دون الجانب الاجتماعي والسياسي. لتحقيق العدالة لا مناص من أخذ بعض الخيرات من طبقة معينة. هذا قانون لا يمكن الانفلات منه في ميدان الاقتصاد، هل ينطبق على العقيدة والتاريخ؟ قد يقبل المرء أن يمس ملكه ويرفض رفضاً قاطعاً أن يخدش عرضه. والحروب الأهلية ألا تقوم عادة وتستمر لأسباب عقائدية أكثر منها اقتصادية؟ أي فائدة إذن لأمة فتية في فتح باب لا يعرف أحد ما وراءه؟

هذه هفوة يستطيع الأزرقي أن يتجاوزها بما يبدي من حماس ومواهب فنية. فلا نطيل الكلام في شأنها خاصة ونحن نجهل المحيط الثقافي الذي يعيش فيه. لا نعرف كيف يصوّر الهندي في الأفلام المكسيكية العادية وان كنا نعرف الصورة الكاريكاتورية التي تقدّمه بها الأفلام التجارية الأمريكية. لعل هذا التشويه المتعمّد هو الذي دفع الأزرقي إلى تمجيد أبطاله الهنود.

هؤلاء هم جذور الأمة: هم السكان الأصليون وهم الفئة الفقيرة المهملة. يتشبثون بأرضهم ويستغلّونها بوسائل عتيقة. ينزح بعضهم إلى المناجم وآبار البترول والمصانع ليشتغلوا فيها بأجور زهيدة. في التربـة التي يسقيها عرقهم تنبت أزهاراً زاهية ينحني أمام جمالها وأناقتها تجّار عواصم أوروبا. يخاطب الأزرقي هؤلاء ومن يفكّر مثلهم خارج وربما داخل وطنه قائلاً: ليس المكسيك ما ترون. والفليم الأول (الأبقار) أنشودة محبة واكبار للشعب ـ الطبقة،الذي أنجب أبطالاً من طراز أميليانو زباطة وبانشو بيلا/ 116. نشاهد هذا القسم معجبين ونقول: هذه مسودّة الفلم العظيم الذي حلم به أيزنشتاين ولم يستطع إنجازه، الذي تجرّأ عليه إيليا كازن وشوهه بما أقحم فيه من همومه الشخصية/ 117.

كتب المكسيك صفحات ذهبية في سجل تاريخ الإنسانية الثوري، خاصة أثناء ثورة 1936. تلك الثورة التي أيقظت إلى العمل السياسي الواعي ملايين الأفراد في المدن والقرى، التي ألهبت خيال أحرار أوربا وأمريكا الشمالية واكتست بذلك

صبغة عالمية. فتكلم الناس عن المكسيك كما تكلموا من قبل عن روسيا وعن فرنسا. تكلموا عن الثورة النموذج. ومع ذلك، رغم هذه الظروف المواتية، لم يتحرّر الفلاح الهندي لا اجتماعياً ولا فكرياً. والسبب، في نظر الأزرقي، هو نفوذ الكنيسة الكاثوليكية التي تمثل استمرار الاستعباد الروحي والاستلاب الثقافي. هذا ما يكشف عنه الفليم الثاني المعنون (بالأعور). نرى زعماء الكنيسة يخاطبون الناس لا حسب ما يعتقده غراهم غرين في كتابه الشهير **القوة والمجد**/ 118، بل الكلام المعهود في كل بقاع الدنيا. يتبع المخرج سبيل لويس بونوال/ 119، وأحياناً يتجاوزه عندما يتعمق في الأسباب والظروف الاجتماعية.

نحن أمام شريط ـ برنامج، يخطط فيه صاحبه لانتاجه المقبل ويعلن عن اتجاه قومي متميز يبدي حبّاً غير محدود للأرض والسكان الأصليين، اعتزاز بالشعب الذي احتفظ رغم الإهمال والاستغلال على سماته الثقافية. نصفق لطموحه ونتمنى أن يجد كل المساعدات لانجاز مشاريعه.

فيلم الأزرقي متجذر في القومية المكسيكية ولهذا السبب بالذات وجد جمهوراً تجاوب معه في كل أنحاء المعمور. إنه درس وأي درس لنا المغاربة إذ نهمّ ببناء مجتمع جديد في وطن محرّر.

— 64 —

«أي بساطة؟

تلتحق امرأة بباريس بحثاً عن شغل. لم تجد شيئاً فتصرف ما لديها من مال وتضطر إلى قضاء ليلتها، مع رضيعتها على مقعد عمومي في ساحة خلاء. هذا هو محتوى فيلم مارسل هانسون الذي يحمل عنوان **قصّة بسيطة**/ 120. ماذا توخّى من سرد تلك القصّة؟ محاكمة المجتمع؟ الاخفاق إذن واضح لأن الوقائع المروية تتابع بدون أدنى رباط. نعلم أن الفرد لا يواجه مباشرة المجتمع، في غالب الأحيان تحميه وسائط، طبيعية واصطناعية. لا نرى لها أثراً في هذا الشريط. إذا قيل: هذا هو المغزى، هذا هو الواقع، الأمر إذن يتعلّق بحالة شاذّة يحاكم بموجبها الدهر لا المجتمع. في الوقت القصير الذي يتمّ فيه العرض يموت في أقاصي الأرض، جوعاً وعطشاً، مئات البشر ولا أحد يندب حظهم التعس، أنهتم خاصة بهذه المرأة لا لسبب موضوعي سوى أن المخرج اختارها هي أو لأنها تجوب أزقّة باريس؟

هل المراد التنبيه إلى التغيّر المخيف الذي طرأ على طبيعة الإنسان، إذ لم يعد يعرف معنى للرأفة والحنان؟ إلا أن القصّة نفسها تعطي الدليل على العكس، إذ تطلع علينا في النهاية امرأة تعطف على البطلة البئيسة وتنقذها ربما من الانتحار. هذه الطارئة تحدث في النهاية، لماذا لا تحدث في بداية أو وسط الفلم؟ نواجه هنا من جديد مشكل الواقعية التسجيلية، الأول والأخير، أعني العفوية.

الظاهر ذو معان متعدّدة. إذا سجّلته بدون ريتوش لا يعتبر به أحد، لأن الناس يرون يومياً نفس الواقع ولا يعيرونه إهتماماً. لكي تؤثر الصورة المنسوخة حيث لا يؤثر الأصل يجب أن يقوم المشاهد نفسه بعملية التكملة التي رفضها الفنان (؟) الواقعي. والاستصحاب هذا هو ما يجعلنا نشعر بنوع من الحرج إزاء أعمال تزعم أنها تزوّدنا بنظرة وفية لواقع الأشياء. نحسّ أن الفنّان يلعب على حبلين، يرفض أمراً يعلم ـ أو لا يعلم ـ ان العمل الفني لا يستقيم بدونه. يتحرّر منه ويضعه على كاهل المشاهد أو القارىء. الفنّان الواقعي وفي لشيء غير الفن، هذه هي آفته. من الواضح أن هانون لم يعتبر بما حصل للواقعية الايطالية التي واجهت مأزقاً لم تتخطّاه إلا بالانحلال إلى اتجاهات مختلفة. كل من فيلّليني وفيسكونتي وأنطونيوني أدرك وجعلنا ندرك أن الواقع خلّاب يموت به الفنّان إذا لم يقاومه وتلك المقاومة هي ما يسمّى عادة بالوعي الفنّي».

(؟ 1958).

— 65 —

ـ أمثلة ثلاثة عن مزالق الواقعية ومثال واحد عن صعوبة الانفلات منها؟

ـ أمثلة ثلاثة من مزالق التطرّف. لاحظت مراراً وتكراراً أنّ من يتطرّف هو نفسه من يتردّد ويتراجع. أعلم أن أعداء التجديد والاجتهاد يستغلّون دائماً هذه الملاحظة ولكن سوء الاستخدام أو الاستخلاص لا يحوّل الحقيقة إلى خطأ. من يتطرّف في اختياراته؟ الشخص الذي يضيق بالواقع ويطالب بتغييره فوراً، الشخص الذي يعيش على فكرة أن الدنيا في خدمته، الأمير ابن الأمير، الشريف ابن الشريف، الغني ابن الغني، الابن الفريد المدلّل، الذي يكسّر الدمية إذا لم تتكلّم، يقضّب البحر إذا لم يهدأ، يغادر الجماعة إذا لم تتّبعه في تقلّباته المفاجئة، يحكم أن التغيير محال إذا لم يحصل في رمشة عين.. تطرّف في الثورة، تطرّف في القومية، تطرّف في العطف.. على أي حال لا أحد يستطيع أن يتمادى في تطرفه إلى ما لا نهاية،

أدرك فيسكونتي أن قوام الفن التوازن ومغالبة استدراج الواقع القائم أو سحر الماضي البائد. تحرّر من هوسه الفرويدي عندما أنجز فلم **الفهد** فأعطى لإيطاليا شريطها الوطني. أما ألازراقي المكسيكي فانه خيّب الآمال التي عقدت عليه. يقول النقّاد انه انساق ووظّف توظيفاً تجارياً كل الأفكار والعواطف النبيلة التي استهوتنا في فلمه الأول. وأخيراً هانون الذي ضاع في بحر النسيان. ظهر في الوقت الذي اكتسحت فيه الشاشة أفلام الموجة الجديدة ولم يكن ينتمي إلى المجموعة فدفعته إلى الهامش.

— 66 —

«عماد الوهم.

كيم آخر نجم يسطع في سماء هوليوود. . شبح المرأة الجميلة الأليمة.

صمّمت لا لتملأ الفراغ أو تعوّض عن الضياع بل لتعكس ما تخشاه وتتحاشاه أمريكا. الصناعة الهوليوودية تتلاعب بحزن العوانس.

كيم قلقة حيرانة قنوتة. . فنانة كاتبة ممثلة، جميلة فقيرة. . رأسمال كبير وفوائد قليلة. . ندم أمريكا الكالفينية.

ـ الضمان! الضمان! من يتكلّم عن الضمان؟ نتكلم نحن عن المغامرة والمخاطرة. . أولم نشيد عليها ثرواتنا؟ لا يمكن أن يربح كل واحد في كلّ مرّة. . ثم صناعة الجمال مبنية على ريع الموقع. نحن نزلاء الغرب البعيد، ليقصدنا من يشاء فنتكلفّ بكل شيء، نجعل من الفتيات آلهات الفتنة والإغراء.

كيم. . كيم البؤس ماذا فعلت بك أمريكا؟

حافظة في علبة ليل؟ تتجمّد بسماتك.

خليلة رجل ثري؟ يضنيك الضجر.

فتاة يافعة في بلدة مهجورة؟ يذبل بهاؤك.

مشكلتك أنك تحتقرين نفسك، لك وعي لا ضمير وكيف يكون لك ضمير في الجبال الصمّ؟

تحيين واعية. . هذا خطأ لا يغتفر. . مرض أوروبي وضعف إنساني.

ـ تحيين واعية؟ تشعرين وتبكين؟ لست إذن شيئاً وضيعاً؟

ـ كيف أكون شيئاً وضيعاً ومن حولي فضاء وصمت مفحم. دمعي زينتي لكن لا أحد يخاطبني.

ـ أواه!. أواه!. لا جديد مع النساء ، اللحن واحد والكلمات مستعارة . .
امرأتي دائماً صامتة مطرقة كالكلب الطريد وإذا ما رفعت في بصرها أفرغت في قلبي أثقال الحزن والندم كما لو كنت أغتصبها. استعبدتها، أتحايل عليها.

يمرّ رجل وحيد بقرية منعزلة ، يقصد حانة مظلمة ، يجد فيها فتاة تنتحب ، يدعوها فتجيب، لا تعرفه وتنتظر منه الدنيا بما فيها . معقول؟ الجواب عند كيم الأحلام .

من يحبّبها إلى نفسها؟ من يجفّف دمعها المنهمر؟ من يطلق البسمة في وجهها الجامد؟ من سوى مبدعها؟ لكنها حيّة . . إذن لتعيش وتتحمّل . . للحزن أسباب ومنافع .

قنطرة بروكلين ساعة الأصيل. .
أسراب عائدة إلى أكنانها. . وجوه مرهقة نحيفة كهباء.
يحوم حولهم طيف كيم، ينتظر إشارة، عطفة ثوبة.
كيم ابتسامة حائمة. . ذكرى أمريكا الدفين.
الكل يعرف ولا أحد يقدم يجرؤ .

هاجروا من شواطىء بعيدة ، قطعوا مسافات شائعة ، حاربوا الأعداء والأصدقاء، نفدت قواهم. تبعث فيهم نظرة كيم الحزينة الخجولة ذكريات مبهمة عن ماض غابر، لا يملكون لها أمراً. .

كما لا نملك لك أمراً. . ستزيدين غربة وضياعاً.
كيم أكبر حلمك أن تنقذي المحروم، أن تحرري المسلوب. .
يا طول النفس! يا بعد الأمل!» .

— 67 —

ـ شاهد إدريس فلم جوزيف بيفني / 121 في إحدى قاعات الحي اللاتيني عشية يوم من أجمل أيام ماي، خرج من العرض فواجه أفواجاً من المتنزهين العائدين من حديقة لوكسنبورغ. ترك الجانب العامر من الشارع وانحاز إلى الجانب المهجور مردّداً في ذهنه جملاً طويلة ملتوية عن كيم نوفاك وعن هوليوود. جلس إلى مقعد قدام مقهى كلوني تحيط به زقزقة طالبات المدارس. أخرج من محفظته الورق والقلم وسجّل ما علق بذهنه من جمل كيم. وضع الورقة في مظروف بعث به إلى زميله المسجّل في شعبة الآداب. مرت أسابيع ثم اعترضه الزميل المذكور في مطعم الحي

الجامعي قائلاً: تلقيت خطاباً لم أفهم مغزاه. أجابه إدريس أهمل ما فيه. كان الزميل يدرس الأدب المكتوب، يحلّل يومياً عملية التأديب ومفهوم السيروية عند شاطوبـريان وبالزاك ومع ذلك لم يفهم مغزى سيروية الأفلام، القوت الذي ينتعش به خيال الملايين من البشر الذين لا يقرأون. .

ـ شراب يخامر عقولهم

ـ خمر من نوع خاص. إن المدمن لا يتعاطى الخمور الثمينة المعتّقة، يفضل المشروبات البخسة، القريبة من الخلّ، مثل هذا يحصل لمشاهد الأفلام. عندما يشغف المرء بالسينما يصبح يلتذّ بالأفلام من درجة (ب)، التي توزع في قاعات كاميو وأبولو وريجان أفلام تتشابه قصة وتمثيلاً وحواراً. . . تتكرّر أحداثها في نفس الديكور، وهذا التكرار هو ما يعطيها متانة الواقع. يتكوّن هكذا عالم سيلوليويدي قائم بذاته، كل موضع، كل شيء في الفلم يخاطب المشاهد: ألم تعرفني؟ حضرنا جميعاً موت فلان على يد فلان ووداع فلان لفلانة واتفاق فلان مع فلان. هذا الجانب من السيروية يمدّ المتخيّل بكل مظاهر الواقع. .

ـ الواقع يلمس.

ـ يلمس ويشمّ ويذاق. المتخيّل السينمائي بدأ مرئياً فقط ثم تحوّل إلى مرئي مسموع وربما يتحوّل عن قريب إلى مرئي مسموع مشموم ملموس ومذاق. عندئذ أي فرق يبقى بينه وما نسميه الواقع؟

ـ الواقع يستولد.

ـ هلّل وكبّر إن شئت. اترك القضية بين أيدي الفلاسفة، انهم مشغولون بها منذ أن حكى لهم أفلاطون أمثولة أهل الكهف. المهمّ أن هذا الجانب من السيروية، اطباق الظل على الأصل والخيال على الواقع والتطلع على التجربة، لم يتحقّق في العالم الغربي المعاصر إلا في هوليوود في عصرها الذهبي، عندما كانت واثقة بنفسها، مطمئنّة على مستقبلها، عندما كانت تقول: أمريكا حلم الدنيا. انعزلت جماعة عن الحياة العمومية، انحازت إلى أطراف الصحراء، وهناك قرّرت ابداع حياة ليلية ساطعة قادرة على مزاحمة، إن لم يكن على محو، الحياة النهارية الكئيبة. نظن خطأ أن السيروية انجاز فردي، انه بالضرورة عمل مشترك حتى ولو عزي لشخص واحد. لم يتوصل بالزاك إلى تأصيل وهم كوميديا بشرية إلا بنقل أبطاله من قصة إلى أخرى أي بمساعدة قرائه. السيروية حصيلة جماهيرية بل مؤسّسية. هذا ما كان في

الماضي، عفوياً بدون تخطيط، وهذا ما أعادته إلى الوجود بعزم وتصميم هوليوود. الاستمرارية التي نلاحظها في أفلام انتاج (ب) هي انعكاس لاستمرارية حياة الجماعة التي انعزلت في هوليوود عن سائر البشر. قال الناس عنها أو عن صناعة الخيال والأوهام ما قالوا ثم بعد حين أخذ البعض تلك الصناعة، بمخرجيها وممثليها ومكانها وزمانها، كمادّة لأشرطة سينمائية. عندئذ انعدمت الثقة فانهارت هوليوود.

يصف إدريس صورة ملفّقة تركتها في ذهنه عدّة أفلام مثّلتها فتاة تسمّى كيم. لا نعرف، لا نريد أن نعرف، عنها سوى أنها دمية فارغة يملؤها كلّ مرّة بحياة خاصة به أحد مخرجي هوليوود، فتنطبع كفتاة محرّفة..

ـ على لوحة الذهن، كالتلميذ يسود بالسمق ما حرّفه المعلّم بالقلم الجاف.

ـ عملية طبيعية قديمة قدم الحضارة. بها تألّفت مفاهيم الأبطال أنصاف الآلهة. ما كان يحدث في أبهاء القصور أنجز في بيوت من خشب على أبواب الصحراء لاستهلاك مجتمع جماهيري.. الشريط المحمّض عوض اللوحة أو الصحيفة، وعوض الأميرة الفتاة العادية. تلّون وتزيّن فتتحوّل إلى شبح محبّب يرافق المشاهد أياماً وشهوراً.. عملية تهذيبية على كل حال..

والتركيب الذي قام به إدريس أنجزه فيما بعد مخرج سينمائي/122. طلب من كيم أن تلعب ذلك الدور الملفّق المكوّن من أدوار أفلامها المتعدّدة السابقة. تخيّل ـ إذا صحّ التعبير في قصر الخيال ـ أن كيم ـ النجمة قد توفيت فتوقّف مخرجها المعتاد عن العمل إلى أن صادف ذات ليلة فتاة فقيرة تحلم فوق رصيف النجوم في هوليوود وتشبه إلى حدّ كبير النجمة التي توفيت. رأى الفرصة ليشتغل من جديد، فعرض على الفتاة الفقيرة أن تمثّل حياة كيم.. إلا أن العرض قدم في الحقيقة لكيم التي لا زالت حيّة.. أن ترسم على الشريط حياة أشرطتها السابقة.. تعبير على مستوى ثالث لنفس العملية، أي تقطير الحلم من السلوك اليومي..

ـ وأنت الآن تقدّم تعبيراً على مستوى رابع..
ـ لا حدّ لانعكاس الصورة في مرايا متقابلة.
ـ صحيح إذن أن الفن غواية.
ـ صحيح أيضاً أن الحياة عبث.

## الفصل التاسع

# التعبير

«الصومعة

مدينة على شاطىء البحر، مرساها دائم الحركة، أسواقها عامرة ليلاً ونهاراً. يزدحم في أزقّتها الفرسان والتجّار والصنّاع والطلبة وغيرهم. بلغت من السعة والرخاء أن قيل عنها: سكنتها مائة ممّاس وممّاس تحفظ المدوّنة، بل ما قيل هذا الوصف إلا فيها. يحكمها أمير عاقل حليم همام، أدرك أن أعداء الدين الحنيف لا بدّ أن تغريهم يوماً ثروتها ويخططوا لمهاجمتها، إذ كان الميناء مفتوحاً لهم كل سنة من مستهل الربيع إلى أواسط الخريف. يأتون بمراكبهم لوسق الجلود والحنابل والأصماغ والأعشاب والطبول والرياش وكل ما يخطر على بال ويصل المدينة من كل الأصقاع، يبيعون البخس الرخيص ويشترون الغالي النفيس ولا يقبل منهم إلا الدرهم والدينار. يمكثون في فنادق مخصّصة لهم، ويشاهدون ما فيه المسلمون من رفاهية ونعيم، فكيف ترضى نفسهم أن يروا أموالهم تتكدّس باستمرار بين أيدي المسلمين؟ هذا ما قال الأمير الحكيم في نفسه. فجمع العلماء والأشراف وأمناء التجار والصناع وشاورهم في الأمر. قال: تعلمون أيها السادة أن عرق المدينة ينبض بالتجارة والتجارة مخالطة ومكاشفة، فيها خير عميم وفيها خطر عظيم، لا بدّ أن نحذر مكائد العدو الذي يبثّ فينا العيون نصف السنة ويعرف مقاتلنا، فافتوني في أمري وأعينوني على تحصين المدينة، اذهبوا إلى أعمالكم وفكّروا في وسيلة نميّز بها التاجر المهادن من العدو الغادر، قبل أن يقاسمنا الدار وتصعب المدافعة. فكّر أولو الرأي وأطالوا التفكير، تشاور بعضهم مع بعض وأخيراً اهتدوا إلى صنع آلة سموها المانعة وضعوها على رأس

منارة متوغّلة في البحر. قيل ان تلك المنارة فاقت بهاء واتقاناً معلمة الاسكندرية التي ظنّ الكثيرون أنها ليست من عمل البشر. كانت المانعة لا تتعرض بشرّ للمراكب التجارية ولو تتابعت في طابور وبدت ثقيلة غائصة في الماء، وتجذب المراكب الحربية، وإن جاءت متباعدة تجري فوق الأمواج، نحو الصخور. فتصطدم بها وتتعالى شظاياها إلى عين السماء..

كان أهل المدينة، في أوقات معلومة وبحضور التجّار الكفّار، يجرّبونها على مراكب يصنعونها لذلك الغرض. يرونها تتفكّك فيتهاتفون ويصفّقون. طار صيت المدينة حتى لم تعد تعرف في جميع أنحاء المعمورة إلا بالمنيعة.

وذات يوم دخلها رجل على وجهه سمات الأعاجم. قصد المسجد الجامع، توضّأ وصلّى ثم قضى ليلته يخرج الأوراد وفي الصباح طلع إلى القصر طالباً مقابلة الأمير. قال ان اسمه وفي الدين وأنّه شريف من بلد على حدود الهند، ساح على وجهه خائفاً على نفسه من قاتل أبيه والمتسلط على ملكه. توسّل إلى الأمير أن يسمح له بالمجاورة في الزاوية القريبة من المسجد وبإعطاء دروس عامّة في الحديث. كان الأمير لا يقدّم ولا يؤخّر شيئاً إلا بمشورة العلماء. جمعهم وأسمعهم طلب الغريب. ناظروه فأعجبهم منطقه رغم ما فيه من لكنة وغنّة وأثلج صدرهم أن وافقت أجوبته ظاهر القرآن والسنّة، فافتوا بمساعفته. شرع في املاء دروسه، ولم تمرّ أسابيع قليلة حتى تعلّقت به قلوب الخاصّة والعامّة لما لمسوا فيه من اعتدال في الرأي وذكاء في الاستنباط وتواضع في السلوك. استفتي فاعتذر إلا أن يأتيه أمر من القاضي، وإذا جاءه الأمر كتب الجواب ولم يوقّعه فقال الناس جميعاً ان وفي الدين شريف صالح زاهد حقّاً لا يبغي من العلم إلا رضى الخالق.

توفي القاضي على حين غرّة فانقسمت المدينة، كل حزب لا يبغي عن مرشّحه بديلاً. حار الأمير ورأى أن يعرض المنصب على وفي الدين الذي أجاب متلطّفاً: أيها الأمير ألهمك الله رأياً وألهمني رأياً أعرضه عليك. لا تسند إلي منصب القضاء واترك لي مهمّة الاختيار بصفتي وافداً لا أنتسب إلى أية فرقة. إن رضي الناس باختياري فذلك ما نريد وإن غضب البعض انصبّ غضبهم علي. أعجب الأمير برأي وفي الدين وزاد حبّه له وتقديره. فوّض له أمام الملأ أمر الاختيار وأمام الملأ أعلن عن اسم القاضي الجديد فقبله الجميع بدون تردّد كما لو لم يكن من قبل شقاق أو اختلاف.

فرح الأمير وتفضّل على وفي الدين بدار واسعة مؤنّثه، عيّن له حرساً وخدماً، ورغم تمنّعه أجرى عليه راتب وزير. كتب لكلّ أعوانه بتوقيره واحترامه، بتحريره من كل كلفة، بتقديمه في كلّ مناسبة. ثم كلّمه في أمر الزواج فقال: إن النبي، صلّى الله عليه وسلّم، رغم ما ذاق من اضطهاد على يد قريش، عاد إلى مكّة. حقّ له أن يدعو الله عليها، أن ينساها بالمرّة، أن يستقرّ عند من عظّمه وأحبّه، داخل وخارج الجزيرة، لكنه لم يفعل. وجدت في هذه الأرض المباركة ما لم أكن أحلم به في بلدي، فشكراً لله ولي النعم وشكراً لك أيها الأمير السعيد. لكن حبّ الأوطان من الإيمان. إن تزوّجت ورزقني الله أولاداً، وضعتهم ووضعت نفسي في أسوأ الأحوال. إن غادرتهم يوماً تألّمت لفراقهم وتألّموا لفراقي، وإن رافقوني عرفوا من مرارة الغربة ما عرفت طوال أعوام كثيرة قبل أن يهديني الله إلى هذا البلد الأمين. والحمد لله من قبل ومن بعد، هل بقي من العمر مثل ما تقدّم؟ رفض كذلك أن يكون له أتباع ومريدون، أن يعطي دروساً خاصّة داخل داره. كان يملي دروسه على رؤوس الأشهاد في المسجد الأعظم. يقصده كلّ يوم، صيفاً وشتاء، قبيل صلاة العصر ولا يفارقه إلا بعد صلاة العشاء وإخراج الورد يرافقه إلى داره أحد الطلبة بالتناوب.

مرّت الأيام ونسي جلّ السكان أن الشيخ وفي الدين غريب من الغرباء. ذاع صيته فزادت المدينة به شهرة على التي أكسبتها إيّاها منارتها والآلة المودعة فيها. عظم الرواج في أسواقها، قصدتها المراكب من أقاصي المعمور حتى قيل ان مركباً من الصين أرسى في بصرة العراق، فسمع ربّانه بوجود بصرة ثانية، توجد في المغرب، أبهى وأغنى، فتشوّق إلى رؤ يتها وتعاقد مع بعض من ذهب إليها من التجّار ليدلّه على الطريق إليها.

اتّسعت التجارة فتضاعف الرخاء وتفاحشت مظاهر البذخ. اختلط السكّان وظنّ خلق كثير أن مناعة المدينة تعود إلى ما أكسبتها ثروتها من سمعة وهيبة بحيث لم يعد أحد يتخيّل أن مهاجمتها أمر ممكن. مع هذا اعتقدت أقليّة أن حارسها الحقيقي هو الشريف الصالح. وكان الباعث على هذا الاعتقاد أن وفي الدين اعتاد منذ شهور أن يذهب كل يوم بعد صلاة العشاء إلى المنارة. لمّا غيّر سيرته أول مرّة واتّجه نحو البحر، حائداً عن طريقه المألوف، لمّا اقترب من العبّارة مصحوباً بمرافقه، تعجّب الحارس وهمّ بتوقيفه، لكنه تذكّر الأوامر الصارمة بتوقيره واحترامه فتراجع وفسح له الطريق. وعلى عتبة المنارة حصل للحارس الثاني ما حصل للأول. أخبر الأمير

بالحادث أول الصباح فلم يشر بشيء. وهكذا تقرّرت عادة جديدة، أن يأتي وفي الدين بصحبة رفيقه ويمكث في المنارة إلى منتصف الليل ثم يعود إلى منزله. يطيل أحياناً الجلسة حتى يعلو الأفق بياض فيقصد مسرعاً المسجد لأداء صلاة الفجر مع المبكّرين.

وذات ليلة من ليالي الشتاء، حيث كانت الريح عاصفة والأمواج عالية متلاحقة، قال وفي الدين لمرافقه: اسمع يا ولدي، لا زلت غضّاً يافعاً، ستشفق عليك والدتك. عد إليها بالسلامة. سأذهب مباشرة إلى المنزل، ليست هذه ليلة عادية. ارتاب التلميذ لكنّه لم يسعه إلا الامتثال لرغبة شيخه فودعه غير بعيد من المسجد وانصرف.

وفي الغد اجتمع الطلبة كعادتهم، لكن الشيخ على غير عادته لم يظهر في الوقت المعهود. لم يسبق أبداً للطلبة أن انتظروه أو فتّشوا عنه بين أروقة المسجد. بدا القلق على الوجوه وارتفعت الأصوات. سئل الطالب الذي رافق الشيخ فحكى ما عنده. أرسل طالب ثان إلى منزله. ذهب مسرعاً وعاد مسرعاً وأخبر أن الشيخ لم يقض الليلة في منزله وأن الخدم لم ينزعجوا لأنهم يعلمون أنه يمكث أحياناً الليل كلّه في المنارة ويقصد مباشرة المسجد ويلازمه إلى ما بعد الظهر. أرسل طالب ثالث إلى المنارة. ذهب مسرعاً وعاد مسرعاً وأخبر أن الحارس رأى الشيخ حين طلع إلى المنارة لكنه لم يره حين غادرها وأن مثل هذا الأمر كان يحصل خاصة إذا كان الليل مظلماً. إلى ذلك الحين لم يتعجّب من غياب الشيخ إلا الطلبة وبعد أن لم يتحقّق عندهم شيء تفرّقوا بين الأقواس مستأنفين أحاديث الجدّ والهزل. أقيمت صلاة المغرب ولم يحضر الشيخ، ثم أقيمت صلاة العشاء ولم يحضرها. كان بذلك قد تغيّب يوماً كاملاً عن المسجد وهذا ما لم يعرف عنه منذ أن سكن البلد. عندئذ أخبر الأمير بالواقع فكلّف قائد الحرس أن ينظّم بنفسه حملة التفتيش وأن يخرج الشيخ من أغوار الأرض أو من أعماق البحر. جدّ الناس في البحث عن وفي الدين ولم يتكلّموا في شيء آخر لأنهم كانوا جميعاً يؤمنون أنه سيظهر عن قريب. لو كتب لحملة التفتيش أن تطول الليل والنهار، لو اضطرّ قائد الحرس أن يعود إلى سيّده خائباً خاسئاً، عند ذاك لربّما انحلّت الألسنة ولأقدم البعض على الإفصاح عن ضمائرهم، لربّما قال الأول انه سمع صوته في السحاب والثاني انه رآه يقفز من المنارة ويطير والثالث انه استيقظ في جوف الليل على ترحيب الملائكة بروح الشيخ الطاهرة. لكن الظروف لم تسعف أحداً من

هؤلاء لأن المنيعة سقطت في أيدي الكفّار ساعتين قبل فجر اليوم التالي».

(الرباط 1951).

— 69 —

- أصل الحكاية معروف. سمعت وأنا طفل، ولا شكّ أنك سمعت أنت أيضاً مثل ما سمعت، أن رجلاً حلّ بناحيتنا وادعّى أنه تجوّل في العالم كلّه وسبر كل أسراره وأنه توقّف عندنا لأنه لم يجد أرضاً أغنى ولا أبهى ولا أهنى منها. فقرّر أن يجاور تربة الولي الصالح إلى أن يدعوه الله إليه. يقال ان الفقيه الرافعي لم يتعلّم نظرية أهل الطبيعة القائلين بإبداعية الدهر إلّا منه لأنه ناظره مراراً في مسائل الفلسفة والكلام. أحبّه السكان وصاروا يستشيرونه في الجليل والحقير من أمورهم. يأتونه بأولادهم وأزواجهم لينظر في حالتهم الصحية. يفعل ذلك ولا يطلب شيئاً بل يرفض رفضاً قاطعاً كل أنواع الهدايا.. ومع ذلك كان يعيش في رخاء حتى تساءل البعض: من أين؟ فأجاب من يمزج الجدّ بالهزل: وما يدريك، لعله اطلع على الاسم الأعظم! الأرجح عندي أنه كان يتعاطى الربا وأن النساء كنّ يذهبن عنده ليقرضهن على ما في أيديهن من حلي وسكت البعض عن البعض لدواعي الضرورة.. مهما يكن عاش على أحسن حال أكثر من عشرين سنة، حسب ما يقال، حتى أطلّ جيش الاحتلال فتبخّر في الهواء، أو حسب العبارة المألوفة: بات ما صبّح.

- قرأت مؤخراً في أسبوعية عربية تصدر في باريس مقالاً حول دخول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت. يقول كاتبه انه عرف طيلة سنوات أحد باعة الفواكه المتجوّلين، يعرض في أكبر ميدان في رأس بيروت أحسن الفواكه وبأرخص الأسعار، يلاطف الزبائن، يمازحهم مخاطباً كل واحد بلهجته، يكثر من الملح والنوادر، يحبّ الكبار والصغار. هذا يسميه عمّي فلان وهذا الحاج فلان.. حتى طوّق العدو المدينة فبادر إلى نزع الكوفية وتحوّل إلى دليل يرشد ضبّاط المخابرات إلى مساكن زعماء المقاومة..

راجع أخبار سقوط حواضر الأندلس والشام أيام الحروب الصليبية عد إلى قصة شركان في **ألف ليلة وليلة** تجد نفس الحبكة. ليست قصة وإنما هي أسطورة تنحدر من جيل إلى جيل وتتجوّل من قطر إلى قطر، تطفو على سطح الوعي وتجري على اللّسان كلّما تجدّدت الأحوال التي تناسبها.. لها أصل في الواقع وأصل قريب

زمنياً. يحكي المؤرخون أن جاسوساً إسبانيا دخل المغرب في عهد المولى سليمان مدّعياً أنه من أولاد سلطان عثماني مخلوع. فاستقبل أحسن استقبال وجال في أنحاء البلاد محاطاً بعناية واحترام الجميع حتى شاهد ما أراد فغادر المغرب ونشر فيما بعد كتاباً سجّل فيه كل ملاحظاته/123. لكن أهم من أصلها الواقعي إشارتها الخفية. ان الأسطورة تنادينا من وراء الكلمات والأحداث الطارئة وتقول اننا نعيش في عالم أصبحنا غرباء فيه. لم نعد نعرف كيف نتصرّف لأننا نسينا كل شيء عن أنفسنا وعن ماضينا. تتذكّر أننّا كنّا في وقت مضى قوة فاعلة فوق هذه الأرض وانتصرنا على غيرنا وحكمنا نصف المعمور حتى خاف منا الداني والقاصي.. ولكن لم نعد ندرك الأسباب الملموسة التي كانت وراء انتصارات خالد وقتيبة وعمرو وموسى وطارق، ولا حتى يوسف وصلاح الدين.. كل ذلك بهت واختلط فعاد لغزاً من الألغاز ذهب سرّه باختفاء أصحابه. اليوم ينتصر أعداؤ نا وانتصارهم أيضاً سرّ وبما أنه لا يمكن أن يكون إلهياً فهو سرّ شيطاني مبني على الحيلة. استمرارنا لغز وسبب اضمحلالنا حيلة شيطانية. فرجاؤ نا معقود على إيجاد ناموس سحري، لكن كيف نحرس الناموس من كيد الأعداء؟ بناموس آخر وهكذا دواليك. ونحن في كلّ الأحوال تحت أنظار العدو الذي ينتظر الفرصة لينقضّ علينا ويسلبنا الحرية والمال والحياة. إذن نحن كبشر غير مسؤولين مسؤولية مباشرة لا عن انتصارات الماضي ولا عن هزائم الحاضر، الكل يعود إلى الزمن وأدواره..

ـ دار الزمان على دارا وقاتله.. /124.

هذه قراءتك ولي، إن سمحت، قراءة أخرى. أعتقد أن إدريس انتبه إلى أن خلاصة القصة غير لائقة. صحيح أن الطلسم سرّ لا يعرفه إلا عدد قليل من السكّان ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه سحر حرام، قد يكون نتيجة عمل حلال، أعني من ثمار القوى الطبيعية التي سخّرها الخالق لبني آدم. كم من الناس يعرفون اليوم بالضبط سبب التيار الكهربائي أو سرّ المغنطيس؟ عدد قليل. هل يعتقد غيرهم وهم الأغلبية الجاهلة أن الكهرباء أو المغنطيس سحر من عمل الشيطان؟ المشكل في نظري يكمن في وجهة أخرى، في كون الحيلة انطلت بسهولة على جميع السكّان، الكبير والصغير، العالم والجاهل، لأنه لم يكن في استطاعة أحد منهم أن يشكّ ولو لحظة واحدة. دخل الغريب إلى المدينة في زي شريف عالم زاهد، نال ثقة السكّان بسبب صحّة عقيدته واستقامة سلوكه، أي بسبب تلك القيم التي تضمن في نظر جميع

السكان النجاة في الدارين. لا ندري، لا أحد يدري، ما حصل في المنارة، ربما تعطّل الطلسم طبيعياً كما يتعطّل عندنا يومياً التليفون. . ربما مات الرجل طبيعياً أثناء عودته من المنارة. . حينئذ يكون سقوط المدينة غير مرتبط بتعطيل الناموس. لاحظ أن إدريس عنون قصّته الصومعة لا المنارة أو الطلسم. يقول إدريس ويكرّر أن الأمير ذو همّة وحزم وأنه يحكم البلد باتفاق تام مع العلماء والأشراف والأعيان. لم تسقط المدينة ضحية الغفلة واللاّمبالاة بل ضحية الإيمان التام بالعلم والشرف والزهد أي الإيمان بالصفات التي تميّز أصحاب الحلّ والعقد الذين يضمنون للأمير طاعة الرعية واستقرار الأحوال. ما كان له أن يكون أكثر حزماً إلا باستصغار تلك الصفات، بتجاوزها، أي بالتشكّك فيها، فيكون حذراً من كل وفي كل وقت. عندئذ أين الإيمان؟ أين الاطمئنان؟ اقول ان إدريس أدرك أنه ذهب بعيداً، أنه انساق مع استنتاجاته وأنه سيترك عند القارىء الانطباع أن الإيمان والأمن من المكر أخوان شقيقان، أن المؤمن لا محالة مخدوع فأحجم ولم يتمم ما بدأ.

ـ أبهاك ما أبهاك. تلاحق العدو حتى يسلّم السلاح. أفهم قصدك. لكن لا أظن أنك أصبت المقتل. لم يحجم إدريس بسبب ما تقول، لنا على ذلك دلائل. قد يكون كلامك صحيحاً لو كانت الحبكة من إبداع إدريس لكنها، كما قلت، ملك مشاع. يجب فهمها على أسس النفس الجماعية.

وحتى لو قبلنا وجهة نظرك، يبدو أن تحليلك ناقص. نسيت أن إدريس يؤكد أن المدينة تعيش في رخاء متزايد بسبب تجارتها المزدهرة مع الأعداء. زاد عدد هؤلاء الذين داخلوا السكان أي كشفوا عن دواخلهم، فسلبوا عقولهم بالذهب والفضّة، وكل ذلك بمعاملات حلال. ان الطلسم الذي كان الهدف من اختراعه حماية المدينة تسبّب في جلب عدد أكبر من الأجانب وتسبّب كذلك في انحلال المدينة من الداخل وأصبحت الخصال التي تتكلّم عنها في خطر ولذلك أعجبوا بها رأوها مجسّدة في وفي الدين. . لنترك هذه التأويلات والتخمينات.

ترك إدريس القصة في صورة مخطط هزيل لا يختلف عن الأسطورة ـ الأصل، عن النمط العام الموروث، لسبب يتعلّق بالشكل أكثر مما يتعلّق بالمنحى الفكري. قرأ ما كتب في فترة لاحقة عندما جدّد عهده بالتأليف العربي، بكتابات هيكل والعقاد وأحمد أمين ومن خلالهم بالمؤرخين والجغرافيين القدامى، فجزأها من جديد إلى عدّة فصول وكتب مقابل كل فصل المراجع التي يمكن استقاء المعلومات منها:

«ـ المرسى الفندق الأسواق : وصف البصرة والأبلّة
«ـ الأمير المناظرة الآلة : كتاب أسفار سندباد
ـ الوافد المسجد العيون المناظرة : أخبار أبي عبد الله
ـ الدروس موت القاضي الخلاف : أخبار القاضي أبي يوسف
ـ التبتّل الخدم التلميذ : الإمام أحمد والمحاسبي
ـ حرق التقاييد الرفع : أخبار الحاكم
ـ المباغتة : سبتة و أسرة الأزفي

هذا هو الهيكل لتلعب الآن المخيلة، لتنشعل وتحترق». كان الهدف من تلك الإيحالات التشبّع بدقائق الواقع التاريخي، على شاكلة الكتابات الرومنسية الألمانية، لتبقى القصة بين الأرض والسماء بين الخبر والأسطورة. . ولكن الظاهر أن المخيّلة لم تسعفه، لم تنشعل ولم تحترق كمحرك سيارة صباح يوم شتوي بارد، إما لأنه افتقد الصبر اللازم لحشد المعلومات وصهرها في إطار متناسق، وإما لأن معتقده قد تغيّر فلم يعد يصدّق أن سبب الهزيمة هو الدعة والاطمئنان، مع أن هذه الفكرة لاحقته باستمرار. لم ينسها إلا ليكتشفها بعد حين في زي جديد. الإيمان أمن يدعو ربما إلى التوكل إن لم يحذر الإنسان نفسه في كل لحظة. وكيف يحذر الإنسان من نفسه في كل لحظة؟ هذا هو المشكل القائم. .

ـ الذي سوّد فيه الغزالي مئات ومئات الصفحات.
ـ بدون نتيجة حاسمة فيما أعتقد.

— 70 —

«الكهف

يرى على اليمين مدخل يؤدّي إلى أعماق الكهف وعلى اليسار مدخل ثان عليه شباك في شكل نسيج عنكبوت، يرفع ويسدل باستمرار. من حين لآخر تسمع من الخارج كلمات أعجمية. في وسط المنظر يتقابل رجل معمّم بلحية غزيرة بيضاء مشغول بسبحته وامرأة شابّة مجلببة، بعيداً عنهما يقف فتى بلباس شبه تركي. تسمع من جهة اليمين همهمة يعلوها صوت رخيم يفهم من نبراته أن صاحبه متعوّد على إعطاء الأوامر.

يطارد جيش الاحتلال شرذمة هامت على وجهها حتى عثرت على كهف

حوصرت فيه. يظن أعضاء القبيلة في البداية أن مكوثهم في الكهف مؤقت وأنهم سيجدون منفذاً أو في أسوأ الأحوال ينتظرون الفرصة المواتية لمداهمة جنود العدو إن لم يكن هؤلاء قد سئموا من قبل ورفعوا الحصار.

من بين المحاصرين فتى تعلّم في محضر القبيلة على الامام ثم رحل إلى الشرق طلباً للعلم. قصد الحجاز حيث تتلمذ في المدينة المنورة على شيخ من الهند حتى اتقن علوم الحديث ثم سافر إلى الشام فزار بيت المقدس ودخل العراق قبل أن ينقلب عائداً إلى وطنه. توقّف قليلاً بالقاهرة وسمع ما تيسّر على بعض الأساتذة المصلحين. انطلق لسانه وانفتح ذهنه واقتنع أن الوقت قد حان لأن يقوم المسلمون بإصلاح أحوالهم وتجديد دينهم أسوة بصالح أسلافهم. ما إن استقرّ في قبيلته وبدأ يفكّر في تنظيم الدعوة حتى طرقت سمعه أخبار الفاجعة التي حلّت بوطنه. فكّر أن يلتحق بأرض المغرب الأقصى التي انطلقت منها عبر التاريخ الدعوات الناجحة. لكن القدر لم يمهله. هاجم الغزاة قبيلته ووجد نفسه ضمن المطاردين.

بجانبه أستاذه، إمام القبيلة المسن الذي كان أول من توسّم فيه النجابة وشجّعه على طلب العلم. يحبّ تلميذه، يشهد له بالحفظ والدراية، يتفهّم همومه، يتمنّى له النجاح، لكنه يرفض أن يرافقه، بسبب سنّه (يريد أن يموت في الأرض التي ولد فيها) وكذلك بسبب عقيدتـه. يقول: يا ولدي أنا مالكي المذهب حنبلي العقيدة، كلّ شيء مقدّر وإلاّ بطلت الحكمة في الكون، المصائب محن، هي التي تقيم النصاب، يجب على المؤمن، الصادق الإيمان، أن يتقبّلها وأن يستغلّها فرصة يثوب بها إلى نفسه وإلى خالقه. عندما يعمّ الظلم من ينتقم للمظلوم من الظالم سوى رب الأرباب؟ وطرق الانتقام خفية لا يعرف غايتها إلا الله الرفيق بعباده. أي فرق أن يكون الظالم مسلماً بلسانه مشركاً بقلبه وعمله؟ أمنيتي الغالية أن يقبضني إليه وأن لا يؤخّرني حتى أرى وجه الكفّار. أتمنّى على الله بوجه نبيّه الأمين وأعمال عباده الصالحين أن يكون قد كتب أن لا أخرج حيّاً من هذا الكهف.

يبكي الفتى ضياع الهمّة ويبكي الإمام ضياع الإيمان. يقود الشرذمة المحاصرة شيخ القبيلة، أب الفتى. لا همّ له في البداية سوى البحث عن منفذ يمكن الجميع من الانفلات ومتابعة الكفاح.. يظهر من حين إلى حين على الخشبة متبوعاً بغلامه وبالفرسان. تنبىء تصرفاته وأقواله أنه لا يرى فرقاً بين الحرب التي يقودها اليوم والحروب العديدة التي خاضها من قبل. يعتقد أن هذه قبيلة جاءت من بعيد لتغزو

الوطن فعليه أن يدافعها بكلّ قواه. لا موجب إذن للكلام في أي موضوع سوى البحث عن أحسن وأضمن وسيلة للانفلات من قبضة العدو. هذا بالضبط ما ينتظر من غلامه ومن ابنه اللذين جالا في البلاد وتعرّفا على أحوال الخليقة. يسأل غلامه عن عوائد الغزاة ويقول: هل يقبل رئيسهم المبارزة؟ يتّفق الفتى وأبوه أول الأمر في حرصهما على مغادرة الكهف بأي وسيلة كانت، هذا ليتابع الكفاح ضد الجنود الغازية وذاك لاستئناف رحلته في اتجاه المغرب.

يجد الفتى مؤازرة كبيرة لدى ابنة عمّه التي تربّت في أحضان أبيه حسب تقاليد القبيلة. عرف الفتى منذ أن كان شاباً أن الفتاة ما جاءت عند والده إلا لأنها مرسومة له. يطمئّن إليه ومع ذلك لم يطلعهما على نيّته التي ازدادت رسوخاً بعد أن لجأ الجميع إلى الكهف. ترى الفتاة قوّة عزيمته فتقول في نفسها: لا بد أنه يعرف وسيلة لإنهاء الحرب. لا تتكلّم أبداً بحضور عمّها. تتنحّى جانباً كلّما عاد من داخل الكهف، كما لا تكلّم الإمام إلا إذا دعاها الفتى إلى ذلك. لكن عندما تنحلّ عقدة لسانها فإنها تفوه بعبارات بليغة تشبه إلى حدّ ما عبارات الإمام. تتحسّر على مآسي الحرب وتستبطىء اليوم الذي يعود فيه الهدوء والاستقرار إلى ربوع البلاد، اليوم الذي يتحقّق فيه الوئام بين الجميع. ألم يكن الأتراك أعاجم يفرّق بيننا وبينهم اللسان واللباس والطعام؟.. ومع ذلك عشنا معهم طيلة قرون، ألم يسبقوا غيرهم وينضمّوا إلى الأعاجم الجدد الذين يفوقونهم قوة ونظاماً؟ كلام يستسيغه الإمام ويتفهّمه الفتى، لكن يستثقله شيخ القبيلة، لا لأنه يرفض مبدئياً مساكنة أعداء اليوم إذ سبق له أن ساكن أعداء حاربهم سنوات عديدة، ولكن العادة، التي لا يتصور أن يحيد عنها، هي أن المفاوضة لا تذكر إلا بعد تحكيم السيف وفشل كل وسائل المدافعة.

وكما أن الفتاة لا تتكلّم أمام عمّها لا يتكلّم الغلام أمام سيّده. تغيّب عن القبيلة مدّة طويلة، جال خلالها في البلاد، شاهد معارك كثيرة بين الغزاة والقبائل، ذهب إلى العاصمة، خدم أحد قواد العدو. يعرف عن «القبيلة الجديدة» ما لا يعرفه سواه، يستطيع أن ينصح مولاه، ولكن لا يستطيع أن يبادر بالنصيحة. ألحق بالقبيلة ولكن الجميع يعرفون أصله فهو بالضرورة تابع لا متبوع، قولاً وعملاً. كالفتاة لا يستشار إلا بعد أن تفشل خطّة الهجوم ويثبت العجز. قبل ذلك ينطق بكلمات مبهمة لا يفهم مغزاها أحد. يظنّ الإمام أنه يمزح كعادته فينهره:

ولدت خسيساً وستموت خسيساً.

ينقلب الجو عندما يعود الشيخ والفرسان بعد أن أيقنوا أنه لا يوجد منفذ سوى الذي دخلوا منه. لم يبق حلّ سوى مباغتة العدو. يتكلم الفتى: المشكل داخل الكهف لا خارجه. لا يخصّ وطننا بل يعمّ مشارق الأرض ومغاربها. نقبع وننتظر؟ إلى أن تنقذنا معجزة أم إلى أن نموت غماً ويأساً؟ نهاجم؟ بهدف الاستشهاد أم بهدف الانفلات ومواصلة الكفاح من غار إلى آخر؟ نفاوض ونستسلم؟ بهدف الانحلال والاندماج أم بنيّة الاستراحة واستئناف الحرب عندما تسنح الفرصة؟ الاختيارات في ظاهرها شتّى لكنّها تعود كلها إلى اختيار واحد، داخل وخارج الكهف، هذا أو سواه من كهوف اليابسة، في حالة سلم أو في حالة حرب، في حالة تساكن وانقياد أو في حالة معاداة وانفجار، والاختيار الوحيد هو بين الاستمرار بالعقوق والانتحار بالوفاء، بين الحياة بخنق المألوف والموت بانتعاشه. .

كلام يفهمه الإمام، يوافق عليه بالحرف، إلا أنه يفهم من كل كلمة عكس ما يفهمه الفتى أو الأب أو الفتاة أو الغلام. . هؤلاء يفهمون فقط أن الفتى صمّم على مغادرة الكهف بأي وسيلة حتّى ولو أدّى ذلك إلى استشهاد الجميع.

يحصل اتفاق ضمني على الانتظار. لا أحد يستطيع أن يفصل في النقاط التي طرحها الفتى والتي هي على كلّ حال من قبيل الغيب.

تقول الفتاة في نفسها: لم يفصح الفتى عمّا في ذهنه. إشفاقاً على نجاح خطّته؟ تختلي به وتستنطقه: لماذا تدعو الناس إلى التضحية في سبيل تأمين خروجك من الكهف؟ ماذا تريد؟ ماذا تأمل؟ يراوغ. تلاحقه بأسئلة نافذة، تحاصره بعبارات لاذعة فينكشف. انه ينوي الاتجاه نحو المغرب آملاً أن يجد هناك أحوالاً أكثر ملاءمة لنجاح الدعوة التي يخطّط لإعلانها. يقول: ان العدو مشغول هنا ولن يصل إلى هناك إلا بعد حين، أمامنا مهلة أمامنا فرصة، لا ندري ما يريد الله بنا، هذه محنة كما يقول الإمام، ولكن ليس المطلوب أن نكون أعدى من أعدائنا على أنفسنا، ان الله لا يطلب منّا أن نسبق حكمه فينا وأن نعين العدو بالخمول والاستكانة. علينا أن نعمل ونرى آثار أعمالنا. تردّ الفتاة: إذا كانت المصيبة عامّة، إذا كان العدو سيصل لا محالة إلى هناك، لماذا لا تبدأ الدعوة هنا، في الظروف القاسية التي نعيشها اليوم ويعيشها غيرنا غداً. أنت هنا في كهف، ألا تخشى أن تجد هناك كهفاً أكبر؟ ألا تلحّ على مغادرة البلاد لسبب واحد هو تجنّب الاختيار مع أنك تعلم وتقول انه، هنا وهناك، داخل وخارج الكهف، اختيار واحد بين الحياة والموت، الانتعاش والانتحار. تقول ان

غيرك يتعلّق بخيوط أوهـى من خيط العنكبوت وأنت أنت؟ الأسرة في عينك عنكبوت، وكذلك القبيلة وكذلك الوطن، ما هو هذا الذي تريد أن تدعو له في أرض المغرب؟ من يضمن أنه آصرة أقوى من الأواصر التي تهمّ بقطعها. ألا تتذكّر الحديث الشريف الذي كنت تردّده وأنت عائد من عند الإمام: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. ما لا يريبني هو موقف والدك وكلام الإمام، رغم أني لا أدري بالضبط ما يفرق بينك وبينهما.

مرة أخرى ينتظر الجميع.

وتدقّ ساعة الغلام. يترك الألغاز والأمثال ويعبّر عن رأيه صراحه. أمام الجميع تتمّ المواجهة بينه وبين الفتى، لكل واحد منهما تجربته ولهجته وسلاحه الخفي لاستمالة الآخرين. يلجأ الفتى ولد القبيلة الشرعي إلى الأسلوب المحبّب إلى النفوس، يذكّر القبيلة بأمجادها وأعمال أعلامها، لكنه يجهل كلّ شيء عن «القبيلة الطارئة» التي سخّرت البحر ومهّدت الأرض فيعجز عن تقديم أي حلّ جماعي ناجع. سلاح الغلام أنه احتكّ بالعدو فعرف مواطن القوة والضعف فيه. أدرك أن الأولى واضحة اليوم، لا سبيل إلى جحدها أو كسرها، وأن الثانية لا تنكشف إلا بعد مرّ الأيام. لا فائدة إذن في المواجهة الصريحة، لا تنفع إلا المراوغة، لا داخل بل خارج الكهف، لا في حلبة الصراع، بل في الهواء الطلق على امتداد الزمن، ولله في خلقه شؤون. يسمع الفتى ويعلق: هذا دليل على الخسّة. يسمع الإمام ويعقّب: من علامات قرب الساعة أن يمتنع المريض عن الدواء، أن لا يعرف للقبيلة موطن وأن يرجّح رأي المملوك. يسمع الأب ويبقى مشدوهاً. تسمع الفتاة وتبقى ساهية.

ينتظر الجميع.

فيحدث ما لم يتصوره الأب، ولا تكهّن به الإمام، ولا شعرت به الفتاة، ولا أنبأ به الفتى ولا أخبر به الغلام. ينسدّ بغتة المنفذ، تحترق خيوط العنكبوت، يملأ الدخان قلب الكهف. . يتحرّك الغلام وحده لردّ الدّخان. ينزع أعلى ثيابه وينشّ بها كما لو كان يدافع الجراد. يدعو الآخرين ليفعلوا مثله فلا يستجيب له أحد منهم. يجلسون متقابلين. رؤوسهم تتمايل من الأمام إلى الوراء كما لو كان بهم ألم في الرأس. يلحّ الغلام، ينادي وينادي وأخيراً يأتي الجواب: الشكر لك والحمد لك، يا من هديت المؤمنين وأغويت الكافرين. . ».

ـ الكهف هو الزمن عند الحكيم.

ـ الكهف هو الجسم، هو المادّة، هو المكان عند أفلاطون.

ـ الكهف هو مأوى الرسول ورفيقه الصدّيق.

ـ رغم ذكر العنكبوت، الكهف هنا هو الذي وصفه لنا لوزينكي في احدى دروسه أثناء شتاء 1953. كان مقرّر التاريخ تلك السنة التوسع الاستعماري الفرنسي. فتكلم لنا عن غزو أرض المغرب الأوسط وعن مقاومة السكّان وتاكتيك الجنرال بيجو/125 الهادف إلى إتلاف المنتجات وتخريب المساكن وإرهاب السكان، وأثناء كلامه حكى القصّة المعروفة عن الجنرال بليسيه./126 الكهف هنا هو المحطّة الأخيرة عندما تقرأ على الحائط: لا منفذ. فتضطر إلى أن تعود إلى أعقابك، بالرجل أو بالذهن. ذهب الفتى إلى الجزيرة، ثم زار الشام ثم العراق، محطّات الخلافة والإمامة الكبرى، ثم قصد الغرب على آثار عقبة وموسى ومن حذا حذوهما. مر بالمراحل التي تشهد بمرور كل واحد من أبطال الماضي. إلا أنه لم يستطع أن يصل إلى نهاية المشوار، إلى شاطىء المحيط، لأن الزمن قد توقّف حائراً. فيتوقّف الفتى بدوره ويحلم ويتشبّث بحلمه حتى عندما تتوالى الدلائل على أنه لم يعد قابلاً للتحقيق. يتشبّث به إلى حدّ أنه يخدع نفسه رغم كل ما يسمع من أبيه وأستاذه الهرم وابنة عمّه، أقرب الخلق إليه، لا ينفكّ يعتقد أن الكاف واحد في الكلمة وفي الكون، يظنّ أن الدعوة قادرة على إحياء الماضي. يحاور الجميع ولا يقنع منهم أحداً ومع ذلك لا يرى أن فشله في إقناع عشيرته الأقربين إنذار وإشارة على ضعف حظوظ الدعوة كلها. يحاصر داخل الكهف، طريد المطاردين فيخرج الطلقة الأخيرة، يحوّل الكهف إلى محكمة، يتبوأ مقعد القاضي وينادي على الأجداد واحداً واحداً: أنت ماذا فعلت؟ وأنت ماذا تركت؟ كلّكم مسؤولون، من دعاكم إلى الخروج من دياركم وبذر أرض غير أرضكم، أن تتركوا فيها أولادكم قبل أن تمهّدوها تمهيداً، أن تنصبوهم خلفاء عنكم دون أن تمدوهم بوصية واضحة لا لبسة فيها، وليدة ذهنكم، نتيجة تجربتكم، غير منقولة عن أقوال لقمان وأنو شروان والإسكندر ذي القرنين.. تجاوزتم الحدود فانظروا العواقب. ولا يردنّ أحد منكم: الحدود.. ما هي وأين خطّت؟ الحدود معلومة طبعاً وبداهة، مرسومة في الجسم والحواس الخمس.. من يتعداها متعمّداً أو ساهياً يعاقب عاجلاً أم آجلاً، في نفسه أو في أولاده وأحفاده.. والعقاب،

العقاب هو التعقّب. .

هكذا تكلّم الفتى إذ هو محاصر في الكهف مع أشباح الماضي. تخيّل إدريس أن الفتى، مهما كان، إذ فارق عشيرته، ولو برضاها وإيعاز منها، ولو بهدف العلم والمعرفة، سيعجز عن العودة إلى أحضانها، بسبب ذلك العلم. سيتألّم به، سيتسمّم به، فيثور ضد العائلة التي شجّعته على تناول العلم جهلاً بمخاطره، وافتتاناً بمنافعه الظاهرة. سيحاكمها بقوله: خاطرتم بي، قدّمتموني قرباناً للزمن الغادر. لماذا التعليم؟ لماذا الوعي؟ لماذا التفريط فيما كان بأيديكم؟ أضعتم الإرث وأردتم أن تستردّوا شيئاً منه، أو ما يساويه مقابل أحزاني وآلامي. .

الكهف أو محاكمة الأجداد.

ـ العودة إذن إلى جيد؟

ـ بل التعبير عن لحظة جيد، في كل جسم وفي كل ذهن.

— 72 —

«العائلة

أسرة ريفية ملتحمة بين أعضائها ثائر على الأقرباء، يتضايق من مرافقة غيره، يودّ لو ينعزل بنفسه ليستمع إلى همسات الطبيعة.

أسرة حضرية ممزّقة بين أعضائها شابّ ثار على الدخلاء. يحنّ إلى الماضي، يتخيّل أسرة موحّدة يعيش كل عضو فيها بمساعدة ولمساعدة غيره. يرى أن الفكر هو سبب تمزيق الجماعة وعزلة الأفراد.

ـ كنت سعيداً حرّاً طليقاً، غير سائل ولا مسؤول. تفعل كل شيء بالغريزة. في الصباح تقصد البئر وراء حصانك وفي المساء تهشّ على غنمك حتى يدخل الزريبة فتختلي بنفسك وتتسلّى بأنغام الناي.

ـ تتكلّم عن حالة تراها من خلال الذاكرة فتحوّلها إلى منظر هادىء ناعم. لو تعلم كم وددت أن أختلي بنفسي دون جدوى! كنت وما كنت.

ـ كم أودّ الآن أن أنسى نفسي! مهما أفعل أنعطف إليها انعطافاً. انظر إلي، إني أتعس من طير الخرافة، أقطع أحشائي ولا أفلت من العذاب.

ـ تطلب أن أراك بعين الحاضر ولا أراك بعين الماضي الغابر. أراك سعيداً، إن شقيت فبنفسك ولنفسك. أما أنا فإني شقيت بالغير ومع الغير. كنت أبتعد وأتوغّل

حتى أظنّ أني أدركت الربع الخالي فأقول: اسمعي يا نفس، واستلذّي لوحدك بهذا اللحن. فأعرف السعادة حتى أعود ويقترب مني أحدهم قائلًا: أبدعت يا هذا وأطربت، لا شكّ أن ملكاً ألقى في روعك ما ألقى، فيمحي من قلبي كل آثار السلوة والانشراح.

ـ حلمت بشيء عرفته طول حياتي. فانظر ما فعل بي. تعلّمت به كل ما يفرق ويوحش وعميت به عن كل ما يؤلف ويؤنس. أملك كنزاً من ذهب، إذا ما أردت أن اقتسمه مع غيري استحال في الحين إلى تراب، محبّ مهجور، مستعطف منهور. أطير وأحلّق حتى أريد أن أستريح فأطرد من كل محطة. لا أحد يقرّبني، لا أحد يحتاج إليّ. إلى متى هذا الازدراء؟ إلى متى هذا التجاهل؟ كسّرت المرايا من حولي، أخاف من الماء الجاري، ألازم الحانات المظلمة ولا أفارقها إلا إذا جنّ الليل، ومع ذلك لا أتحرّر من نفسي. أحمل في ذهني مرآة لا أستطيع أن أكسّرها، أن أعكّر صفوها وأبقى حيّاً عاقلاً.. آه، لو كنت أعيش لغيري! لو كنت أرى نفسي بعين غيري! كم استريح! تقول انى حرّ، نعم أنا حرّ، كالورقة الطائرة، رغماً عنّي.

ـ التربة واحدة والنبات مختلف.

ـ الوجه واحد والوجهة متصادّة. ما تخيّلته محاطاً بالزهور، اقتربت منه فأدماني شوكه. أنت إلى مغيب وأنا إلى مشرق، أحيّيك من بعيد تحية إشفاق وحنان.

هذا ما قاله الشبه لظلّه ذات ليلة باردة.

(دار اليابان 16 .05 .1955).

* * *

الخطر كله في النادرة.. الانغماس فيها جهل وضياع. يجب التخلّص منها بلباقة، الاختزال بدون شطط لكي لا نسقط في الأمثولة.

يجب شقّها ليدخل إليها بعض النور.. وأعني بالنور لا الكلمات بل الرنّة، الصدى المضعّف.

ألا يمكن أن تلخّص الحوادث، أن تسرد أثناء فواصل، تكون أسباب التواصل الموضوعي، تبرّر الانقلابات والانعطافات النفسانية، المتمثّلة في مجابهات الحوار؟..

* * *

ندمج الخواطر حول اللغة والنادرة والالتزام لنصل إلى مركّب تتشابك فيه وتتوثق وتتّضح الصلات بين ذات الكتاب، والمجتمع، بكل مظاهر سماكته وثقله.

شكل قريب مما أبدع جويص ولكن بدون السقوط في مخيّلاته عن الفنّ «الذي ينقذ الكاتب من كابوس التاريخ». /127.

هذا الشكل الجدلي، الاشكالي، المتغيّر والمتلوّن باستمرار، غير مستحيل بل هو وحده ممكن، إذا أراد الكاتب أن يكون صافي الوعي، غير متكلّف البراءة. الشيء الذي لا جدال فيه هو ما يحصل في ذهن الكاتب.. كل عمل فنّي ينحلّ في النهاية إلى سيرة ذهنية. أما الوصف المباشر فهو بالضرورة خادع لأنه ينفي، بلا حجّة مقنعة، وساطة الرؤيا.

مسرحية شيكسبير تمثيل لمسرحية سابقة يخرجها هامليث. بالزاك لا يصور أشخاصاً بورجوازيين، بل يتخيّل مواقف يسمها بالبرجوازية. لير ملك متوّج، لنتصوره تاجراً ولنتساءل ماذا يتغير في مواقفه؟ النتيجة هي **الأب غوريو**.. فن بالزاك تجريبي إلى حدّ وتمريني، وفي كل الأحوال غير تقريري.

التاريخ يتجدّد، المجتمع يتحوّل فلا مناص من أن يقلق الكاتب، أن يعكّر وعيه.

وعيه دائماً خارج وعائه وهو يجري وراءه ولا يلحقه. لو لحقه، لو عاد الوعي إلى الوعاء واستقرّ، لو أمن الكاتب واطمأن، لفارق عالم التاريخ، عالم الأحداث والإبداع، لتحوّل إلى محافظ متحف.

الشكل المطابق إذن هو الفصام الكثيب.

* * *

الرواية العصرية كلها حنين.

الرواية أم رواية الرواية؟

هناك آلاف الروايات وهناك التجربة الروائية كعملية بحث وتعميق مستمرّ.. وكلاهما يتميّز بالحنين، في عالم أقلّ أو أكثر اتساعاً، بوعي أقل أو أكثر صفاء.

ماذا نفهم من الحنين إن لم نفهم الفصام؟

نقرأ الرواية كسيرة، لماذا لا نكتبها كذلك؟ إلا إذا كان هناك قانون يقضي

بأنها إذا كتبت كسيرة لم تقرأ كذلك والعكس بالعكس.

أصل الحنين هو التعلّق بالواقع الذي بدونه لا تقوم الرواية. الحنين هو الاتصال بزمنين، أحدهما ذاتي والآخر موضوعي، عدم التفريط في أي منهما لأن منطق الرواية هو الكشف عن تلازمهما.

إذا طلّقنا الواقع، نفينا التاريخ هروباً من التغيّر، عند ذاك نودّع الرواية وندخل.. أين؟.. عالم الشعر؟

(1957. 12)

— 73 —

ـ الشعر بكاء على الأطلال؟

ـ النسيب لا الشعر كله، التمهيد لا الخلاصة. ثم إذا كان البكاء على الأطلال هو موصوف الشعر، فليس هو الهدف بالضرورة، ليس ما يتطلّع إليه الشاعر أو السامع أو القارىء. من الواضح أن زمن الشعر ليس زمن الرواية ولا زمن الأقصوصة. والفرق ليس بين ما يقوله الشاعر وما يقوله الروائي بقدر ما هو بين موقفين متبائنين إزاء حضور الإنسان في الكون. هل الموت واحد عند الشاعر وعند الروائي؟

ـ ألا يكون المرء شاعراً وروائياً في آن واحد؟

ـ هذا ما لم يبرهن عليه أحد إلى الآن. قد يحصل فيكون الاستثناء...

لم يعد لإدريس من همّ سوى البحث عن زمن الرواية، لا عن أسلوبها أو لغتها أو مضمونها، بل عمّا يسميه هو شكلها أو النغمة الملازمة لها وأسميه أنا زمنها. فيصل إلى مفهوم الحنين.

**الصومعة.. الكهف.. العائلة..** ينتقل من وطنية تقليدية هادئة إلى وطنية عصرية متشنّجة (إلى وعي مؤلم بالفراغ والقلق).. وذلك بسبب ما طرأ على ذاته من انتفاخ أثناء تجربة العزلة والانفراد التي مرّ بها في باريس. في نفس الوقت، وبكيفية استتباعية، ينتقل من العبارة المباشرة، الالتقاط العفوي لما يروج في المجتمع حول فواجع الماضي، إلى عبارة مزدوجة تساؤلية فيواجه مشكل الهيكلة. لم يعد مرآة صقيلة يعكس مباشرة ما يرى ويسمع، بل أصبح مثقلاً بالتساؤلات حول ذلك الموصوف المنعكس في ذهنه. كيف إدماج تلك التساؤلات بهذا الموصوف مع

المحافظة على شيء من الانسجام، خاصة وأن التساؤلات تتجدّد بمرّ الأيام وتتابع التجارب وضمنها التجربة التعبيرية. فيتّسع باستمرار مجال التساؤل على حساب الموصوف لكن مهما خفّ ذلك الموصوف يستثقله إدريس فيعادي النادرة ويأمل لو يتخلّص منها بأي وسيلة.

من الأمة إلى القبيلة ثم إلى الأسرة وأخيراً إلى الفرد.. هذا هو الخط الذي سار فيه، وليس التطور من نادرة إلى أخرى بل من مشكل سردي إلى آخر. نرى إدريس يبحث عن هيكل قصصي يتطابق فيه القصّ مع الانسياب الزمني، المواجهات الدرامية مع الاستمرارية واللحظة الكاشفة.

وفي هذا الاتجاه تحرّر من ثنائية التشخيص (التلميذ ووفي الدين، الفتى والإمام، الثائر الناعم والثائر الخشن). توحّدت الشخصية فتحوّل الحوار إلى مناجاة. ووصل أدريس إلى مفهوم للقصة مغاير لمفهوم الرواية. لحظة القصّة في عينه هي الشعور الثنائي بانفلات الذات وبضرورة كبحها وردّها إلى حظيرة المجتمع والتاريخ، وكل ذلك بالطبع في دائرة الذات. فينتج عن الوعي بلزوم ما لا يمكن شعور الحنين. ومن يجسد تلك اللحظة سوى فتاة؟ محجوبة في الصومعة، خجولة في الكهف، حاضرة في العائلة.. ها هي متربعة متبوّئة مقعد القاضي، تبعد هذا وتقرب ذاك، تقضي بنجاح البعض ويفشل البعض..



«وجدان

سيرة فتى يهاجر إلى باريس ويمسخ إلى خفاش لا يعيش إلا بالليل. لا يفارق المقاهي والحانات والمراقص. يلقلق ويلقلق ومن حين لآخر يبلّ حلقه بكؤوس عديدة من البيرة الدافئة. يلتقي بفتاة أسبانية، ابنة لاجيء سياسي.. مثقّفة متحرّرة نبيلة ذات همّة وعزم.

يتذكّر الأندلس.

تحدثه عن محنة أبيها ومأساة شعبها، عن القرن الضائع في حياة أمتها.

تنفي في العمق أن شعبها قد أخطأ.. ينفي في العمق مسؤولية شعبه في انهزام الجماهير الأسبانية.

حب/ محاكمة.

لا أمل في لقاء حقيقي. . هدنة موقتة في ضباب الغرب وظل المنفى.

تحاور كما ترقص. . بعنف.

يسافران إلى زريخ. تجد شغلاً في مرقص. يتعرّفان على نظافة الأجسام وانتظام السلوك، على النعيم واليأس، على النشاط والقنوط. .

يتعرّفان على لاجىء من هنغاريا، وجدان متأجج وكلام متّزن أنيق. يعيش ويلتذّ بكل دقيقة تتفضّل بها عليه الأيام، يتوقّع في كل لحظة أن تقوم الساعة. يتكلّم بإسهاب على المنتهي واللاّمنتهي، المحدود واللاّمحدود، الوفاء والعقوق، دستويفسكي ومفهوم الليم.

يعودان إلى باريس. . الفتاة تغنّي وترقص والفتى ينتظرها طول الليل في مقهى الأوديون. يفارقها. . يذهب إلى أسبانيا. . يكاتبها عن الواقع المخالف لما تتصوّر وتتوقّع. يقرّر العودة إلى وطنه.

يعيش مدّة في العاصمة. . يلاحظ ما يقع وما لا يقع. . ينسى الفتاة الأسبانية.

يطلب وظيفاً بسيطاً في منطقة جبلية مدعياً أنه ينوي دراسة حياة السكان.

يفكّر في عواقب التاريخ. . يشعر أنه حرّ. . يناجي نفسه بحنان.

(1959)

* * *

نفس الفتى، تخيّلته في أوساط وظروف مختلفة. يحاكمه التاريخ ويحكم عليه سلباً. خلق ليقوم بمهّمات، لكن وعيه الحادّ بكل شيء وفي كل لحظة منعه من استغلال مواهبه. . كما لو كان بينه والحياة حاجز لا سبيل إلى تجاوزه. ينتظر الظروف، يتهيّأ لها طويلاً وعندما تبدو مواتية، يشعر فجأة أنه شاخ وعاد عاجزاً عن المشاركة في توجيه الأحداث. يرى كيف يتصرّف غيره ويتساءل: لماذا هؤلاء؟

يتأسّى ببعض المبرّرات: كان الخصم ليّناً، غير واثق بنفسه، غير مجبور على الذهاب بالصراع إلى أقصاه، غير حرّ في اتّخاذ القرارات الضرورية في حينها، كان من السهل نسبياً الإحراز على ورقة التأهيل للمشاركة في إخراج المسرحية. أما الآن فقد كثر الضغط على العرض وقويت المنافسة. كم من شخص عاصر النبي

صدفة.. كم من ولي صالح كان يستحقّ أن يصاحبه، من لا يرى منا عمر بن عبد العزيز عوض أبي سفيان؟

ولكنه الدهر.

عصر الانتفاء: الإبداع في باريس، الحلم في القاهرة، التغيير في الوطن. كل شيء إلى تراخ.. العتيق ينحلّ ببطء والجديد لا يتماسك بسرعة. أما الواقع القائم فهو أن يضرب الطالب عن الدرس ويقول: الثقافة لمن ولم؟ مواجهة عنيفة بين من لم يثقّف عندما كانت الثقافة حلماً غالياً ومن يرفض الثقافة لأنها تفرّق وتقلق. من المسؤول عن العنف والضياع والخيبة، عن الردّة إلى عهود الجاهلية؟

يكلّم الفتى زوجته كما لو كان رجلاً آخر.. غير أنه هو هو.. حالم متألم.»

(1965)

— 75 —

ـ ألم يثر فتى العائلة ضدّ أبيه، محمّلاً إياه مسؤولية نزوحه عن محيطه؟ ألم يصح: انظر إلى ما فعلوا بي؟ من هؤلاء سوى المعلّمين؟

ـ المعلّمون الأجانب الذين قطعوا كل الأوصال بينه وذويه، الذين جعلوا منه فرداً واعياً معتزّاً بفردانيته. كتب إدريس ذلك والثلج يتساقط على شوارع باريس. أما القطعة التي نحن بصددها فانه كتبها في المغرب، بعد سنوات، عندما أظلم الجو في عينيه وكثرت حوله الأشباح التي كانت تكلّمه كلّها بنفس اللغة، لغة غراب البين.

في القطعة السابقة يجري الكلام على اخفاق عام، اخفاق الماضي والتاريخ والأجداد. يحاول إدريس من خلال الفتى، أن يسير أسبابه ويتخيّل سبل استدراكه. أما الآن، وبالضبط انطلاقاً من وجدان، فإن الفتى يواجه اخفاقه هو بما فيه عدم إدراك أسباب الاخفاق الجماعي لم يبق الاخفاق موضوعاً من الموضوعات بل صار حقيقة العملية التعبيرية ذاتها. لا يمكن أن ينجح التعبير لأنه في أصله وجوهره مبني على فشل سابق. لا يفارق الفتى الاخفاق ما فارق هو الجماعة ومفارقته لها حتمية بسبب الثقافة نفسها. بقدر ما يسبر نفسه، بحثاً عن الشكل التعبيري الملائم، بقدر ما يعمّق الهوة بينه ومجتمعه وبالتالي يعزز أسباب الاخفاق.

يعرف الآن إدريس الشكل الذي يتطلّع إليه. ومن هنا الاختزال المتزايد في الأشخاص والمواقف والهيكلة والقصّ والأسلوب. لكن يبدو أنه، في نفس الوقت،

كان يعلم أن عملية الاختصار والتبسيط، جريا وراء نغمة الحنين، لا يمكن أن تنتهي وأنه سيفضل دائماً فائض في المادّة الموصوفة، لأن إدريس لم يقبل أن يصدّ عن التجربة التي يعيشها يومياً بذهنه وجسمه، لم يقبل أن يطلّق نهائياً العالم. ينعزل الفتى في وجدان ولكنه لا يقول صراحة: كفى.. كفى.. علي بنفسي، انه يذهب إلى الجبال ليدرس عادات السكان. هذا التجاذب بين النغمة التي يصبو إليها إدريس وما تتطلّبه من اعتزال، هو الذي ينمّي في ذهنه الوعي بحتمية الفشل. فينفتح فكره من جديد لدرس هرمان هسّه. لا أجد دليلاً على أنه عاد إلى مطالعته ولكن أظن أن الإشارة إلى مدينة زريخ لها دلالتها. / 128.

أصبح إدريس يلتذ بفكرة، بكلمة، بشعور الاخفاق. جعل من الاخفاق قيمة أخلاقية يتعوّذ بها من رتابة الحياة اليومية.

ومرّة أخرى يواكب الشعور بالاخفاق التطرّف في الأفكار. يتكلّم عن جاهلية جديدة، بل عن قدرية جديدة.. يذهب بالنتائج إلى أبعد الحدود.

- كما فعل من قبل، لإجبار الغير على مكالمته؟

- إن بقي له أمل في التفاهم بين البشر. وهذا افتراض غير مستبعد لأن إدريس يفرغ في قلب الفتى اليأس الذي لا يتقمّصه هو في حياته اليومية. ومن هنا تظهر ازدواجية أخرى. بعد التوحيد الحاصل في شخصية الفتى لم يعد ذا وجهين ظاهرين، بل أصبح ذا وجه اجتماعي وآخر جوّاني.. إزدواجية ذاتية، بين الرجل الذي يلعب دوراً، ربما ناجحاً في المجتمع، والذات الخفية التي تجترّ باستمرار أحلام وتطلّعات الشباب، غير المنجزة..

— 76 —

«المحاضرة

لم يدر كيف حصل المنظّمون على عنوانه.

تلقّى دعوة شخصية للمشاركة في ندوة مخصّصة لتجديد دراسة تاريخ إفريقيا نظّمتها إحدى جامعات ألمانيا الغربية رأى فيها فرصة ثمينة للتعرف على ذلك البلد الذي شغل الدنيا منذ قرون.

وصل إلى مطار أورلي في يوم من أجمل أيام الربيع. لقي في استقباله فتاة لم يكن يعرفها. تقدّمت نحوه، نطقت باسمه وقالت:

ـ عندنا وقت قبل إقلاع طائرة فرانكفورت. نطلع إلى مطعم الطابق الثالث، هذه ساعة يكون فيها فارغاً.

سألها:

ـ ماذا تفعلين في باريس؟

ـ أشتغل في متجر.

ـ وقبل ذلك؟

ـ كنت أدرس القانون التجاري.

كان المطعم فارغاً بالفعل. جالساً إلى مائدة قريبة من النافذة الواسعة المطلّة على المدرج الناصع المتلألىء. قال:

ـ يوم جميل.

ـ نعم جميل. والجو في المغرب؟

ـ جميل أيضاً. أجمل مما يحبّ الناس. السنة ناقصة.

ـ المقبلة ستكون وافرة.

ـ من أطلعك على الغيب؟

ـ حبّ البلد.

تناولا طعام الغداء وكان لذيذاً. تذوّقه الفتى لأنه لم يمسّ ما قدم إليه في الطائرة. قبل أن يتفارقا قالت مبتسمة:

ـ فرانكفورت مدينة جميلة، عصرية. كأنها خرجت من ذهن أحد مخططي شيكاغو. مدينة غنية نشيطة، ببنوكها وصحفها هي في الواقع عاصمة ألمانيا. لا تنسَ أن تزور دار غوتة. سيقترح عليكم زيارتها منظّمو الندوة، وإذا لم يفعلوا فبادر أنت وأطلب أن تزورها يوم الثلاثاء ساعة قبل الإغلاق. وقت كاف لمشاهدة ما فيها. ليست كبيرة، ليست دار تاجر أو وزير. . دار عادية تماماً، زرها، زيارتها مفيدة، ضرورية.

وصل صاحبنا إلى فرانكفورت بعد ساعة من الطيران في جو صحو. جلس جنب النافذة ونظر إلى الأرض تتموّج من تحته كبساط ملوّن. كل الحقول أسمطة من قياس واحد تفصل بينها أسيجة مورقة. تذكّر أنه كان جالساً في نفس المقعد وكان يحلّق فوق نفس المنطقة إذ قال له رفيقه: «بهذا المنظر تعرف الحق والواقع. . التقدّم قرون من العمل الدؤوب. . زراعة هندسية. . الحرف هندسة والحقل هندسة والميدان هندسة. . كل شيء عندنا نحن دائر حلزوني لا أول له ولا آخر.» مزج الحق

بالباطل. هذه أرض بقيت على حالها منذ نهاية العصر الجليدي، لم تستغلّ إلا في القرون الأخيرة بعد أن عرف الإنسان كيف يعيد إليها جزءاً مما يستخرجه منها.

بدا له المطار صغيراً بسبب تنظيمه المحكم، لا مدافعة فيه ولا ازدحام، كل واحد يعرف طريقه، لا يحيد ولا يتيه. عندما اجتاز حاجز الشرطة رأى شابّاً يحمل لافتة كتب عليها باللغتين، الانجليزية والفرنسية: مؤتمر التاريخ الإفريقي. رحّب به قائلاً:

ـ اسمي هانز شميث. سننتظر قليلاً زميلاً لك يأتي من زريخ.

ـ ما اسمه؟

ـ ء بد رخمن ء و د ه. هل تعرفة؟

ـ لا. هذه مناسبة أتعرّف عليه وعلى غيره من الزملاء.

قال الشاب بعد سكوت دام بضع دقائق:

ـ لن نجتمع في فرانكفورت. سنقضي الليلة في فندق صغير قريب من محطّة القطار وغداً على الساعة السابعة سنسافر جميعاً نحو مقر الاجتماع.

كان الفندق هادئاً أنيقاً والغرفة، رغم صغرها، كانت مجهّزة أحسن تجهيز، بالحمّام والتليفون والمذياع. فتح حقيبته وأخرج منها مجموعة أقاصيص هيمنغواي وانغمس في المرأة والقطة إلى أن حان وقت العشاء. وجد في صالة الانتظار هانز والزميل المصري. قال:

ـ عودة اسم شائع في مصر مش كدا؟

ـ ايواه.. شائع.

ـ بينك وبين عبد القادر عودة قرابة؟

ـ إزاي.. مش أخوي؟

نظر إليه صاحبنا ولم يعقّب. قال هانز:

ـ اقترح أن نتعشّى في مطعم ذي طابع محلّي. والأحسن أن نذهب إليه على الأقدام لكي تشاهدوا بعض شوارع المدينة.

استأنف هانز والدكتور عودة نقاشاً كانا قد شرعا فيه منذ دقائق:

ـ أولبريخت/ 129 من هو؟ موظف تحت إمرة نظّار روس.. الحالة هناك مثل الحالة التي عرفتموها تحت حكم الإنجليز. كيف تعترفون بحكومة غير شرعية، غير موجودة لا من الناحية القانونية ولا من الناحية الفعلية؟. تفاوضون شبحاً لا أقل ولا أكثر.

ـ نحن لا نعرف إلا الشعب الألماني الموحّد. الوحدة الألمانية، مثل الوحدة الايطالية، مثال عزيز علينا، نتدارسه باستمرار. نتألّم لما حصل في ألمانيا بعد الحرب. أما الحكومة فهي اليوم خاضعة لإرادة الغالب في القسمين معاً. نتمنّى أن تتحرّر ألمانيا وأن تتوحّد، حينذاك نعترف بحكومة وطنية ألمانية لا هي شرقية ولا غربية. من يدري؟ قد تتزّعم حركة الحياد وتكون ركيزة السلم في العالم. قد نسمع من جديد صوت كانط. .

ـ نحن في مدينة غوتة. .

ـ صوت غوتة. . كلاهما واحد.

كان هانز يتكلّم انجليزية فصيحة أنيقة ويحاور بجدّ ودقّة. لكن عندما طرح موضوع الوحدة بدا عليه نوع من الارتباك كما لو كان عقله يغرّب وقلبه يشرّق.

في الغد تواجد في القطار زملاء كثيرون يرافقهم شبّان وشابّة في سنّ هانز. متى وصلوا وأين نزلوا؟ جلس صاحبنا جنب الدكتور عودة يطالع جريدة الأهرام. بعد رحلة دامت أقلّ من ثلاثين دقيقة توقّف القطار. نزل الجميع ووجدوا في انتظارهم حافلة نقلتهم إلى فندق كبير منعزل محاط بأشجار باسقة تظلّل ممرّات متقاطعة كثيرة. لم يكن يطلّ على بحيرة أو نهر، لم يكن يحاذي غابة أو أجمة، شيّد فقط ليكون بعيداً عن المدينة. . ليستجمّ فيه موظّفون متقاعدون؟ لتنظّم فيه سهراتها جمعيات نقابية أو مهنية؟

وقف وسط البهو الدكتور آنزبرينجر، أستاذ التاريخ الأفريقي في جامعة برلين الحرّة ومنظّم الندوة. لا يزال في أوائل الأربعين، شعره أسود كله، ذقنه محلوقة، يلبس بذلة صيفية فاتحة بلا كرافات، يبتسم ابتسامة عريضة، يرحّب بالمشاركين ترحيباً حارّاً، يضغط على أيديهم بقوة كأنه لا يستطيع أن يكبح ما فيه من فائض حيوي، يتمنّى للجميع مقاماً مريحاً، ينبّهم أن الاجتماع سيكون بلا بروتوكول، بين زملاء أصدقاء جاءوا ليقضوا عطلة جماعية.

وزّعت الغرف. أخذ كلّ واحد مفتاحه وحقيبته وقصد الغرفة التي عيّنت له. على الساعة الحادية عشرة جلس المتناظرون حول طاولة مستطيلة. قام الدكتور آنزبرينجر وقال:

ـ نرحّب بكم في هذا الدغل من الأرض الألمانية. قد تتساءلون: لماذا لم نجتمع في مدينة كبيرة، فرانكفورت مثلاً. لا بدّ أن أصرّح أن ما ترون هو أقصى ما تمكّنا، بعد جهد دام شهوراً و شهوراً، أن ننتزعه من الحكومة الاتحادية والحكومات المحلّية. إن زعماءنا لا يرون فائدة ملموسة في اجتماع كهذا. لو كنتم، أيها السادة الكرام، تمثّلون حكوماتكم أو دوراً تجارية أو صناعات أو مقاولات، لتسابقت الحكومات المحلية لاستضافتكم في فنادق فخمة في دسلدورف أو هامبورغ أو مونيخ. ولكنكم مجرّد علماء تنبشون عن حقائق الماضي، وهذه كما تعلمون، لا ترفع من مؤشرات الاقتصاد أو التجارة الخارجية. ولكن بما أنكم رجال فكر وتأمّل فانكم تفضّلون الهدوء والراحة. جئنا بكم لهذا الموضع المنزوي لتجدوا ضالّتكم. أتمنّى أن تقضوا بيننا أياماً هادئة مريحة وأرحّب ترحيباً خاصّاً بزملائنا الأفارقة الذين أتوا من بعيد وواجهوا صعوبات كثيرة قبل أن يستطيعوا تلبية دعوتنا. أخصّ بالذكر الأستاذ أجايي والأستاذ بواهن والدكتور عودة.. أعبّر لهم مجدّداً عن فرحتي وأنا أراهم قد تغلّبوا على كل الحواجز ليلتحقوا بنا..

أدار صاحبنا نظره على الأساتذة الجالسين أمامه: برانشفيغ الباحث الفرنسي المخضرم ذي الوجه المنجور من خشب خشن والذي سيتكلّم عن الصراع بين فرنسا وايطاليا حول مرفأ أوبوك/ 130. بجانبه فون ألبرتيني الأرستقراطي الهيئة والسلوك والذي كتب عن الاستعمار وأسباب انهياره. بجانبه مشارك مجهول عليه سمة الموظفين ثم فتاة نحيفة سوداء الشعر زرقاء العينين، تشبه في نحافتها وهندامها فيرة. جلس بجانبها هانز والفتيان اللذان جاءا في القطار واللذان يقومان بلا شكّ مثله بإرشاد الحاضرين إلى طريق الصواب فيما يخصّ حاضر ومستقبل ألمانيا. من يقابل المنصّة؟ الأستاذان اللذان توجّه إليهما بالخطاب آنزبرينجر، آجاي النايجري وبواهن الغاني وبجانبهما الدكتور عودة بنظّارتيه السميكتين ورقبته الناتئة وأنفه المنتفخ ولونه الآجري. جلس إلى يسار المنصّة باحث بريطاني الجنسية تدلّ سمات وجهه على أن نقطة من دم المغول والتتر تجري في عروقه، سيفسّر للمتناظرين تطوّر سيرا ليون تحت الحكم البريطاني. بجانبه أستاذ أمريكي متخصّص في شؤون زامبيا، لا شيء في قسماته يشي بأنه من أقرباء جفرسن أو مادسن.

انتهت خطبة الترحيب. بعد تناول طعام الغداء سيفتح سلسلة المحاضرات الأستاذ أجابي بكلمة حول دور الحركة التبشيرية البروتستانية في تقدّم التربية شرق

نايجيريا من سنة 1890 إلى 1939 ويتلوه الأستاذ رانجر الذي سيتناول موضوع انتقال الحكم من الألمان إلى الإنجليز في طانكانيكا.

قالت فيرا:

جئنا من جامعات بعيدة، أدّينا رسوماً عالية.. ماذا سنستفيد من كلّ هذه الجزئيات؟ عقب هانز:

ـ هذا هو مرض المتخصّصين، لا يرتاحون إلا إذا تكلّموا في الجزئيات.

قال صاحبنا:

ـ لن أتعرض لأية جزئية.

فلاحظت فيرا:

ـ توسّمت فيك ذلك.

اقترب صاحبنا من برانشفيج فسمعه يسرّ لفون ألبيرتيني:

ـ أنا مضطرّ إلى العودة إلى باريس غداً في المساء. سأغادر الاجتماع بعد الحادية عشرة، تعرف لأي سبب؟ لأشتري لابنتي مصّاصة. لا أستطيع دخول البيت إذا لم أكن أحمل معي مصّاصة. أصبحت متخصّصة، تعرف الفرق بين الايطالية واليونانية والبلجيكية، بل انها تميّز بين مصّاصات المناطق المختلفة في البلد الواحد.

على الساعة الخامسة ونصف أعطيت الكلمة للدكتور عودة، أخرج أوراقه وراح يقرأها بصوت مرتفع كما لو كان يخطب أمام جمهور غفير في مهرجان سياسي. يقرأ ثلاث أو أربع جمل ثم يتوقف ويقول (ناو)، على طريقة المصريين وهي طريقة تميّزهم عندما ينطقون بالإنجليزية كما يميّزهم نطقهم بالجيم في العربية، يقرأ من جديد ثلاث أو أربع جمل ويتوقف ويقول (ناو). هل هذا من آثار تجويد القرآن؟ هل بدأ دراسته في الأزهر؟ غير مستبعد في أسرة مثل أسرته. هل يستطيع أن يتوقّف نهائياً إذا تجاوز الوقت المحدّد. لو كان الرئيس ألمانيا لترك له حرية الكلام ولكن برانشفيغ سيوقفه حتماً وبخشونة. وإذا وقّف هل يستطيع أن يستعيد نفسه وأن يلخّص ما فضل من مقالته في جملتين أو ثلاث؟ ماذا يقول عن تطور مصر بعد حملة بونابرت؟ يتعرّض لمسألة جوهرية ويجعل منها قضية في مرتبة قضية أوبوك. لمن يكون المرفأ؟ لإيطاليا أم لفرنسا؟ لمن تكون مصر؟ لفرنسا أم لإنجلترا؟ لو كان المحاضر ايطاليا (روسي؟ ريزيطانو؟ روبانيتشي؟) 131 هل كان يقول عن مصر غير ما يقوله هذا الأستاذ المصري

عن وطنه؟ من يتصوّر أن أخاه قد شنق دفاعاً عن الهوية الإسلامية؟ الهوية؟ الخصوصية؟ الأصالة؟ أي شيء من هذا في كلام الدكتور؟ لا جديد! طبعاً لا جديد، من أين يأتي الجديد؟ آه لو يتساءل! لو يبدي بعض الملاحظات! لو يعلق! كأجداده عندما كانوا يكتبون الحواشي على الحواشي. على أي حال توقف في الوقت المناسب. كان يصيح ويرتّل ليبقى في نطاق الوقت المخوّل له. رفع رأسه وبلع ريقه. بدت عيناه من وراء النظارة كعيني الوالروس. ماذا تقول الأغنية؟/ 132.

جلست فيرا جنب هانز مقابل الدكتور عودة. تتكلّم عن جامعتها في مونستير. ليست من التخوم الفرنسية الألمانية ومع ذلك تتكلّم الفرنسية بطلاقة. من أين لها ذلك؟ عاد هانز إلى موضوع ألمانيا الشرقية، موجّهاً الخطاب إلى الزميل المصري:

ـ قلت البارحة ان الحكومة في كلتا الألمانيتين خاضعة لأوامر الأجنبي. لكن أمريكا لا تتدخّل عندنا في كل كبيرة وصغيرة. نحن أحرار في سياستنا التجارية والتعلمية، في إنتاجنا الفنّي والأدبي، أستطيع أن أنتقد تصرفات الحكومة الأمريكية، وأحرى الألمانية، بالقدر الذي ينتقد به المواطن الأمريكي حكومته. وهذا بالضبط ما لا يستطيع أن يفعله سكان ألمانيا الشرقية، من يجرؤ هناك على ابداء أي نوع من التحفظ إزاء الماركسية أو شخصية لينين أو الواقعية الاشتراكية؟ تقول: يجب أن تتفاوض الحكومتان في شأن التوحيد، ولكن مع من نتفاوض؟ مع موظفين لا يملكون من أمرهم شيئاً. الأفضل التفاوض مع أصحاب السلطة الفعلية. ولكن هؤلاء.. تدخل صاحبنا لأول مرّة في هذا النقاش:

ـ اسمع يا هانز، تتكلّم كما تفعل لأنك أمريكي بالقوة ان لم تكن بالفعل. قد يكون لك عمّ أو خال يسكن منطقة ملووكي. وإذا لم يكن هذا صحيحاً يمكن لك أن تعود إلى دليل أي مدينة في ولاية وسكانسن فستجد لا محالة عشرات الأشخاص يحملون اسم عائلتك. أنت في نطاق النفوذ الأمريكي. بأمثالك نشأت وكبرت أمريكا وتعيش الآن أنت وأمثالك تحت حمايتها. لكن ما القول في الآخرين الذين لا يرتبطون بأية علاقة بأمريكا وهم أغلبية سكان العالم. هم الذين ينادون اليوم بالحياد، ماذا تعنيهم الحرية الأمريكية؟ انها أسطورة بالنسبة لهم، لا أعني أنها خرافة، أكذوبة أعني أنها حلم بعيد. عملياً لا يمكن لتلك الحرية أن تنتقل إليهم ولا يمكن أن يرحلوا إليها. يهمّ سكان المعمور أن تكون حرية في أمريكا ولكن نظرياً فقط. كما يهمّهم أن يكون

ربّ أعلى يضمن للجميع في عالم آخر العدل والإنصاف والمساواة والخبز المجّاني الذي وعد به خروتشوف أيضاً أسطورة. يهمّ سكّان العالم أن تكون منطقة على وجه الأرض يوزّع فيها الخبز مجّاناً. .

ـ هذه هي الخرافة الحقيقية. جميع الاقتصاديين متّفقون على أن هذا أمر مستبعد إذا لم ترد روسيا أن تتخلّف أكثر وأكثر عن الدول الأوروبية المصنّعة. يمكن لأي دولة مهما كانت فقيرة أن توزع على النساء ما لديها من رصيد ذهبي. أمر ممكن. لكنه حماقة. .

ـ نفرض أنه ممكن اقتصادياً في الاتحاد السوفياتي. نفرض أن البلد وصل من الرفاهية إلى حدّ يستطيع معه أن يتبرّع على السكان بالخبز لأن ذلك لا يضرّ مستوى الادّخار والاستثمار والإنتاجية. حتى في هذه الحال سيسعد السوفياتيون بخبزهم المجّاني. سيقول غيرهم. هذا إذن شيء ممكن، ولكن لن يتبرّع السوفياتيون بالخبز على غيرهم كما لا يتبرّع الأمريكيون على غيرهم بالحرية. لذا أتكلّم في الحالتين معاً على أسطورة. .

ـ إلا إذا ضمّت روسيا إليها كل بلاد الأرض وهذا ما تعمل له. . أمريكا على الأقلّ تقف عند حدود قارتها. .

ـ هذه هي النتيجة التي كنت أودّ أن أصل إليها. في كلتا الحالتين الأسطورة منافية للتوسّع. نفرض أن المكسيك دخل بكامله إلى الاتحاد الأمريكي، نفرض أن تركيا وإيران انضمتا أو ضمّتا إلى الاتحاد السوفياتي، ماذا ستكون النتيجة المحتملة؟ ثورة. لكن من سيثور؟ الضّام أم المضموم؟ الشعب المستعبد أم الشعب المستعبد؟

قاطعت فيرا:

ـ ونصل إلى موضوع المناظرة.

ـ الموضوع الذي لم يدرج في البرنامج، الذي يجهد كل المشاركين ليتجنّبوه. من يحدّ الاستعمار؟ المغلوب أم الغالب؟ الضحيّة أم الجلّاد؟ يقول بعض الباحثين ان الرّق لم يلغ إلا بعد ما شعر الأسياد أنهم ينفقون على العبيد أكثر مما يستفيدون منهم. لماذا لا نطبّق نفس المنطق على الاستعمار؟

ـ والواجب التمديني؟

ـ لو عرف ثمنه كيبلينج/ 133 لما نادى به. ان الأمبراطوريات تتحطّم على صلب الأرقام.

ـ علّق الدكتور عودة:

ـ حقيقة قال بها طوينبي. / 134

ـ وتذوقون مرارتها اليوم في جبال اليمن.

سألت فيرا:

ـ ما الفائدة إذن من الاجتماع إذا لم يتعرض أحد لجوهر الموضوع؟

ـ التعارف والتواصل بين الباحثين.

وأطنب السيد الدكتور ملحّا على أن مصر جزء لا يتجزّأ من القارة الإفريقية، بل انها أول وأكبر بلدان القارة، انها الباب، جغرافيا وتاريخياً، الذي لا يمكن أن يتجاوزه أي واحد يريد أن يعمل في الحقل الإفريقي.. قال ذلك وهو يحدّق من وراء نظّارتيه السميكتين في صاحبنا كما لو كان يريد أن يقنعه بشيء ينكره أو يتشكّك فيه.

قالت فيرا بالفرنسية:

ـ أفهم تحفظ مسؤولينا. لو استمع موظف محايد لمحاضرات اليوم لرفع حتماً تقريراً ضد المساعدة إلى إفريقيا..

ـ إن ألمانيا تريد أن تستردّ بعض الاعتبار بين الشعوب. فتقلّد، في حدود ما تسمح به وضعيتها، إنجلترا وفرنسا. يكفيها، إلى حد الساعة على الأقل، أن تساعد الباحثين الأفارقة على مغادرة بلدانهم ولو لبضعة أيّام، وعلى التعارف فيما بينهم. هذه ديبلوماسية مؤقّتة.

قامت فيرا معتذرة:

ـ ورائي يوم مليىء بالأشغال. لن أبقى إلى نهاية المناظرة ولكني سأستمع إلى مداخلات الصباح.

ابتعدت. لم تكن تشبه فيرا في قدّها واعتدالها ومشيتها. كانت أقرب إلى الفرنسيات. لعلها ابنة أحد المساجين أثناء الحرب، أو سليلة أحد المهاجرين البروتستان؟

قام صاحبنا واعتذر، تاركاً هانز والدكتور عودة يجولان في ميادين السياسة الدولية. طلع إلى غرفته وقبل أن يلبس البيجامة ويتهيّأ للنوم ألقى نظرة على الكلمة التي كان ينوي إلقاءها. لم تكن بالفعل ذات علاقة واضحة بما قيل داخل المناظرة.

كيف سيكون ردّ الزملاء؟ أثناء الاستراحة قال لبرانشفيج انه معجب بكتاب فرجسون عن **نشأة مفهوم النهضة**/ 135 فلاذ الباحث الفرنسي بالسكوت. هل كان يعرف الكتاب ولا يحبّ منحاه أم كان يجهله وفضّل أن يتجنّب مناقشته؟ بدأ حياته العلمية ببحث حول الرومانسية الألمانية. ربّما تذكّر أيام شبابه وآماله الضائعة، قبل أن تنشب الحرب، قبل أن يهزمه التنافس على الكراسي الجامعية؟ لا سبيل إلى تغيير ما جاء في الورقة الموزعة على المشاركين، كل ما يمكن هو تلخيصها والتخلّص منها إلى كلمة مرتجلة حول تاريخ إفريقيا.

«أيها السادة الكرام أودّ أن أوضّح نقطة في البداية وهي أني لم أتوصّل في الوقت المناسب بالوثائق المتعلّقة بالمناظرة. استدعيت في آخر لحظة فقرّرت وأنا في حالة استعجال أن أحدّثكم عن مسألة فكّرت فيها كثيراً لأنها تهمّني شخصياً. لكن بعد أن وصلت إلى هنا وسمعت عروض الزملاء الأجلّاء فهمت أن الكلمة ، التي كنت أنوي إلقاءها والتي وزعت عليكم مختصرة، قد لا تهمّكم مثل ما تهمّني. الغرض من اجتماعنا، كما اتضح لي، هو التباحث في وسائل تجديد دراسة ماضي إفريقيا بعد أن تحرّرت من أغلال الاستعمار. استمعنا إلى ملاحظات جدّ مفيدة حول مسألة المستندات والوثائق، حول كيفية التنقيب عنها وجمعها والمحافظة عليها، وأتحفنا بالمناسبة بنوادر وطرائف شيّقة.

أرجو أن لا يؤاخذني أحد إذا لاحظت أن تلك النوادر والطرائف قدّمت لنا كلها في إطار معيّن يبدو أنه مقبول لدى الجميع. فاستسمح الزملاء أن أبدي بعض التحفظ إزاء هذا الإطار العام وأن أناقش مطلق صلاحيته. كل منّا يعيش في أفق محدود، فيتكلّم، أحبّ أم كره، عن قسم فقط من إفريقيا.. والمنطقة التي انتمى إليها لا تشكو من خصاص في الوثائق، على الأقل في الوقت الحاضر. ان المشكل العويص الذي يعترضنا هو كيفية قراءة ما بين أيدينا من تلك الوثائق. لقد قرئت من قبل واستغلّت لأغراض أضرّت بنا كثيراً. نعرف كلنا النتائج المترتّبة عن القراءات المغرضة، ومع ذلك لا نريد أن نرفضها بدون سابق فحص موضوعي يوافقنا عليه غيرنا. لا نرغب في أن يظنّ غيرنا أننا نرفض دراسات سابقة لمجرّد دوافع ذاتية، أو أننا نهاب البحث الشاق عن الوقائع ونلجأ إلى سماء الميتافيزيقا. اننا نحبّ أن نكشف عن المنطق المتحكّم في أذهان المخبرين والكتاب، عن القانون الذي يقضي ببقاء بعض المخلّفات واندثار البعض الآخر..»

رفع رأسه فرأى برانشفيج يبتسم، رانجر يتردّد بين الانكار والتعجّب، الدكتور عودة يحمرّ ويسودّ، فيرا تتمايل مشجّعة..

«اعترف أن هذه النقطة ذاتها لا تفهم إلا في إطارها. وإطارها خاص بنا أبناء المنطقة التي أمثّلها هنا. فلا يليق أن أطيل الكلام حولها، إذ المطلوب منا أن نوسّع اهتمامنا إلى مسائل عموم القارة. فاكتفي بهذه الإيماءة وأطلب منكم أيها الزملاء أن تسمحوا لي بارتجال كلمة قصيرة حول الموضوع الذي قرّرتم التباحث فيه.

نتكلّم جميعاً عن تاريخ إفريقيا وبكلمة واحدة نطمس جميع المميزات والخصائص. إفريقيا قبل ظهور الإنسان وبعده.. قبل الإسلام وبعده.. قبل الاستعمار وبعده.. كل ذلك تاريخ. لم يعد لأي حدث وزن خاص. نتكلّم عن التجهيز والتعمير، عن التبشير والتعليم.. لكل حادث مساوىء ومحاسن ونميل في نهاية تحليلاتنا الطويلة الدقيقة أن نرجّح هذه على تلك لأنّنا نؤمن أن إرادة عليا تسيّر الجميع إلى وضعية أفضل، إلى عالم الحرية، وتجبر الأشرار أنفسهم على إنجاز الخير رغماً عنهم. قال بعض الظرفاء: كان الأفارقة يملكون الأرض ولا يعرفون الإنجيل ثم جاء المبشرون فعلمّوهم الإنجيل وأخذوا منهم الأرض. واليوم يقال لنا: نعم ولكن مع التبشير جاء التعليم وبه استعادت إفريقيا روحها.

بيد أن السؤال الخاص بالاستعمار في إفريقيا هو: ماذا فعل؟ ماذا أراد، ماذا استطاع أن يفعل؟ هل فجّر حقّاً المجتمع الإفريقي؟ هل قضى حقاً على النظام السابق على مجيئه؟ أليس الأقرب إلى الواقع أنه حافظ على ما وجد، وجعل منه أحد عناصره بل أقوى أعمدته؟

ماذا يحصل عملياً على ساحة الاستعمار؟

يصل قائد الجيش. يخطّط للحملة العسكرية، يقودها ويخرج منها منتصراً. يستسلم بين يديه رؤساء المقاومة الأهلية. لمدّة قصيرة يستطيع القائد الفاتح أن يفعل ما يشاء، أن يهدم ويشيّد، أنْ ينتقم ويعفو، أن يقدّم ويؤخّر. لكن هل يبدي بالفعل العزم المطلوب؟ هل يتصرّف كإمبراطور؟ يتخيّل نفسه شاعراً مؤرخاً. يقرأ حياة اسكندر وقيصر ونابليون، يحلو له أن يبدو موزّع الضمير، ساخطاً على نفسه ومجتمعه وزمنه، قلقاً كفاتح السند عندما كتب: «أذنبت» /136. قبل أن يستقرّ في البلد مع زوجته وأولاده يتحاشى كل مسؤولية لأنه لا يريد أي شيء محدد. ينتظر الأوامر من

الحكومة أو البرلمان أو أرباب الصحف وحتى عندما يعبّر في مراسلاته الخاصّة عن احتقاره لهؤلاء المسؤولين فانه يلحّ على أن يتوصّل بأوامرهم مكتوبة ولا يتأخر في تنفيذها. يتظاهر بحبّ الأهالي، باحترام تقاليدهم، بالاعجاب بشجاعة من حاربوه واستسلموا بين يديه. يعلي من قدرهم ويصفهم بأوصاف أبطال هوميروس. وإذا فكّر في المستقبل فكّر في السيرة التي سيكتبها هو أو تستكتبها عائلته.

نقول ان الاستعمار قطع جذورنا، لكن من منا يعرف حقّاً تلك الجذور؟ من يستطيع أن يقول مطمئنّاً: هذا جذر وهذا فرع، هذا أصل وهذا فصل؟ الجذور بالتعريف ضاربة في أعماق اللاّوعي، لكي نتّفق على ماهيتها يجب أن نلمسها، أي أن تظهر للنور، ومن يضمن أن النور لا يفتّتها كتلك الصور الجدرانية التي بقيت في ظلام كهف مئات السنين ثم ذابت في الهواء عندما اكتشفت ورأت النور؟

ما هو إذن وزر الرجل الأبيض؟ هل وزره أنه اجتثّ تلك الجذور وقطع أوصال الشعوب المستعمرة وبذلك يكون قد أتى شيئاً بدعا؟ هذا ما نسمع عادة، ولكن من الواضح أن توسع أوروبا الغربية في العهد الإمبريالي ليس سوى امتداد لحركات توسعية سابقة، قامت بها شعوب غير أوروبية ومهّدت السبيل للتوسع الغربي. لم يكن الانجليز أول من أدخل إلى الهند التمييز بين الأحمر والأسود، وليس من محض الصدفة أن يكتشف الباحثون وحدة اللغات الآرية أيام الحكم البريطاني. في كل بقع الدنيا تصرّف المستعمر الأوروبي كوارث لمستعمر سابق والسرّ في ذلك أنه رفض أن ينغمس في مستعمرته. أراد أن يكون طبقة جديدة فوق، ولكن مثل، الطبقات الأخرى، طبقة تضغط على تلك التي تليها ولكن دون أن تسحقها أو تقلب ترتيبها.

صحيح أنه يوجد توسّع أوروبي من نوع آخر، يرى البعض أنه نجح حيث أخفق الغربي. يدّعي أن سبب نجاحه أنه دحض نفسه، تنكّر لأهدافه الأولى، أنه محا الفرق بين الغالب والمغلوب، بين الوافد والأصلي، أنه أقدم على ما لم يقدم عليه أي توسع قبله بقطع كل علاقة بالماضي، ماضي الفاتحين وماضي المهزومين. لكلّ منّا رأي في هذه الدعوى، إلا أني أرى فيها فائدة كبرى، أنها تطرح قضية جوهرية، ما أعبّر عنه بمسألة الزلزال.

هل زلزل حقاً الاستعمار الغربي المجتمعات التي تحكّم فيها؟ هل قلب الأمور رأساً على عقب وحيثما دخل واستقرّ جعل فعلاً أعالي القوم أسافلهم؟ إذا

صحّت هذه المقولة حقّ لنا أن نقول ان نهاية الاستعمار بمثابة زلزال عكسي أعاد الأشياء إلى هيئتها الطبيعية، ولكن إذا لم تصحّ، إذا كان الاستعمار لا يكون استعماراً الا إذا ترك الأمور على حالها، أو إذا كانت المـادّة البشريـة ليّنة طيّعة إلى حدّ أن ما يبدو زلزالاً لا يكسّرها ولا يـفتّتها، ألا يجوز لنا عندئذ أن نفترض أن وزر الاستعمار الأوروبي في إحجامه عن، لا في إقدامه على، التغيير، في سياسته المحافظة لا في سياسته الثورية، في وفائه لمنطق الماضي لا في تحوير أو تعكير ذلك الماضي.

ومن يدّعي اليوم أنه ثائر، ألا يثور ضد الثورة؟».

لم يكد صاحبنا يختم كلمته بعبارة اعتذار وشكر على صبر وتحمّـل الحاضرين حتى هجم عليه الدكتور عودة وجذبه خارج القاعة، غير آبه بتدخل رئيس الجلسة الذي شرع في إعطاء توضيحات عن بقية الأعمال. قال له وعيناه جاحظتان محمرّتان:

يا أخي ذا كلام ذا. . ما احنا محسوبين على بعض. كان لازم تكلّمني في الموضوع. ليه ما قرأت الورقة المكتوبة، كلها فلسفة خارج الموضوع، ما يهمّ. . أما الكلام الثاني، المرتجل، كله سياسة، عايز تفتعل أزمة وإلا ايه. ما تردّ؟

ـ أردّ على أي شيء؟

ـ على كلامي. رايح لبلدك، موش خايف؟

ـ لا.

ـ ازاي؟

ـ يا أخي برّد أعصابك. كلّ مرّة ترميني بشيء أنا بريء منه. اطمئن، لا أحد من زملائنا الكرام اهتمّ ولا فهم ما قلت. ما لم يتعلّق الأمر بقضية معيّنة، بحادثة محدّدة في الزمن وفي المكان فإنهم لا يسمعون ولا يعون. . زيادة على أن كلامي ارتجال، أي لن يبقى له أثر مكتوب. تستطيع في كل الأحوال أن تنفي أنك سمعت وأحرى أنك وافقت. ما تصدّق قولي؟ لنعد حالاً إلى قاعة الاجتماع ونسمع ما يدور فيها. أراهن أن النقاش الآن دائر حول الوثائق الإيطالية.

ارتدّ الاثنان نحو القاعة فوجدا أمام المدخل فيرا وهانز قال هذا الأخير:

ـ هذه فيرا تودّعنا.

فأجاب صاحبنا على التوّ:

ـ وأنا كذلك.

ـ كيف؟ اسمك مدرج ضمن لائحة المدعووين إلى زيارة برلين.

ـ عندي موعد في باريس. لا أستطيع أن أؤخّره مدّة أسبوع كامل لأذهب إلى برلين وأعود. كنت أودّ أن أطلب منك أن توصلني إلى فرانكفورت، إلى دار غوته بالضبط.

قاطعته فيرا:

ـ لو كانت حقيبتك جاهزة لأخذتك معي. ها تاكسي ينتظرني!

ـ إنها جاهزة. أتغيّب دقيقة واحدة.

طلع إلى غرفته. تحقّق من أنه لم ينس شيئاً في المجرّات أو في الخزانات ثم نزل يحمل حقيبته. ردّ المفتاح ووقّع ورقة الاستضافة. توقّف دقيقة إذ تذكر أنه لن يودع مضيفه الدكتور آنـز بـرينجر ثم غادر الفندق فوجد فيرا واقفة بمفردها جنب التاكسي. قالت:

ـ هيّا بنا.

ـ أين هانز؟

ـ يتمنّى لك سفراً مريحاً وعودة سالمة. . . هانز شاب مشتّت الأفكار لا يريد أن يسمع أشياء يخشى أن تستهويه. لم يعجبه كلامك.

ـ أفهم قصدك. عبّرت عن أفكار ألمانية بعبارات فرنسية.

ـ ألمانيا لم تعد ألمانية.

ـ والروح القومي؟

ـ الأفكار فردية بالأساس. فهي لهذا السبب قابلة للنسيان هذا ما تعلّمناه من تاريخنا القريب. الأفكار الألمانية لم تكن ألمانية بقدر ما كانت أفكار زمن محدّد، فترة تاريخية معيّنة. قد تغادر ألمانيا ثم تعود إليها في زيّ أجنبي. على أي حال هناك كلمات وعبارات ومفاهيم كانت تطربنا ولم تعد.

ـ الواقع أن كلمتي كانت إجابة عن تساؤلات شخصية.

ـ فهمت ذلك.

ـ ثار زميلي المصري بحقّ. ماذا يهمّ المتناظرين من مفهوم الاستعمار؟ لم

يعد حدثاً بالنسبة إليهم. تحوّل إلـى مدّة زمنية حوت مئات الأحداث، يختارون من بينها تلك التي تركت آثاراً مادّية ويتكلّمون عنها دون غيرها.

ـ المأساة تنحلّ في التاريخ.

ـ هذه فلسفة ألمانية.

ـ هذه جملة من كلامنا العادي. أو هكذا يحلو لي أن أفهمها.

غادر التاكسي الغابة الكثيفة التي كانت تظلّ أشجارها الطريق منذ أن فارقت الفندق . غارت الأشجار في الأفق وارتفعت على جنبي الطريق بنايات من طابق أو طابقين ، مشيّدة من حجر أبيض ناصع أو من مادّة معدنية تشبه الحجر . قال :

ـ لا فرق هنا بين القرية والمدينة. أتصوّر بصعوبة أنني بعد قليل سأدخل مدينة سكنها غوته وأجد أن سكّانها لا يختلفون في سحنتهم أو لبستهم أو مشيتهم عن هؤلاء القرويين . هل مونستير مثل فرانكفورت؟

ـ لماذا لا تأتي وتراها بعينك؟

ـ أفعل إن قضيت معي الأمسية.

ـ غير ممكن.

فكّر : موعد في دار غوتة ، موعد في باريس ، وأطلب من الفتاة أن تقضي معي أمسية. لو قبلت لارتفع عبء الاختيار. قال لي مرّة على شاطيء البحيرة: من وراء الزواج تبحث عن بانسيون. وحكى لي أنه أول ما رأى زوجته قال لها: إني متزوّج فرآها تبهت قبل أن يوضح، متزوج مع السياسة. هل كان صادقاً؟ أيمكن أن يكون صادقاً؟ نعم السياسة زواج. في باريس ينتظرني أب الفتاة. سيسألني عن ألمانيا التي عرفها أواخر العشرينات. سأجيبه: ألمانيا بلد فلاحين متقدّمين مثقّفين متعلّمين يسكنون مدناً فاخرة، لا فرق فيها بين الفيلسوف ومنتج الشمندر. الدكتور عودة أيضاً فلاح ابن فلاح، بعيد عن أناقة المدن المتوسطية، أناقة الطليان واليونان والأسبان، يسكن مدينة ضخمة مهيبة لكنها غير أنيقة.

توقّف التاكسي. قالت فيرا:

ـ هذه محطّة القطار. هل تأتي إلى مونستير؟

نظر إلى عينيها الزرقاوين، إلى شعرها الأسود المقصوص على طراز لويز

بروكس/137، استمع إلى قلبه يخفق، تخيّل أيامه تتوالى في غرفة كالحة منزوية وأجاب:

ـ لا أدري ماذا سأفعل بعد زيارتي لدار غوته.

أدّت ثمن الرحلة. أعطت الأوامر لسائق التاكسي. ودّعته بابتسامة ثم قصدت بخطى ثابتة مدخل المحطة. قال:

ـ ما كانت هكذا مشية فيرا!»

— 77 —

ـ لاحظ الازدراء الذي يبديه إدريس للمادّة الموصوفة. لم يعد يهتم حتى بتنسيق مستويات الواقع المشاهد. . هانز ظل أحد أبطال طوماس مانّ/138، فيرا شبح الفتاة الألمانية التي خاطبها في رسائل لم تصلها، الشخصيات الأخرى كلها حيّة. . الأحياء والأشباح يتعارفون، يتساكنون في الحياة اليومية كما يتجاورون في ذهن إدريس.

ـ ما فائدة الكتابة إذا لم تعط للكاتب حرية أكبر من التي يعرفها في حياته العادية؟

ـ غير أن إدريس يستعدّ، رغم وعبر التطرّف، إلى التصالح مع الواقع. ألا يشير هذا الاستعلاء المكشوف إزاء الواقع إلى يأس شامل؟ هل تطرّق بالفعل في كلمته المرتجلة أمام زملائه المندهشين إلى جذور الموضوع، أم أجاب عن أسئلة طرحها على نفسه بهدف تبرير سلوكه في الحاضر والمستقبل؟

كانت فيرا هي المخرج، هي الحلّ. عاملت الفتى (يسميه الآن الصاحب) كما لو كانت تعرفه من زمن طويل، كلّمته بلغة يعرفها، تفهّمت موقفه، أعطته عن وطنها صورة تقليدية يعرفها ويطمئنّ إليهـا.

ـ هل هذا ممكن؟

ـ ممكن في وضعية إدريس. بها فتح لنفسه منفذاً لكي لا يجمد في مأزقه ويقول باستمرار: سأكون وحيداً مهجوراً غير مطمئن إلى صداقة وصدق من يريد أن يشغّلني. . هل تدري معنى فيرا؟

ـ من أين لي أن أعرف؟

ـ كلمة سلافية تعني الإيمان. يفارق الفتى فيرا على باب المحطة ليذهب إلى موعد مبهم. ولكنه قد اختار، قد قرّر عدم الاستماع إلى ما سيعرض عليه في ذلك الموعد. قرّر ما قرّر عندما قال: اما الزلزال واما الصلح المنفرد. يؤاخذ على الاستعمار كونه لم يطمس معالم الماضي، لم يقلب الأحوال حتى لا يبقى أي شيء يوحي بفكرة العودة إلى الوراء. .

ـ يحاكم الاستعمار كما حاكم المجتمع والأسرة والأب.

ـ يلقي المسؤولية دائماً على الغير الذي لم يجرؤ في نظره على الحسم وفضّل ترك ذلك العبء الثقيل إلى الأولاد والأحفاد. تصالح الاستعمار مع الوضع القديم، تساكن أسياد الأمس مع أسياد اليوم، كل واحدإذن عقد صلحاً منفرداً، لماذا لا أفعل ما فعل جميع من سبقوني؟ هكذا فكّر إدريس على باب المحطّة. قرّر أن يردّ بالإيجاب على موعد باريس حتى قبل أن يذهب إلى موعد دار غوته. ودار غوته نفسها ترمز إلى التصالح بين القديم والجديد، الفرد والمجتمع، السماء والأرض، الحلم والواقع، دار بورجوازية قطنها شاعر كبير قال بالقدر وبالعفو. التصالح إذن غير عقيم بالضرورة. .

ـ لكن الموعد ليس من اختيار إدريس؟

ـ هذه سخرية. التصالح مقدّر، يمهّد له من لا يحبّذه. وهكذا تنتهي سيرة الفتى. كان غائباً عن نفسه، يرى العالم ويروي ما يجري بدون تأثّر، ثم انعكس وانتكس فتكلّم وصاح ثم سكت بعد أن حوى العالم وما فيه. انتفخت ذاته فلم يعد يحتاج إلى اللفظ والإفصاح، عاد كل كلام حادثاً في ذاته. لم يتورّع أن ناجى نفسه أمام زملائه. .

ـ بعد الانتفاخ الانفجار.
ـ نقول إذن أن الفتى هو إدريس.
إدريس فتى مدلل.
حلم وحلم حتى انغمس في الفناء.
حكم بسخافة الموصوف لأنه مضغ الكون وعكس التاريخ.
حكم بعمق القواميس لأنه تضايق من كثرة الموجودات،
أحياء وأشياء، ملموسات ومفاهيم.

قطع حبل الانتماء لأنه
طلب المستحيل طلب أن لا يكون ما كان
فتهيأ لينام نومه الأخير
الصلح المنفرد هو الاضمحلال
كان إدريس يعلم مآله وعلى ذلك إشارات عديدة في كل ما ترك
ـ أوضحها؟
ـ نغمة الحنين.

# التأبين

— 78 —

كنت أجهل ما كتب إدريس عن نفسه. فتخيّلت أن سبب مأساته كان خيانة مارية. تصوّرت أنه حاول في كل عمل قام به أن ينساها. تزوّج، أنجب، اشتغل، ذاق مرارة الحياة، تحمّل كوارثها العائلية والوطنية والقومية. انغمس في الكلمات، لا ليعبّر عن تجاربه المرّة، بل ليصحّح أخطاء الآخرين. ثم عادت مارية، بدون سابق إنذار وغدرت به ثانية. صفعته صفعة كانت هي القاضية. فارق إدريس الأرض انحلّ في الهواء غير غاضب ولا مستغرب.

والآن بعد أن تصفّحت، بعد أن قرأت ورتبت أوراقه، أرى أنه لم ينظر أبداً إلى نفسه إلا في إطار الفشل والإحباط. لم يؤمن أبداً بأن الإنجاز الأدبي قد يعوّض عن مرارة الحياة، بل صمّم على أن تكون خيبته العبارة الصادقة عن الإخفاق الجماعي.

تساءل إدريس في كل ما كتب: لماذا الكتابة؟ لماذا الخيبة؟ وماذا كان جوابه؟

طوال سنوات عديدة طالع، تأمّل، ناقش، سمع، سافر، لاحظ.. كنز كل ما استطاع أن يدرك ويفهم بواسطة التربية العائلية والتعليم المدرسي والتوعية الجماعية. ويوماً حدث أن انفصل عن هذا المعقول المتعلّق بالعائلة والوطن والثقافة، التفت إليه فلم يجد فيه شيئاً يستحقّ أن يوصف وصفاً دقيقاً وفياً.

اكتشف هذا في محيط غريب عنه. يهدّد بسحقه وابتلاعه. فتغيّر سلوكه

ومنطقه. أصبح أكثر مغربية وعروبة وإسلاماً. كان يمكن أن يعيش التجربة ببساطة لكنه صمّم على أن يحياها وأن يحكم عليها في آن. كان يمكن أن ينهي التساؤل بالقبول والرضى. ولو قبل أن يقنع بالظاهر الملموس مع التعلّق بالتعبير الأدبي لكتب روايات تربوية تصوّر تحول الفرد إلى عضو عامل في محيطه، في عائلته أو قبيلته أو وطنه أو أمته. بعد ذلك تعدّدت تجاربه، تساكنت وتداخلت. تجربة الانتماء والعمل الجماعي، تجربة الحب وامتناعه، تجربة الذوق بواسطة الفن السينمائي. عبّر عن تجربة الجماعة بواسطة الحب وعن فلسفة الحب بواسطة السينما. وعندما أقول عبّر أعني نخل، قطّر، صفّى.

انخرط إدريس في عدّة فعاليات جماعية لكن ذاته لم تضعف أو تضمحلّ، بل زادت انتفاخاً وتضخّماً. رأى في العمل السينمائي رمزاً عن حالة نفسه وسط الموضوعات. تلتقط الكاميرا كل ظاهر ومع ذلك اللوحة السينمائية هي غير تصفيفة الأشياء الملتقطة، فيها القريب والبعيد، السطحي والعميق، الملتقط والمصوّر. تزامنت في وعي إدريس تجربة ذوقية بثانية شعورية وثالثة سلوكية وتوحّدت التجارب الثلاث بسبب قاسمها المشترك، أعني حركة الذات التأطير، التقصيص، الإنارة، التلفيف النغمي.. هذه عمليات ذاتية تجرّب على مادّة الحياة. تساءل إدريس: ماذا أفعل بتجربتي؟ كيف أؤطرها، أقطّعها، أرتّبها، ألوّنها، أعدّلها؟ التجربة المعيشة هي الملتقط، هي **الموصوف**، ليست الموضوع، ليست الغاية..

عرف إدريس التقنية لكنه لم يستقر في أحضانها.

ازدرى الموصوف، المضمون بكلّ معانيه، أكان من الطبيعة أو من التاريخ، ثم بعد حين ازدرى الصناعة، المعمار والزخرفة والتجميل. قال: ليس الأسلوب تصفيف الكلمات، الأسلوب هو الهالة المحيطة بالكلمات في أي بناء وجدت، الأسلوب هو الصدى الذي تتركه وراءها المفردات والمقاطع بعد أن تقرأ وتنسى.

التجربة، المعمار، الزينة، لا شيء من ذلك هو الموضوع، هو الغرض. لا بدّ من البحث، خلف هذه الأمور، عن عبارة تخصّ الوجدان، تخصّ لون الموصوف. الوجدان حركة واللون حركة والنغمة حركة، لنوحّد تلك الحركات الثلاث، ذلك هو الهدف.

قال: **التاريخ** تتابع الأحداث، **الحبّ** تموّج الوجدان. كل رواية سيرة، أما

من الحب إلى التاريخ لاكتشاف المجتمع في قلب الذات، وأما من التاريخ إلى الحبّ، لإنقاذ الذات من الغرق في خضمّ التاريخ. هذا هو زمن الرواية، كل رواية عندما تكون ذات صدى ذات هالة.

هل توقف إدريس عند هذا الحدّ؟ هل رضي به كأفق لحياته؟ لو قبل أن يحجب عينيه، أن يصمّ أذنيه، أن يوقّف الآلة الناخرة في وعيه وذاكرته لحاول على الأقل أن يكتب تربية وجدانية. لكنه اقتنع أنه لو فعل لما كان لمحاولته أي سحر، لكانت تقريراً عن حالة شعورية محدّدة الزمن والمكان. فتساءل: من نزع السحر، سحر التجاوب، الصدى الذي يدغدغ الوجدان أياماً بعد مطالعة العمل الروائي؟ فتذكّر الموسيقى التصويرية، الهالة النغمية التي تغلّف الموصوفات. فكّر فاقنع نفسه أن تلك النغمة لا تتولّد إلا عن شعور مرادف لمعنى الحنين، لا كشعور خاص يذكر في الرواية جنب عواطف أخرى مثل الغضب أو الفرح أو الحزن أو النشوة. . بل كشعور عامّ يواكب الرواية دون أن يكون مضمّناً فيها. يؤثر بغيابه، وإلا فقدت الرواية قدرتها على الاستمالة.

قد تقول يا شعيب: ظهر السبب وارتفع العجب

عجز إدريس عن اقتناص النغمة المواكبة فأنعش هذا العجز كل الإخفاقات السابقة. كان إدريس يستحملها عندما كان يستغلّها كمادّة ثم عندما فشل حتى في تحويلها إلى وسيلة انتقام من الغير ومن التاريخ فإنه حكم على نفسه باليأس القاتل. لم يكن في مستوى طموحه كما لم يكن مجتمعه في مستوى آماله. مات كما مات غيره من العجز والحسرة.

لو وافقتك وأنهيت هنا كلامي لقصّرت في حق إدريس. أريد أخذ كامل الاحتياط، أن أمحّص كل الافتراضات. أتساءل: أليست هناك أسباب خارجية قادته، رغماً عنه، في سبيل الفشل؟

لنفرض أن فكرة الاحباط سبقت، في ذهن إدريس، كل ممارسة، أنها نتجت عن تمثل تجارب أجنبية تلقّاها أثناء دراسته، وكانت بطبعها أسوأ وسيلة لاستحضار نغمة الحنين لأنها لا تتجاوز أبداً حدود العقل.

لنفرض أن إدريس عاش في ظل الخيبة منذ ولادته. تربّى وتعلّم وفكّر محاطاً بآثار الانحطاط. كان الإحباط أحد عناصر الموصوف ثم انقلب في ذهنه إلى

إخفاق ذاتي، إلى طريقة فنية يوحّد بها الشكل والمضمون.

لنفرض أنه انبهر بالفن السينمائي فظنّ أنه يستطيع في كل حالة أن يقولب الموصوف فلم ير بأساً أن يتضخّم باستمرار ذلك الموصوف. بقي إدريس مرتبطاً بماضي وحاضر مجتمعه ولم يشعر أن الموصوف الذي ازدراه تضخّم إلى حدّ أنه عاد غير قابل للتفصيل والتشكيل. لما أراد أن يؤطره، أن يقصّصه، وجد نفسه أمام مهمّة تفوق قدرته، فنسي الهدف وعجز عن استحضار نغمة الحنين.

لنفرض أنه حكم على نفسه بالإخفاق لا عن شعور عميق صادق بل عن عقيدة مستوحاة من التحليل العقلي كأن يقول: الإسلام لحظة التعالي والتعالي لا ينتهي أبداً في هذه الدنيا بأي نوع من التجسيد والاتحاد وأن كل محاولة في هذا الباب خطأ وإثم.

هذه افتراضات الهدف منها تلمّس أسباب خارجية لمأساة إدريس ولا شكّ أنك تستطيع، يا شعيب، أن تكشف عن أسباب خارجية أخرى غير التي اهتديت إليها وغير التي أشار إليها هو في أوراقه.

أقول: المحتمل أن يكون إدريس ذهب ضحية أفكار نقشت في ذهنه ولم يستطع أن يتخلّص منها، رغم عملية النجر والتنقية التي ما فتىء يجريها على وعيه. وهل رغب بالفعل أن يتحرّر منها؟ ماذا يعني الحنين سوى الشوق إلى شيء ممتنع؟

كانت تجارب إدريس سطحية كلها لأنها لم تتخطّ أبداً حدود العقل. بحث عن شعور عزّ عليه أن يجرّبه بالفعل. أقصى ما قام بها هو أنه ثار ضد المخزون في ذهنه. رأى فيه أصل انسلاخه عن هويته، حمّل وزر همومه وآلامه من دفع به إلى مدرسة الأجانب، غير أنه لم يقدم أبداً على الخطوة الفاصلة، على محو المخزون من الذاكرة، الذهنية والجسمية. انتفخ ولم يتقوّ، انعزل ولم يستقلّ، احتقر التاريخ والثقافة ولم ينسهما. حكم على نفسه بالإخفاق لمّا أخطأ التشخيص.

أعود وأقول:

أسباب الإخفاق المحتملة عديدة ولكن السبب الأول والأخير هو خضوع إدريس الدائم، رغم السخط والغضب، لكل واحد واحد من تلك الأسباب. حاكم ولم يحكم، ازدرى ولم ينس، تطلّع إلى عالم الفن دون أن يغادر عالم الحياة.. تكلّم وتكلّم عن شيء لم يدرك أبداً لوازم قيامه واستمراره.

رتّبت أوراق إدريس حسب منطق اقتنعت أنه كان يسيّر تفكيره، وحدّثتك، يا شعيب، بما استخلصت من تحليلاته وتأمّلاته. ثم حاولت أن أتخيّل ما لم يخطر بباله أو ما خطر بباله وقرّر إغفاله، والآن جاء الوقت لأقول كلمتي الأخيرة:

الكتابة انسلاخ وانتحار، استجابة لإخفاق الحياة الجماعية.

إذا أقدمت عليها ذات تظن أنها طوت الكون ومحت الزمن ، ذات تنتفخ بتوسع الخلق المستمر، فإنها لا محالة سائرة إلى الاخفاق إلى أن تدرك عاجلاً أو آجلاً، أن الفن لا ينتقم من الحياة لأن الانتقام لا يعيد التوازن إلى الكون. الفنّان حقاً هو من يستطيع أن يستقلّ بالفعل عن وعيه، لا عن التاريخ والثقافة فحسب، من ينسى نفسه وينغمس في المادّة، في اللاّمعقول، في الحاضر الدائم، الفنان حقّاً هو من يستطيع أن لا يندم ولا يحنّ، من لا يحاكم ولا يحكم، من يأخذ آلته ويغادر العالم بل النفس التي تتذكّر الكون وما فيه، من ينسى كل ما سبق الفرار بل عملية الفرار ذاتها.

عرف إدريس هذه الأزمة، أحسّ أنه لم يقدم على الخطوة الفاصلة، وبسبب وعيه المتّقد بقي سجيناً لها. كل اختياراته كانت موجّهة، تتحكّم فيها تلك الأشياء التي كان ينقدها باستمرار. كل شيء في حياته محتّم وفي نفس الوقت وليد الصدفة. لم يقطع علاقاته بمحيطه، لم ينف الانتماء إلى ما هو غير نفسه، إلى الأسرة والوطن والأمّة والتاريخ. ازدرى النادرة ولكنه لم ينفلت منها، كل ما فعل أنه أفقدها جاذبيتها وسحرها. حكم على نفسه بأنه لا يلوّنها أبداً لأن الحنين هو نزع اللون عن كل موجود. ظنّ أنه يتحكّم في الواقع بمجرّد أنه يطوّعه في ذهنه، يقطّعه ويعيد هيكلته ويبنيه كما يشاء. لم يدر أنه إذ يفعل ذلك فإنه يبقى تحت إمرته وسلطانه. لم يقطع علاقاته به في الحياة اليومية وأراد أن يقطعها على مستوى التعبير. عكس الأمور. احتفظ بما كان يجب أن يتحرّر منه وتخلّى عمّا كان يجب أن يحتفظ به. لم يؤدّ ثمن الفن فلم يرعه الفن.

أخفق إذن،
إذا كان الفن طريق النجاة،
وإذا لم يكن، كما اعتقد ذلك إدريس،
فلا إخفاق غير إخفاق الجماعة.

إذا كنت تحلم ثم حلمت أنك تحلم في حلمك ثم أفقت منه وأنت لا تزال

تحلم، ماذا أضعت؟ ردّد معي، يا شعيب، **والشمس تجري**. . /139.

— 79 —

تتساءل عن إدريس، غير الذي تخيّلته قبل أن تقرأ أوراقه، وغير الذي جسّده هو في شخص الفتى. يتفتّت الواقع المشاهد، الذي يكوّن الموصوف، عند إدريس الكاتب، وعندك أنت الذي رتّبت أوراقه وغامرة بكتابة سيرته. تقول ان السبب هو تأثركما **بالحركية** الفنية. لكنني أنا غير مولع بالسينما، لا أكاد أعرف عن هذا الفن شيئاً، بل لا أكاد أعرف شيئاً عن أي فنّ سوى فنّ الخطابة. لا أكتب لا أبحث عن أية عبارة، كاملة أو مبتورة، صادقة أو خادعة. أكتفي بوصف ما ينتصب أمامي بما أعرف من مفردات وتراكيب. قد ينعكس في ذهني وفي قولي شبح إدريس الآخر، إدريس الثالث، البادي لعين الغير.

وددت لو أكتفي بالدوافع الخارجية، كما ظننت أني فاعل. وددت لو أعيد كل مأساته إلى يتمه، وهو الواقع الخارج عن إرادة إدريس والذي صمّم على تجاهله، إلى تأخّره عن القيام بواجبه والمشاركة في بناء المغرب المستقلّ، وهو الاختيار الذي أقدم عليه دون استكشاف كل عواقبه. وددت لو أعارض بالأمثلة ما برّر به، وما برّرت أنت به، مواقفه. يقول بكيفية، وتقول بكيفية، أن الثقافة الأجنبية أبعدته عن محيطه العائلي والطبيعي، ولكن كم من أعلام ثقافتنا في الماضي تأثّروا بيونان وإيران وكتبوا ألغازاً لا نحلّها إلا بترجمتها إلى لغة القرآن؟ تقول أنه تأمّل آثار الانحطاط والانحلال حتى انحلّت ذاته، ولكن من منّا لا يفكّر في الردّة، في الانعطاف، في الفشل منذ أن لعن الله المنافقين؟ كم من شخصية نقدّسها لا لسبب غير أنها تذرّعت بانحطاط المجتمع فرفضت أن تتعامل معه وفضّلت أن تعيش ما قدّر بين الظلال والأشباح؟ تقول أنه لم يروض نفسه على الرضوخ والانقياد. كم من أعلامنا رضي بأن يكتب ما ينفع الناس في هذه الدنيا ولم يقل: ماذا يضرّني لو تاه غيري؟

ودّدت لو أقرّر: الأفكار لا تقتل، الكوارث الجماعية وحدها تبهر وتخنق.

لا أطيل الكلام في هذا الاتجاه لأني سررت بما فعلت ولم يعد بإمكاني أن أعود إلى ما كان في ذهني قبل أن استمع إليك. رصدت مرحلة تكوّن إدريس الفكري والعاطفي. أعطيت لحياته منطقاً استلهمته من أوراقه. استطعت أن تكتب سيرة فنجحت حيث لم ينجح هو، أو لم يرد أن ينجح، حوّلت الإخفاق الذي أحسّ به إلى نوع من الانتصار. فلا يسعني إلا أن أسايرك. أي حق لي، أي نفع لي، في تفنيد ما قلت؟

أسايرك إلا في نقطة واحدة.

نفيت عن إدريس الحرية، الإرادة، المسؤولية. جعلت، أنت أيضاً، من حياته موصوفاً وجرّبت عليه بدورك تقنيات الهيكلة والتقصيص والترتيب والتلوين. رتّبت أوراقه ترتيباً محكماً فلم تترك له أية فرصة للانفلات. لماذا لا أنفّس عليه الخناق؟

أردت أن تعتذر له فجعلت منه ضحية الوعي والعقل والثقافة والتاريخ. فكّرت دائماً بـ**لو**.. لو لم يتذوّق السينما لما ازدرى الرواية الموضوعية. لو لم يكتشف سيروية الرواية لما اقتنع أن شكل فلوبير جامع مانع لا يحتمل الإعادة والتكرار بتغيير المواضع والأسماء. لو لم يعتقد أن الإسلام هو استدامة الشوق وأن العبادة هي التطلع إلى الوحدة بدون أمل تحقيقها في هذه الدنيا لما ظنّ أن فشله هو عنوان فشل الجميع. لو.. لو..

لكني أرى إنك اهتديت في النهاية إلى الكلمة الفاصلة: قلت انه رفض أن ينسى. لو قبل أن ينسى ذاته لتوحّدت شخصيته، لاستعاد توازنه ولربما نجح على كل الأصعدة. ولو هذه، التي أستعملها أنا غير لو التي استعملتها أنت. هذه تشير إلى اختيار وتلك إلى نزوات الصدفة والاتّفاق. بعد أن نطقت بالكلمة الفاصلة لم يعد لي موجب لأعارض أقوالك الأخرى. حكمنا النهائي واحد مهما اختلفت المبرّرات. منذ البداية شعرت إنك تقترب مني خطوة خطوة فرحّبت بتقربّك وأحببت أن تنتهي إلى ما انتهيت إليه.

تقول: أخفق في التعبير لأنه احتقر النادرة. تساءل عن سبب انتقاء السحر من الرواية ولم يدرك أن لا سحر بدون انجذاب وانصهار. سار على طريق قفر، لا شيء يلفت النظر ويشدّ الانتباه فانعكس على ذاته يحاورها بلا ملل وأغذ السير. قفز من محطة إلى أخرى، روحه منفصلة عن جسده، سبّاقة إلى غايته. بذلك فقد السحر. إذ المسافر لا ينسحر إلا إذا نسي المقصد أثناء مسيرته. السحر هو تذوق النادرة، دغدغة العواطف، التلذّذ بالزمن والخضوع له. طمع إدريس في أن يستحضر السحر باستشعار الحنين ولم يدرك أن الحنين لا وزن له ولا مفعول إذ هو نفي الزمن ونزع اللون عن الأشياء.

هذا ما تقول ولكن ألم يفعل نفس الشيء صاحب **المقامات**؟ ومع ذلك وصل إلى نوع من الانبهار. تحرّر من كل موصوف، من الأحياء والأشياء حسب

تعبيرك، وانغمس فيها لا يتغير أبداً أي في قاموس الاشتقاق والترادف. قصّة واحدة، يبنيها ويفكّكها ويعيد بناءها بلبنات أخرى خمسين مرّة؟ فعل ذلك دون أن يتعرف على السينما. من احتقر الواقع أكثر منه؟ لم يبحث عن نغمة الحنين ولكن وجد وسيلة حيّر بها الناظر المتأمّل. ينزعه من محيطه ويرمي به في متاه كلامي لا مخرج له منه. ليس هذا هو السحر الذي جرى وراءه إدريس ولكنه انبهار يؤدي إلى النتيجة ذاتها، أي إلى الغيبة عن النفس والانغماس في العبارة.

تقول: احتقر إدريس النادرة، إزدرى الفعالية، استخفّ بالجسد فراح يبحث عن همهمة ترافق المسافر باستمرار أثناء سيرته. بحث عنها ولم يدركها. أما نحن فانّنا لا نبحث عنها ومع أو بسبب ذلك ندركها. لا تفوّق لنا عليه. . نحن لا نعزّ الموت، لا نتطلّع إليه ولذلك السبب بالضبط نفهم أن الهمهمة الدائمة ليست سوى هفيف الموت. ظن إدريس أن نغمة الحنين وسيلة فنية في حين أنها واعز سلوكي. وكونه لم يدرك البديهة دليل على صدقه وإخلاصه. صقل ثم صقل لوحة وعيه لتنعكس فيها النغمة المنتظرة، لكنه لم يدرك ماهيتها لأنه كان صادق العزم. صمد وعاند لأنه اختار. الموت حنين، عمل على استحضار الحنين فلقي الموت. عندما يقول مع هيغل الإسلام فراق وشوق والتيه تيه لا لذة فيه ولا فرحة، يقول ذلك صحبة هيغل لا تبعاً له. هذه كانت عقيدته، هذه كانت حقيقته. لا صبر له على المسيرة في هذه الدنيا لأنه يعلم أن لا جمع ولا وحدة فيها لغير الأبله أو التائه. لماذا التسكّع إذن بين محطة وأخرى؟ لماذا لا نسابق السير ونحط أنفسنا مباشرة في المنزلة التي نسير إليها؟ انتقل إدريس على بساط في رمشة عين كما يفعل أبطال ألف ليلة وليلة.

رفض أن ينغمس في المسيرة، أن يتيه بين المراحل والمنازل، رفض أن ينسى نفسه وهل يوجد وزر أعظم من النسيان؟ أليس النسيان هو الحلّ والانحلال في الكلمة، في الطبيعة، في الزمن؟ وبالعكس أليس التجريد، التحرر من جميع تلك الأغلال هو الوعي، هو الصفاء، هو الطهارة، هو الاستعلاء؟ إذا أسرع إدريس لكي لا ينسى أليس الدافع هو الشرق، هو العزم على الالتحاق والانضمام؟

تقول: أخفق بشهادته هو. أقول: انتصر بشهادة من هو أعلى من ذاته في ذاته. حسب ما في أوراقه، حسب ما استخرجته منها، ذهب إلى أبعد الحدود وصاح: الفن خدعة، العبارة حجاب، الصمت وحده دليل الإخلاص. تخلّى عن كل أنواع الوهم. حصل أن تأذى من الانفراد، أن ودّ لو يعود إلى حظيرة الجماعة، ظن لمدة قصيرة،

في بداية مشواره العاطفي والذوقي، أن الوفاء للعائلة، للقبيلة، للأمة، لكنه لم يلبث أن فهم أنه لذات الذكرى. ظنّ أن البراءة تستعاد بعد العلم والوعي وأن هذا الاسترداد يمثّل مادة ذهنية تقاوم الدهر. لكنه لم يلبث أن تخلّى عن هذا الوهم أيضاً وانتهى إلى الصمت، لا، كما يقول الطبيعيون، لأن الأرض ستبرد يوماً ويفنى كل ما عليها من آثار البشر والحياة والحركة، بل فيما أفهم وأعتقد، تأسّياً بمن سبقوه والتزموا الصمت كآية على حسن نيتهم وصميم إرادتهم.

صديقي، كنت وأنا أستمع إليك تصف مراحل ابتعاد إدريس وانزوائه وانكماشه أرى فيها خطوات ثوبته إلى أصله وهويته. لم يعها، لذلك قصدها بحزم. اشتغل بتجريد نفسه وتصفية وعيه لذلك حجبت عنه وجهته الحقيقية. كلما قلت أنت السخط فهمت أنا المحبة، كلما قلت الثورة فهمت الوفاء، كلما قلت الغضب فهمت الولاء.

انحلّ إدريس لأنه رفض الحلول في الطبيعة أو في التاريخ أو في القاموس أو في الفنّ. تألّم وتألم حتى ذهب إلى الأطراف فاشتاق إلى الأوبة وعاد بسرعة الريح. تقول كان ضحية وأقول وفياً وأحب لو نشير بالكلمتين إلى معنى واحد.

أقف هنا بحكم إرادتي كما وقفت أنت أيضاً بحكم إرادتك إذ لا أحد منا يجري وراء نغمة الحنين.

ليقول غيرنا ما يشاء في حقّ إدريس. أسمع بعضهم يقرّر: ما مات إدريس إلا لأنه لم يكن يحبّ الحياة. كانت نهايته مكتوبة في ولادته. من يقول هذا القول لا يحبّه، يقتله ويتركه فريسة الكلاب والذئاب. وأنت أيضاً، أيها الصديق، قد تندم على ما فعلت، بعد أن استمعت إليّ، قد تعود إلى سابق فكرتك أنه كان أولى بنا أن نترك الأوراق مبعثرة كما تركها إدريس ربما عن قصد وبعد تفكير ورويّة. أعود وأقول: كشفت عمّا لم تكن تتصوّر أنه موجود فيها. أعطيت لموته معنى، حوّلت حسّه بالإخفاق إلى نصر. كان له عليك دين، فاعترفت له به وأوفيت. أحبّ أن نلجم النفس، أن نتوقّف ونقول، رغم ما في الكلمة من خشونة:

إدريس أودى به إيمانه.

* * *

# هوامش

(1) الآية 31 من سورة المائدة (القرآن الكريم).

(2) فرانسوا غوطلان (François Gottland) أستاذ الآداب الفرنسية بثانوية مولاي يوسف.

يوليوس: إحدى شخصيات قصة الغربة.

(3) حسين هيكل: زينب 1914.

شاطوبريان (Chateau briand)رينيه (René) 1802.

جبران خليل جبران: الأجنحة المتكسّرة، 1912.

ميخائيل نعيمة: كان ما كان، 1937.

(4) **The Killers** ـ أخرجه R. Sio dmak سنة 1946.

**Each Dawn I die** ـ أخرجه William Keighley سنة 1939.

(5) **Sorry wnong number** أخرجه Anatole Litvak سنة 1948.

(6) حب ما جاء به القدر.

(7) مثل الأب دولوباك **Le drame de l' hamanisme atheé:** De Lubac.

ج . ج . كافلير (J .J . Calvez) **La penseé de Karl Marx:**.

(8) **Midi sonne au Maroc:** Ignaz Lepp 1954.

(9) اسمه الحقيقي Emile Chartier مات سنة 1951، فيلسوف الحزب الراديكالي الفرنسي.

(10) الزنقة التي توجد فيها المدرسة العليا للأساتذة(Ecole Normal Supérieure) بباريس.

(11) **Goodbye, Mr. Chips** للكاتب الإنجليزي James Hilton سنة 1934.

(12) Van Vollenhoven.

(13) Maru Maru أخرجه Gordon Douglas سنة 1951.

(14) Germain.

(15) الآية 8 من سورة الأنفال (30).

(16) René Le Senne مؤلف **Traité de morale Générale** 1942.

(17) **La tour d' Ezra** للكاتب الانجليزي من أصل هنغاري Arthur Koestler.

(18) Bernard Lewis في مقال للمجلّة International Affairs 30. 1. 1954

(19) قبل اكتشاف البترول.

(20) Julian Huxley العالم البيولوجي وأول مدير عام لليونيسكو.

(21) الانتقام لمحنة أخيه محمد الكبير على يد السلطان المولى عبد الحفيظ، حسب تبرير البعض.

(22) Jean – Charles Legrand .

(23) Marcel Vallat : مدير الداخلية بالإقامة العامّة.

Philppe Boniface : رئيس ناحية الدار البيضاء.

Hubert d' Hauteville : الجنرال رئيس ناحية مراكش.

(24) الآية 47 من سورة محمد (7). أصبحت شعار المغرب المستقلّ.

(25) بيت من مرثية أبي البقاء الرندي.

يقودها العلج عند السبي مكرهـة    والعين بـاكيـة والقلب حيـران.

(26) Gl. Garcia Valino المقيم العام الأسباني بتطوان.

(27) George Bidault وزير الشؤون الخارجية الفرنسي من يونيو 1953 إلى يونيو 1954.

(28) محمد المقري الذي شغل منصب الصدر الأعظم من 1915 إلى 1956 وسجّل اسمه في كتاب الأرقام القياسية.

(29) قضى الجنرال زاهدي على حكومة محمد مصدّق الوطنية باتفاق مع الولايات المتحدة.

(30) Sieyes (1748 – 1836) أحد زعماء الثورة الفرنسية المعتدلين مهّد السبيل لدكتاتورية بونابرت.

(31) Alan Paton مؤلف كتاب **Cry, Beloved Country** 1948.

(32) (E N A) مدرسة أنشئت في فرنسا لتكوين أطر إدارية مقتدرة ضليعة في علـوم الاقتصـاد. يلتحق بها الطلبة بعد النجاح في مباراة صعبة جدّاً يتهيأون لها في معهد الدراسات السياسية الذي كان يسمى قبل الحرب المدرسة الحرية للعلوم السياسية الموجودة زنقة سان غيوم وحيث درس الزعيمان محمد الوزّاني وعبد القادر بن جلّون.

(33) (phédre) بطلة مسرحية راسين (Racine) التي تحمل نفس العنوان ـ (Hermione) بطلة مسرحية راسين **Andromarque** – (Camille) بطلة مسرحية Corneille بعنوان – (Werther) **Horace** بطل رواية Goethe – (Marguerite) بطلة مسرحية Goethe الشهيرة **Faust**.

(34) بيت للشاعر بودلير Baudelaire

Berçant notre fini sur l' infini des mers.

(35) انظر الفصل الأول ص 9.

(36) Il voyagea

Il connut la mélancholie des paquebots, etc...

(37) Amiel (1821 – 1881) كاتب سويسري معروف بيومياته التي سجّل فيها أدق تطوراته النفسانية.

(38) نظرية شيوعية اقتبسها موريس طوريز من ستالين وطبّقها على الجزائر تقول أن شعوب المستعمرات هي قوميات في طريق التكوين. إذن لا فرق بين المواطن الأصلي والمعمّر الوافد.

(39) Augustin Guillaume الجنرال المقيم الفرنسي من 20 سبتنبر 1951 إلى 20 ماي 1954.

(40) Henry de Montherlant مؤلف **Port – Royal** 1954.

(41) Jean Genet كاتب فرنسي عرف السجن، ثار ضد المجتمع وعاش دائماًعلى الهامش خارقاً كل القواعد القانونية والخلقية. كتب عنه سارتر كتاباً ضخماً.

(42) Jacob Wassermann مؤلف **L' affaire Mauricius** 1929.

(43) سارتر في سلسلة مقالات بعنوان Le communistes et la paix قال فيها لا تدفعوا الطبقة العاملة إلى اليأس. Billan court الضاحية التي توجد فيها معامل السيارات.

(44) Charles Chaplin في فلم **Limelight** 1952.

(45) Tennessee Williams مؤلف مسرحية **A Streetcar named desire** أخرج منها Elia Kazan فلما سنة 1951 ببطولة Vivien leigh (دور Blanche Dubois) ومارلن براندو.

(46) Benjamin Constant مؤلف رواية **Adolphe** 1816.

(47) Denis de Rougemont مؤلف **L' amour et l' Occident** وهو سويسري الأصل ومتحمس للوحدة الأوروبية.

(48) George Sadoul ناقد سينمائي في الأسبوعية الشيوعية Les lettres françaises André Bazin اليسارية Le Nouvel Observateur.Henri Agel ناقد مسيحي النزعة مؤلف **Esthétique du Cinema** 1959.

(49) جملة افتتح بها Alexandre Astruc أول أفلامه المطولة 1954 Les Mauvaises Rencontres.

(50) لسان العرب لابن منظور.

(51) André Malraux في روايته **Les noyers de l'Altenberg** متكلّماً عن أنور باشا زعيم الحركة التورانية في تركيا.

(52) سقطت حامية Dien Bien Phu يوم 7 ماي 1954 وكانت الهزيمة سبب أزمة سياسية في فرنسا وصل على أثرها إلى الحكم بيير منديس ـ فرانس Pierre Mendés – France.

(53) رفضت الجمعية الوطنية الفرنسية سنة 1954 بموافقة حكومة منديس ـ فرانس الاتفاقية المؤسسة لدفاع أوروبي مشترك .Communaute europeenne de défense C E D

(54) Emile Roche مؤلف **Perspectives Franco – marocaines** 1953.

(55) إدريس الشرايبي Driss Chraibi صاحب Le Passé simple 1954.

(56) مجلّة Preuves صدرت في باريس لمدّة سنوات.

(57) الآية 9 من سورة الحشر (59).

(58) الآية 4 من سورة الأحزاب (33).

(59) حزام أمني مكوّن من خندق وجدران ومعاقل دفاعية يطوق الإمبراطورية الرومانية ضد الجرمان والسلافيين والامازيغ.

(60) الآية 26 من سورة يوسف (12).

(61) علال الفاسي: النقد الذاتي 1947.
مقاصد الشريعة 1963.

(62) Bayet مؤلف Histoire de la libre – pensée.

(63) Arnold Toynbee مؤلف A Study of History 12 ج 1934 – 1961
Spengler oswald مؤلف Le déclin de l' Occident 2ج 1926 – 1928.

(64) مؤسس جمعية الإخوان المسلمين اغتيل سنة 1949.

(65) Emmanuel Mounier 1905 – 1950.

(66) Albert Béguin مؤلف L' ame romantique et le rêve 1937.

(67) Aquino de Bragança عمل مستشاراً لرئيس جمهورية موزنبيق المستقل.
Marcelino Dos Santos مكلّف بالشؤون الاقتصادية في الحكومة الموزنبقية.
Mario de Andrade هزم فيما بعد على رئاسة الحزب الحاكم في أنغولا.

(68) Ram Mohan Roy 1772 – 1833 مؤسس حركة إصلاح الهندوكية.

(69) John Ruskin 1819 – 1900 كاتب وناقد فني إنجليزي أعاد الاعتبار لفنون القرون الوسطى بنقده الآثار السيئة للحضارة العصرية الصناعية.

(70) Maurice Blondel 1861 – 1949 فيلسوف فرنسي ذو اتجاه مسيحي
Jules Lachelier 1832 – 1919 أستاذ فلسفة في السوربون متأثر شيئاً ما بالفلسفة الكانطية.

(71) De Lavigerie 1825 – 1892 أسقف الجزائر وقرطاج.
مؤسس إخوانية الآباء البيض pères Blancs لتنصير المسلمين في إفريقيا الشمالية والوثنيين في إفريقيا السوداء. اهتم خصّيصاً بتنصير القبائل في الجزائر.

(72) Francois Xavier 1506 – 1552 مبشر ولد في منطقة النافار قبل ضمّها إلى أسبانيا انخرط في جمعية اليسوعيين وذهب إلى الهند للتبشير ومنها إلى اليابان ومات قبل أن يدخل الصين.

(73) Parc Mont souris حديقة قرب الحي الجامعي في باريس.

(74) Richard Wright 1908 – 1960 مؤلف Native Son 1940.

(75) وليلي الأثرية.

(76) Georges Lukacs مؤلف La destruction de la raison الترجمة الفرنسية 1958.

(77) Gilles Deleuze ألقى دروساً بالسوربون تحت عنوان Nietzsche avant Nietzsche.
Henri Le febvre ألقى محاضرة بعنوان Le romantisme révolutionnaire صدرت فيما بعد في مجلة Nouvelle Revue Française N R F ردّ فيه على نظرية لوكاتش القائلة أن الرومنسية حركة رجعية فيودالية معادية لفلسفة الأنوار التقدمية وللثورة الفرنسية الديمقراطية.

(78) العبارة من انشاء Louis Massignon المستشرق الفرنسي.

(79) قولة هنري كوربان Henry Corbin مترجم هيدغر Heidegger إلى الفرنسية والمتخصص في التصوف الإشراقي المكتوب خاصة بالفارسية.

(80) محمد إقبال: تجديد الفكر الديني في الإسلام.

(81) Hermann Hesse 1877 – 1962، جائزة نوبل في الآداب لسنة 1923،
مؤلف le loup des steppes 1927

(82) Marcel proust. **A la recherche du temps perdu**

(83) Du côté de chez Scuann
Du côté des guermantes

الطريقان متعاكسان في بداية الرواية متلاقيان في النهاية، رمز تداخل الطبقتين البرجوازية والأرستقراطية.

(84) كنيسة شهيرة على بعد أقل من مائة كيلو متر من باريس. يقصدها السواح بكثرة.

(85) هؤلاء الكتاب الذين كانوا من الطبقة البورجوازية ويعيشون في وسط النبلاء تزوجوا بنساء أقل منهم ثقافة. كان هذا الأمر طبيعياً في القرن الثامن عشر الأوروبي.

(86) فلم Elia Kazan (1955) مقتبس من رواية John Steinbeck.

(87) متحف مدريد يحتوي على أعمال كبار رسّامي القرنين السابع عشر والثامن عشر الأسبان.

(88) الطريق الرابط بين المكتبة الوطنية الموجودة زنقة ريشليو Richelieu وساحة سان جرمان.

(89) T. E. Lawrence 1888 - 1935 مؤلف **أعمدة الحكمة السبعة** 1926.

(90) André Philip أستاذ جامعي اشتراكي معتدل معجب بالحركة العمّالية البريطانية.

(91) Robert Bresson مخرج Les dames du bois de Boulonge 1950.

(92) Cesare Pavese 1908 - 1950 مؤلف **le métier de vivre** 1952.

(93) El Greco 1541 - 1641 رسّام أسباني من أصل يوناني عاش في طليطلة.

(94) قطعة الحرية للشاعر الفرنسي السوريالي Paul Eluard 1895 - 1952.

(95) Madras في الهند و Recife في البرازيل، ضمن الإمبراطورية البورتغالية التي ضمّت في القرن الخامس عشر مدناً ساحلية مغربية.

(96) انظر ص 184.

(97) محطة Saint Lazare منها تنطلق القطارات القاصدة ضواحي باريس.

(98) Julien Duvivier مخرج la fête à Henriette 1952

Federico Fellini مخرج **La strada** 1954 وبطلة الفلم تسمّى Gelsomina

(99) أغنية Les escliers de la Butte للمغنية Patachou.

(100) René Clair مخرج وناقد سينمائي 1898 - 1981.

Elie Faure يعتبر أول ناقد سينمائي حقيقي 1873 - 1937.

(101) Bergotte الكاتب مستنبط من شخصية Anatole France.

Elstir الرسّام مستنبط من شخصية Claude Monnet.

Vinteuil الموسيقي مستبط من شخصية Saint - Saëns.

(102) Alain Robbe - Grillet مؤلف **Pour un nouveau roman** 1963.

(103) Agnés Varda مخرجة La Pointe - courte 1954.

(104) Lucchino Visconti مخرج Terra trema 1948.

(105) Roberto Rossellini مخرج Voyage en Italie 1953.

(106) Jean Vilar 1912 - 1971 مؤسس المسرح الوطني الشعبي T N P الموجود بقصر Chaillot
رئسه من 1951 إلى 1963.
(107) Joseph Mankiewicz مخرج La comtesse aux pieds nus 1954.
Michelangelo Antonioni مخرج El Grido الصرخة 1957.
(108) انظر الهامشة 45.
(109) Rouben Mamoulian مخرج la Reine Christine 1933.
(110) Paul Valéry 1871 - 1945 من أكبر شعراء القرن العشرين الفرنسيين وليد مدينة Sète.
(111) يرمز فاوست إلى عالم الإبداع العلمي والتقني حسب تأويل شبانغلر.
(112) Jean Renoir مخرج فلم Toni 1934 الذي يعتبر مثال أفلام الواقعية الجديدة.
(113) Senso 1954 مقتبس من عمل الكاتب والموسيقار 1842 - 1918 Arrigo Boito.
(114) Berthold Brecht 1898 - 1956 معروف بنظريته في الأداء المعروفة بالابتعاد Distanciation.
(115) Benito Alezraki مخرج Raices 1954.
(116) Emiliano Zapata 1879 - 1919.
Pancho Villa 1878 - 1923.
بطلا الثورة المكسيكية التي أطاحت سنة 1909 وما بعدها بدكتاتورية الجنرال دياز Diaz.
(117) S. M. Eisenstein مخرج Que viva Mexico 1931.
Elia Kazan مخرج Zapata 1952 بطولة مارلن براندو.
(118) Graham Greene مؤلف **la Puissance et la Gloire** 1940، قصة قسّ يعيش مع الفقراء والمضطهدين أيام الثورة المكسيكية الثانية.
(119) Luis Bunuel أكبر مخرج سينمائي أسباني، سوريالي النزعة، ثوري ومعادي للكنيسة.
(120) Marcel Hanoun مخرج Une histoire simple 1959.
(121) Joseph Peveney من أحسن مخرجي الأفلام من الدرجة ب.
(122) Robert Aldrich مخرج La légende de Lylah Clare 1968.
بطولة Kim Novak.
(123) اسمه الحقيقي Domingo Badia وصدر كتابه في باريس سنة 1814 تحت عنوان **Voyage de Ali Bey Abbassi**.
(124) من مرثية أبي البقاء الرندي.
دار الزمان علي دارا وقاتله     وأما كسرى فما آواه إيوان.
(125) General Bugeaud قاد الجيوش الفرنسية في الجزائر من سنة 1834 إلى 1848.
(126) General Pélissier.
(127) James Joyce 1882 - 1941. أحد كبار كتاب اللغة الإنجليزية.
كاثوليكي إيرلندي، رفض الجنسية الإيرلندية بعد الاستقلال.

(128) هسّه ألماني الأصل متجنس بالجنسية السويسرية. وزريخ عاصمة سويسرا الألمانية.

(129) Walther Ulbricht 1893 - 1973 انتخب على رأس الدولة الألمانية الشرقية سنة 1960.

(130) Obock مرفأ في القرن الإفريقي على شاطىء الصومال.

(131) Rossi, Rubinacci, — Rizzitano — مستعربون إيطاليون اشتغلوا في إطار معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة نابولي. تعلموا العربية في مصر كشيخهم Nallino.

(132) I am the Walrus أغنية لمجموعة The Beatees.

(133) Rudyard Kipling 1865 - 1936. هو الذي خاطب الولايات المتحدة قائلاً Take up the White Man's Burden. تقبّلي عبء الرجل الأبيض.

(134) يقول طوينبي أن سبب انهيار الإمبراطوريات تحالف البروليتاريا الداخلي والبروليتاريا الخارجي.

(135) Wallace K. Ferguson مؤلف **La Renaissance dans la pensée historique** 1950.

(136) I have sinned عوض I have Sind.

(137) Louise Brooks من أكبر ممثلات السينما الصامتة. عرفت بتشخيصها أفلام G. W. Pabst.

(138) Hans Castorp بطل رواية **La montagne magique** 1924.

(139) الآية 38 من سورة ياس (36)

# المحتويـات

عاش ادريس عشرين سنة تحت الاحتلال وعشرين سنة في ظل الاستقلال.

ثم مات، أو قلْ، تبخر في الهواء، تاركاً أوراقاً مبعثرة.

هل مات بسذاجته؟ بتردّده؟ بإيمانه؟

أسئلة يطرحها شعيب، صديقه الوفي، ويحاول الراوي أن يجيب عنها من خلال ترتيبه وتأويله للصحائف الادريسية.

أين الحقيقة؟

في أقوال ادريس؟ في تصوراته وتطلعاته؟

في تصرفاته؟ في واقعه كما بدا لغيره؟

محاولة، ربما يائسة، لرصد سيرة فرد وتربية جيل.

محاولة، ربما يائسة، للتخلص من أنماط التعبير والعودة إلى معاينة الأشياء.

ع.ع.



# أوراق

صمم الغلاف: كريم الحاج